وهبي سليمان غاوجي الألباني

أركان الإيمان



مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

أركان الإيمان

الطبعة الأولى

١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م

المقـــدّمة

الحمد لله الذي دعا العقول إلى الايمان بالله تعالى وهداها إليه ، ونصب لها الأدلة القريبة والبعيدة في الدلالة عليه ، والصلاة والسلام على رسوله محمد الذي بين كتاب الله تعالى وأوضح ما فيه ، ودعا إلى الله تعالى قولاً وعملاً وخلقاً وسلوكاً ، وعرف الناس باركان الايمان ، فكان الناس بدعوته على هدى من الابانة وبرهان ، وعلى آله وصحبه واخوانه اولي العزم والصدق في الايمان .

أما بعد :

* فان اولى واجبات المرء الدينية معرفةُ الله تعالى والايمان به ، ومعرفة أسمائه وصفاته والتصديق بها ، ومعرفة أوامره سبحانه ونواهيه عن برهان من قرآن وسنة أو عقل أو نظر ، قال الله تعالى (فاعلم انه لا إله إلا الله) .

وان من علامات صحة الايمان الايمانَ بما جاء من عنده سبحانه ، ومما جاء من عنده سبحانه اركانُ الايمان وهي : الايمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر .

ومن هنا كان أهمَّ العلوم وأشرفها واحقها بالعناية علمُ أصول الدين

وقواعده ، وهو الذي سمي قديماً باسم علم التوحيد أو علم الكلام، وسماه الامام أبو حنيفة رحمه الله تعالى الفقه الأكبر . قال الشيخ ابراهيم اللقاني في جوهرته .

فالعلم بأصل الدين — محتّم يحتاج للتبيين .

* القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الأصل في تقرير أركان الايمان وحقيقته وأصوله وفروعه .

والعقل والنظر والحواس هي الأصل الأول في تقرير أدلة وجود الله تعالى أولاً ، وترفق معها أدلة الشرع من الكتاب والسنة .

لقد كان الرعيل الأول من أجيال المسلمين في غنى عن تأليف في التوحيد ، كما كان في غنى عن تآليف في التفسير والحديث واللغة والسيرة .. وإنما كان الناس يتلقون ذلك ويتلقونه من الأفواه إلى الافئدة والآذان .

حتّى جاء دور تدوين العلوم وقد اتسعت دائرة الأجيال المسلمة وتشعبت ديارها وتعددت أوطانها ، فبدت الحاجة إلى التأليف ، فكان ان أخذ العلماء العاملون يملون ما يريدون املاءه على الناس من تفسير وحديث وفقه وتوحيد وسيرة والناس يَعُون ذلك عنهم وينقلونه إلى أمثالهم .

وعلى توسع دائرة تلك الأجيال وتشعب ديارها سمع المسلمون بثقافات أخرى ، وأدخل بعض من دخل في الاسلام ثقافات أخرى ، وأخذ آخرون — وقد أعجزهم السنان عن محاربة الاسلام — يكيدون للاسلام بما ينسبون إليه من شبه وأباطيل ، وحرص بعضهم على تهديم هذا الدين من خلال الانحراف في تفسير القرآن الكريم ، وتحميله ما لا يقوم عليه دليل ، ومن خلال وضع الأحاديث على لسان رسول الله ﷺ ، ومن خلال افتراء الفتاوى والأقوال على أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم من كرام التابعين وتابعيهم .

وسعى بعضهم إلى تأويل نصوص الاسلام من خلال فلسفات قديمة ،

وعادات موروثة ، وثقافات غريبة .. بما لا يتفق مع أصول الاسلام وقواعده .

فانبرى العلماء العاملون يؤلفون التآليف المختلفة ، في بيان الاسلام وأصوله ، ففسروا كتاب الله تعالى وبينوا معانيه ، وشرطوا لتفسيره شروطاً ، وذكروا فيه قواعد وأصولا .

وجمعوا حديث رسول الله ﷺ وصنفوه صحيحاً وحسناً وضعيفاً ، وجردوه من الموضوع المفترى على رسول الله ﷺ .

وكتبوا في سيرة رسول الله ﷺ وغزواته وشمائله وأعماله ، وحال العرب قبل ظهور الإسلام وعند ظهوره وما آل إليه أمرهم بالدخول فيه .

وكتبوا في أصول الدين « الفقه الأكبر » يبينون هذه الأصول من خلال الكتاب والسنة والعقل والنظر ، ويدفعون — بأيد قوية فهمت علوم القرآن والسنة — ما أريد إلصاقه بالاسلام من عقائد زائغة ودعوات باطلة ، فكان ذلك سبيلاً لحفظ عقائد الأمة وأحكام دينها .

وكتبوا في الفقه العملي ابتداء « بالأهم » من الطهارة والصلاة والزكاة إلى الوصايا والمواريث على أصول الاسلام من الكتاب والسنة واجماع الأئمة واجتهاد أهل الاجتهاد ، وأقوال الصحابة وتابعيهم وفتاويهم من خلال أصول الاسلام .

وقد كان أولَ من كتب في أصول الدين ورد شبهات أهل الزيغ في الاعتقاد الامامُ الأعظم أبو حنيفة رحمه الله تعالى بطريقي النقل والعقل ؛ وتتابع الكاتبون في أصول الدين إلى أن استقرت قواعدها على يدي الامامين العظيمين أبي منصور الماتريدي وأبي الحسن الأشعري رحمهما الله تعالى .

حتى إذا نقلت الفلسفات الأجنبية إلى بلاد المسلمين — وهي تقوم — في غالب الأحيان — على أساس من الالحاد وتأليه العقل والتهجم على الغيب بغير دليل — واشتغل بها طائفة من المسلمين إعجاباً بها لجدتها ، أو فضولاً منها

لمعرفة ما عند غيرها ، أو سلاحاً لتشويه الاسلام وافساد حياة المسلمين ، انبرى العلماء العاملون كذلك يردون تلك السهام الموجهة إلى الايمان بالله تعالى والتصديق بما جاء من عنده بمثل أسلحة أصحاب تلك الفلسفة ليكون ذلك أحسم للخلاف وأقرب للانتفاع لمن شاء منهم ان يستقيم . فصار علم أصول الدين في تلك الظروف علماً يشتمل في الغالب — على القواعد الفلسفية من المنطق والمقولات وأحكام الفكر وتقويم الحكم ، ليستلّ بذلك ما عند الآخرين من شبه وأضاليل من باب (من فمك أدينك) .

ولن يزال هذا شأن العلماء العاملين يقررون أصول الدين من الايمان بالله تعالى وما جاء من عنده من عقائد ، بمثل الأسلحة التي يشرعها أعداء الاسلام عليه لما ذكرنا .

والقرآن الكريم حجة وبرهان ، فانه مع تقريره أصول الدين باسلوبه الوجيز المعجز ، يرد شبه أعداء الاسلام — بعد ايرادها — بشيء من تعابيرهم وأساليبهم في المناظرة والحجاج .

.. هذا ويلاحظ في جيلنا الحاضر غفلة جماعة من المثقفين منه — فضلاً عن العامة — عن الكثير مما يجب اعتقاده ، ويحسن معرفته في شأن الايمان بالله ومعرفة اسمائه وصفاته ، وشأن الملائكة الكرام وصفاتهم وأعمالهم ، وشأن الكتب المنزلة وحملتها من الأنبياء والمرسلين . وشأن الايمان باليوم الآخر وما يتعلق به ، وشأن الايمان بالقضاء والقدر وما يتعلق به .

فشرفني الله تعالى بالمشاركة في عرض أركان الايمان على المسملين — وطلاب الحق من غيرهم — باسلوب سهل واضح ، واسأل الله تعالى أن يكون هو الصواب ، اسوة بالعلماء العاملين الذين كتبوا في أركان الايمان . ورجاء الأجر والمثوبة من الله تبارك وتعالى ، واسهاماً في عرض الحق على أهله وطلابه ، وشهادة تنفعني عند الله تعالى يوم يقوم الاشهاد .

وسيلاحظ القاريء الكريم أني أطلت في تقرير ركن الايمان بالله تعالى لأنه الأصل الأصيل لما بعده من الأركان ، ولأنه الركن الذي اذا استقرّ في القلب وتمكن منه ، اندفع به صاحبه يؤمن بكل ما جاء من عند الله تعالى دون تردد وشك .

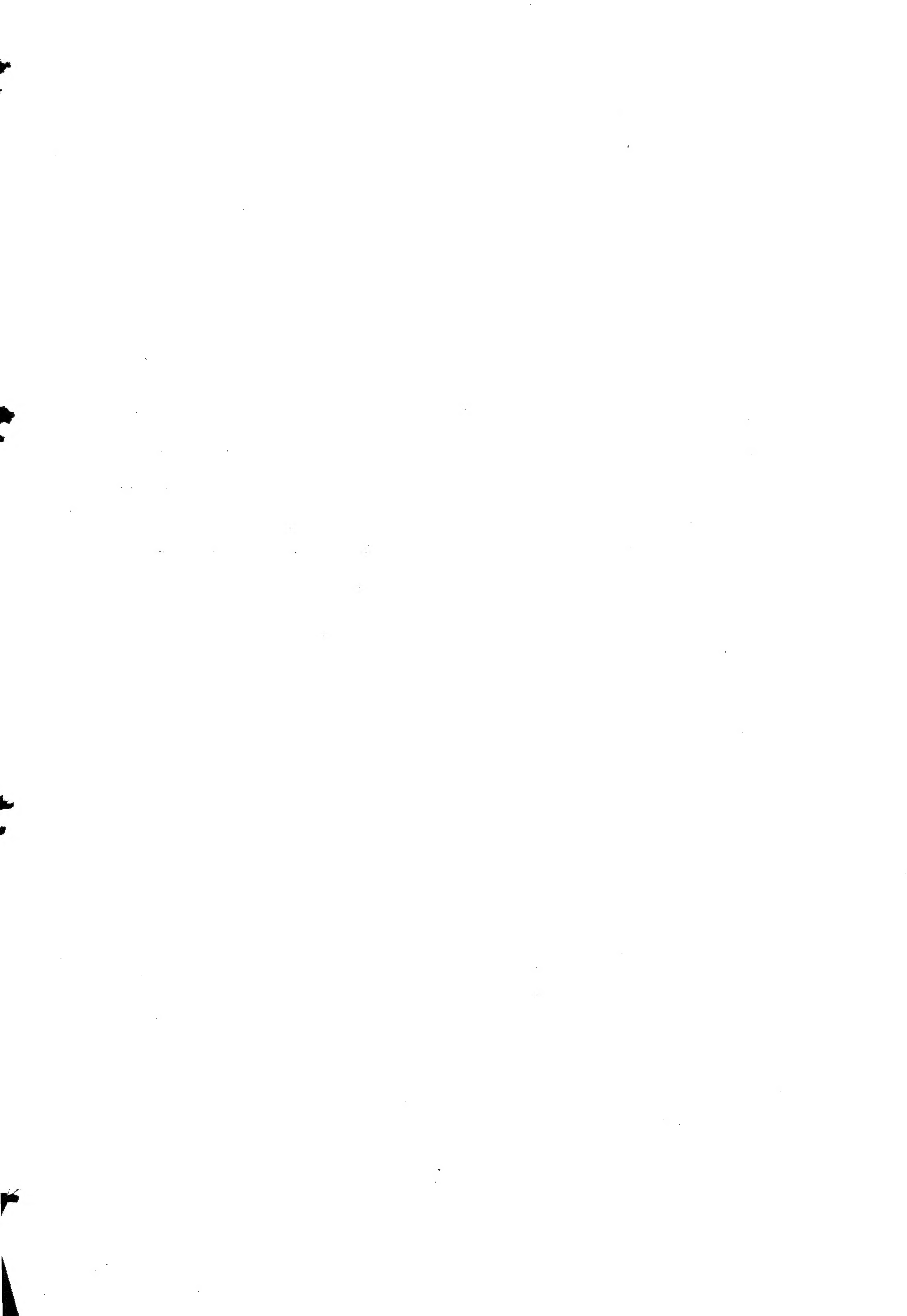
وإني ما أطلت في ركن الايمان بالقضاء والقدر ، فقد أمرنا بالامساك عن الخوض في القدر ، بأكثر من بيان حقيقته .

فان القدر من سر الله تعالى في خلقه ، وان اطالة البحث فيه بحث فيما لم نكلف ، ثم لأنه سير في طريق شائك مظلم يخشى معه على سالكه العثار والهلاك معاذ الله .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وهو مولانا فنعم المولى ونعم النصير .

دمشق ضحى الخميس ٣٠ / محرم الحرام سنة ٣٩٤ .

وهبي سليمان غاوجي الألباني



حديث الإيمان والإسلام والإحسان

عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه [1] وقال يا محمد : أخبرني عن الإسلام ؟ قال : (الإسلام أن تشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلاً) قال صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه [2] ، قال فاخبرني عن الايمان ؟ قال (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) قال : صدقت . فأخبرني عن الاحسان ؟ قال : (الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) قال فأخبرني عن الساعة ؟ قال (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل) قال : فأخبرني عن أماراتها [3] ؟ قال (أن

---

(١) وضع الرجل الغريب كفيه على فخذي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) سبب تعجبهم لان هذا خلاف عادة السائل المستفيد ، فهو يقول مثلا أحسنت .

(٣) اماراتها ما يسبق وقوعها وهي نوعان صغرى وهي كثيرة منها كثرة الجهل بالاسلام ونقض عراه وظلم الحكام وتبرج النساء وانتشار الزنا والفواحش وقلة الامانة وترك=

تلد الأمة ربتها [1] وأن ترى الحفاة العراة رعاة الشاء يتطاولون في البنيان [2] .) قال : ثم انطلق فلبث ملياً ثم قال لي يا عمر : (أتدري من السائل؟) قلت : الله ورسوله أعلم . قال (فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .) .

رواه مسلم بهذا اللفظ ورواه الترمذي بنحوه بتقديم بعضه وتأخير بعضه ، وأخرجه أبو داود بنحوه وفيه (قلت ثلاثاً) . ورواه النسائي بمثل رواية مسلم .

انظر جامع الأصول لابن الأثير . ط . أنصار السنة / ١ — ١/١٣١ .

= الحكم بما أنزل الله تعالى . و كبرى وهي عشرة منها طلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى عليه السلام ويأتي الكلام عليها تفصيلا باذن الله تعالى .

(١) يعني أن ينتشر الرق والتسري بين الحكام في القصور فلا يتخيرون لفرشهم فتصبح الأمة سيدة القصر وسيدة أمها ، او المراد يخرج أولادهم سفهاء ويكثر الشر والفساد فيهم وفي امهاتهم السافلات على الاسر والبيوت .

(٢) اشارة إلى انتقال الثروات الطائلة إلى من لا وزن لهم ولا منزلة فيترفعون برفع البناء وتزيينه على الآخرين . والرعاة جمع راع والشاء جمع شاة .

الفصل الأول

الإيمان بالله تعالى

الايمان بالله تعالى هو التصديق القاطع الجازم بوجود الله تعالى ، كما أخبر سبحانه وتعالى به واطمئنان القلب وسكون النفس الى ذلك بحيث لا يبقى في القلب أدنى مرض وظلمة ، ولا في العقل أقل شبهة أو ريبة في وجود الله جل جلاله ووجوب الايمان به سبحانه ، فلو زالت الجبال من مواضعها ما زال ايمان المؤمن عن قلبه ، ولو ضل الناس عن الايمان به سبحانه ثبت هو على ايمانـــه .

ويتحقق الايمان به تعالى **وما جاء من عنده** عن طريق الشرع من القرآن والسنة ، وبطريق العقل من النظر والفكر السليمين .

يتحقق الايمان بالله تعالى **وما جاء عن** طريق الشرع من مجموع أمور ثلاثة :

أ — الايمان باسماء الله تعالى مثل : الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الحليم ، القابض الباسط ، الحكيم ، الحق ، المحيي ، المميت ، الواحد ، الأحد ، **مالك الملك** ،

الرب ، المعطي ، المانع ، الصبور ، الصادق ، الستار جل جلاله [1] .

ب ـ الايمان بصفات الله تعالى مثل الوجود والقدم والوحدانية والبقاء .

تنقسم صفات الله تعالى من حيث الايمان بها الى قسمين : قسم يجب معرفته والايمان به اجمالاً ، لما قام من الأدلة النقلية والعقلية على ذلك إجمالاً وهو : جميع الكمالات في نظر العقل مثل العدل والحب والرحمة والانتقام والمغفرة والحكمة .

وقسم يجب معرفته والايمان به تفصيلاً لما قام من الأدلة النقلية والعقلية على ذلك تفصيلاً وهي عشرون صفة : الوجود ، القدم ، البقاء ، الوحدانية ، المخالفة للحوادث القيام بالنفس / العلم ، القدرة ، الارادة ، السمع ، البصر ، الحياة ، الكلام / كونه تعالى عالماً ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً ، حياً ، جل جلاله ، وما يرد من صفات أخرى فهي داخلة في هذه الصفات . والله أعلم .

---

(١) انظر عون النفس في معرفة الاركان الخمس . روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ان لله تعالى تسعة وتسعين اسما مائة الا واحدا من أحصاها دخل الجنة) ومعنى الاحصاء لها عدها مع الايمان بها . وقد عدّ الترمذي أسماء الله تعالى في رواية الوليد بن مسلم الذي تفرد بها وقد اختلف أهل الحديث عليه ، وعدها الحاكم من طريق صفوان بن صالح عن الوليد ، وقد اختلف العلماء في سرد الاسماء هل هو مرفوع أو مدرج من الراوي ، فذهب كثيرون منهم إلى الاول واستدلوا على جواز تسمية الله تعالى بما لم يرو في القرآن بصيغة الاسم لان كثيراً من هذه الاسماء كذلك ، وذهب آخرون إلى أن التعيين مدرج لخلو أكثر الروايات من نقله . وانظر تفصيل القول في تعيين الاسماء والاقوال في ذلك كتاب / الجوائز والصلات من جمع الاسامي والصفات / للشيخ أبي الخير نور الحسن خان . وأكثر نقوله من فتح الباري .

ج - **الايمان بافعال الله تعالى** مثل الخلق والرزق والاحياء والاماتةوالنفع والضر ، والاعانة والخذلان ، فيفعل الله تعالى ما يشاء ويختار ، وليس يكون ذلك من أحد من الخلق كما يكون منه سبحانه .

وقبل الكلام على صفات الله تعالى الواجب معرفتها والايمان بها تفصيلاً (١) ، نذكر المسائل التالية :

١ - تنقسم صفات الله تعالى من حيث الاستدلال بها الى قسمين : قسم يقع الاستدلال عليه بالدليل العقلي ابتداء ويأتي به الشرع ، وهو : كل صفة يتوقف عليها تحقيق المعجزة التي يكرم الله تعالى بها رسولاً من رسله عليهم الصلاة والسلام وهي وجوده تعالى ؛ قدمه ، بقاؤه ، وحدانيته ، قيامه بنفسه . مخالفته للحوادث ، قدرته ، ارادته ، علمه ، حياته جل جلاله .

وقسم يقع الاستدلال عليه بالدليل النقلي ابتداء ويقبل العقل ذلك ويؤيده ، وهو : كل صفة لا يتوقف عليها تحقيق المعجزة التي يكرم الله بها رسولاً من رسله عليهم الصلاة والسلام وهي عديدة منها : السمع والبصر والكلام .

٢ - ليست صفات الله تعالى - المعاني الثابتة لله تعالى - عين ذاته ، أي لا يكون سبحانه سميعاً بذاته ، بصيراً بذاته ، وهو سميع بصفة السمع وبصير بصفة البصر جل جلاله .

وليست صفات الله تعالى غير ذاته ، أي لا تنفك ذات الله تعالى عن صفاته ، فلا يجوز أن تزيد له صفة لم تكن ، أو تكمل صفة كانت ناقصة ، بل هي قديمة بقدم الله تعالى ، كاملة بكماله سبحانه .

---

(١) لا يعني الايمان بها تفصيلا عدها فقط ، بل يكفي اذا قرر المسلم بها أن يقر ، كما ندب المتأخرون إلى اقرار الزوج زوجته أول خلوته بها أركان الايمان فيقول لها مثلا : أنت تقرين بالله وملائكته وكتبه ورسله الخ . وهنا يقال أنت تقر بأن الله تعالى موصوف بالقدم والبقاء والوحدانية الخ . والله أعلم .

٣ ـ يجب أن نصف الله تعالى بجميع ما وصف نفسه به من صفات على ما يليق به سبحانه ، فننزهه جل علاه عن الجسمية والحيز والاحتياج وجميع ما فيه مشابهته أحداً من خلقه أو مشابهة أحد من خلقه له ، وننزهه سبحانه كذلك أن يكون خالياً مما وصف به نفسه .

لا نخوض في التعرف على كيفية ثبوت صفات الله تعالى له ، لأن ذاته سبحانه غير مدركة ولا مبصرة لنا ـ في الحياة الدنيا ـ بالحواس فصفاته سبحانه كذلك .

* ذكر الامام السيوطي ان أم سلمة رضي الله تعالى عنها سئلت عن قول الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) فقالت : « الكيف غير معقول ـ لا يدركه العباد ـ والاستواء غير مجهول ـ بل معلوم لذكره في القرآن الكريم لا أن كيفية الاستواء معلومة ـ والاقرار به من الايمان والجحود به كفر ، لأنه انكار لبعض القرآن الكريم . وهو جواب منقول بعداً عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك بن أنس رضي الله تعالى عنهم [1] .

* علماء المسلمين وفقهاؤهم متفقون في صفات الله تعالى على تأويل اجمالي لها ، بمعنى تنزيه الله تعالى عن كل نقص أو احتياج ، ومشابهة للخلق ، ثم تفويض العلم التفصيلي بالمقصود منها الى علم الله عز وجل ، ولولا هذا التأويل الاجمالي لوقع المؤمن في متناقضات في جانب الله تعالى معاذ الله .

أ ـ فالله تعالى يقول : (ولتصنع على عيني ـ واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ـ تجري بأعيننا ـ) (وهو معكم أينما كنتم ـ وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول ـ ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ـ ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون .) .

---

(١) انظر أضواء البيان ، للشيخ محمد أمين الشنقيطي وأحسن الحديث للشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

(فأتى الله بنيانهم من القواعد — فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا —) .

(وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله — أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض — وهو الله في السموات وفي الأرض — الرحمن على العرش استوى — وسع كرسيه السموات والأرض ..) .

ب — كما يقول سبحانه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير — لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير — قل هو الله أحد الله الصمد — لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) .

واستدل ابراهيم عليه الصلاة والسلام على بطلان عبادة غير الله تعالى بطروء الحوادث — التغير — على غيره سبحانه وتحوّله من حال الى حال ، قال تعالى (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ..) .

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين على سنن العرب في البيان ، ومن أساليب العرب الحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه والكناية ، ولا بد ان ذلك جار في كتاب الله تعالى فعلاً ، وان خالف بعضهم في بعض التسميات فنفى المجاز في القرآن بمعنى التسمية بذلك ، فالكل يتفقون في مثل قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل) ان الحقيقة غير مرادة بل المراد الخضوع والطاعة للوالدين .

اذن كيف يوفق بين هذي النصوص التي يبدو على ظاهرها خلاف ، والله تعالى يقول (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ، وبين ما عرف من الأدلة القطعية — ومرده النصوص والآيات والقواعد العقلية — من استحالة كون الله تعالى جسماً وأبعاضاً أو تحلّ فيه الحوادث أو يحتاج الى شيء من خلقه ، أو يكون في مكان وحيز حيناً — وفي مكان وحيز آخر حيناً آخر — والله تعالى خلق كل ذلك (خالق كل شيء .) .

قال الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان حفظه الله تعالى : الجواب أن هذه النصوص القرآنية هي من المتشابه الذي ذكر الله تعالى في كتابه الكريم آيات منه ، والمقصود بالمتشابه كل نص تجاذبته الاحتمالات حول المعنى المراد منه وأوهم بظاهره ما قام من الأدلة على نفيه غير أن هنالك آيات أخرى تتعلق بصفات الله تعالى ولكنها محكمات ــ أي قاطعات في دلالاتها لا تحتمل الا معناها الواضح الصريح كقوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ــ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

وقد أوضح الله تعالى في القرآن الكريم ضرورة اتباع المؤمن للنصوص المحكمة في كتابه وبناء عقيدته في الله بموجبها ، ووضع النصوص المتشابهة من ورائها من حيث فهمها والوقوف على المعنى المراد منها ، وشدد النكير على من يتجاهل النصوص المحكمة النيرة القاطعة ليلحق بالعبارة المتشابهة الغامضة ويفسرها كما يشاء ، وذلك في قوله عز وجل (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله . والراسخون في العلم يقولون آمنابه كل من عند ربنا وما يذّكّر الا أولو الألباب). وبناء على ذلك فقد اتفق المسلمون كلهم على تنزيه الله تعالى عما يقتضيه ظاهر تلك النصوص القرآنية من اثبات المكان والجوارح والأعضاء وطروّ الحوادث عليه تمسكاً بالمحكم من النصوص الدالة على ذلك ، وتنفيذاً لأمر الله عز وجل ولتحذيره من اتباع المتشابه والخوض في تأويله مع ترك المحكم الواضح .

وبعد أن اتفقوا على ذلك ــ وهذا هو القدر الذي يجب أن يعتقده كل مسلم ــ اختلفوا في موقفهم من تلك النصوص المتشابهة الى مذهبين :

أولهما تمسك به السلف المتقدمون . وثانيهما جنح اليه مَن بعدهم من المتأخرين من منتصف القرن الرابع ــ فذهب السلف إلى عدم الخوض في تأويل وتفسير تفصيلي لهذه النصوص والاكتفاء بتنزيه الله تعالى عن كل نقص ومشابهة

للحوادث ، وسبيل ذلك التأويل الاجمالي لهذه النصوص وتحويل العلم التفصيلي بالمقصود منها الى الله عز وجل .

أما ترك هذه النصوص على ظاهرها دون تأويل سواء كان اجمالياً أو تفصيلياً فهو غير جائز ، وهو شيء لم يجنح اليه سلف ولا خلف ، كيف ولو فعلت ذلك لحملت عقلك معاني متناقضة في شأن كثير من هذه الصفات ، فقد أسند الله تعالى الى نفسه العين — بالافراد — في قوله تعالى (ولتصنع على عيني .) وأسند مرة الى نفسه الأعين — بالجمع — فقال (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) . فلو ذهبت تفسر كلاً من الآيتين على ظاهرهما دون أي تأويل لألزمت القرآن الكريم بتناقض هو منه بريء .

وتقرأ قول الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقوله (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) فلو فسرت الآيتين على ظاهرهما دون أي تأويل اجمالي أو تفصيلي لألزمت كتاب الله تعالى بالتناقض الواضح اذ كيف يكون مستوياً على عرشه وبدون أي تأويل ، ويكون في الوقت نفسه أقرب من حبل الوريد — عرق في العنق — بدون تأويل ؟ وتقرأ قوله تعالى (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور) وقوله تعالى (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض اله) . فان فسرتهما على ظاهرها أقحمت التناقض أيضاً في كتاب الله جل جلاله كما هو واضح . ولكن حين تنزه الله تعالى حيال جميع هذه الآيات عن مشابهة مخلوقه في أن يتحيز في مكان وتكون له أبعاد وأعضاء وصورة وشكل ، ثم تكل تفصيل المقصود بكل هذه النصوص الى الله جل جلاله تكون قد سلمت بذلك من التناقض في الفهم ، وسلّمت القرآن من توهم أيّ تناقض فيــه .

وهذه هي طريقة السلف رحمهم الله تعالى ، ألا نراهم يقولون (أمرّوها

بلا كيف [1] إذ لولا انهم يؤولونها تأويلاً اجمالياً بالمعنى الذي أوضحنا لما صح منهم أن يقولوا ذلك ، إذ لماذا يُمرونها بلا كيف ودلالة اللغة والصياغة العربية واضحة تمنع كل لبس أو جهل ، سواء في أصل المعنى أو في كيفيته ، ولكنهم أيقنوا أن الكيفية ليست على ظاهر ما تدل عليه الصياغة واللغة بسبب ما دلت عليه الآياتُ المحكمة الأخرى . وهذا تأويل اجمالي واضح ، الاّ أنهم لم يقحموا أنفسهم في تفسير هذه النصوص بكيفيات أخرى يلتزمونها . وهذا هو التوقف عن التأويل التفصيلي . فتأمل ذلك فانه دقيق ، وهو الحق الذي لا ينبغي أن يلتبس عليك بغيره .

ومذهب الخلف الذين جاؤوا من بعدهم هو تأويل هذه النصوص بما يضعها على صراط واحد من الوفاق مع النصوص المحكمة الأخرى التي تقطع بتنزه الله تعالى عن الجهة والمكان والجارحة ففسروا الاستواء في (الرحمن على العرش استوى) بتسلط القوة والسلطان وهو معنى ثابت في اللغة ومعروف ، وفسروا اليدين في الآية الأخرى (لما خلقت بيدي ، بل يداه مبسوطتان) بالقوة أو بالكرم ، والعين (ولتصنع على عيني) بالعناية والرعاية ، وفسروا الاصبعين في الحديث (ان قلوب العباد بين اصبعين من أصابع الرحمن) بالارادة والقدرة ، وقالوا في حديث (ان الله خلق آدم على صورته) ان الضمير راجع الى آدم عليه السلام لا الى ذات الله تعالى أي ان الله تعالى خلق آدم عليه السلام منذ اللحظة الأولى التي أوجده فيها على صورته وهيئته التي كان يتمتع بها فيما بعد فلم يتطور من شكل الى آخر ، وقالوا أيضاً يحتمل أن يعود الضمير الى الأخ المذكور في صدر الحديث حسب الرواية التي ساقها مسلم في صحيحه ، (اذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه فان الله خلق آدم على صورته) . أي فليكرم الوجه الذي هو مظهر لخلقة آدم عليه السلام ، أو الضمير

---

(١) كان يقول ذلك مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك . انظر شرح سنن الترمذي لابن العربي /٣ — ٢٤/ باب فضل الصدقة .

عائد الى ذات الله تعالى ، وذلك لما تدل عليه الرواية الثابتة الأخرى (ان الله خلق آدم على صورة الرحمن) وتكون الصورة بمعنى الصفة ، أي جهزه بصفات العلم والادراك التي هي من صفات الله عز وجل .

ويضيف قائلاً : ان مذهب السلف كان هو الأفضل في زمنهم فيقول حفظه الله تعالى : اعلم ان مذهب السلف في عصرهم كان هو الأفضلَ والاسلم والأوفق للايمان الفطري المرتكز في كل من العقل والقلب ، ومذهب الخلف في عصرهم أصح وهو المصير الذي لا يمكن التحول عنه بسبب ما قام من المذاهب الفكرية والمناقشات العلمية وبسبب ظهور علم البلاغة العربية مقعدة في قواعد من المجاز والتشبيه والاستعارة .

وهكذا فقد كان بوسع الامام مالك رحمه الله تعالى أن يقول في عصره لذلك الذي سأله عن معنى الاستواء في الآية : الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، اذ كان العصر عصر ايمان ويقين راسخين بسبب قرب العهد بعصر النبوة وامتداد الاشراق اليه — ولكن لم يكن الأئمة الذين كانوا في عصر التدوين وازدهار العلوم واتساع حلقات البحث وفنون البلاغة أن يسلموا ذلك التسليم دون أن يحللوا هذه النصوص على ضوء ما انتهوا اليه من فنون البلاغة والمجاز ، خصوصاً ان فيهم الزنادقة الذين لا يقنعهم منهج التسليم ويتظاهرون بالحاجة الى الفهم التفصيلي ، وان كانوا في حقيقة الأمر ليسوا كذلك والمهم أن تعلم أن كلا المذهبين متجهان الى غاية واحدة ، لأن المآل فيهما الى أن الله عز وجل لا يشبهه شيء من مخلوقاته ، وانه منزه عن جميع صفات النقص ، فالخلاف الذي نراه بينهما خلاف لفظي وشكلي فقط [1] أهـ .

وقال الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني أحد شراح القدوري في شرحه العقيدة

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق . للشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي /١٢٥ — ١٢٦/

الطحاوية: قوله ونقول ان الله يغضب ويرضى وليس كأحد من صفات الورى ا هـ . قال الشيخ عبد الغني : لأنه تعالى منفرد بصفاته لذاته ، فكما لا تشبه ذاته الذوات فصفاته لا تشبه الصفات (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . ولا يؤولان بأن المراد ببغضه ورضاه ارادة الانتقام ومشيئة الانعام أو المراد غايتهما من النقمة أو النعمة . قال فخر الاسلام : اثبات اليد والوجه حق عندنا لكنه معلوم بأصله متشابه بوصفه ، ولا يجوز ابطال الأصل بالعجز عن درك الوصف وانما ضلت المعتزلة من هذا الوجه فانهم ردوا الأصول لجهلهم بالصفات على وجه المعقول فصاروا معطلة . كذا ذكره شمس الأئمة ، ثم قال : وأهل السنة والجماعة أثبتوا ما هو الأصل المعلوم بالنص أي الآيات القطعية والدلالات اليقينية ، وتوقفوا فيما هو المتشابه وهو الكيفية ، ولم يجوزوا الاشتغال بطلب ذلك كما وصف الله به الراسخين في العلم فقال (يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذّكّر الا أولو الألباب) ا هـ [1] .

وقال شيخ المفسرين بالأثر في عصرنا الشيخ محمد أمين الشنقيطي في تفسيره عند قوله تعالى (ثم استوى على العرش يغشي الليل والنهار) . الاعراب : هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات كقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) ونحو ذلك أشكلت على كثير من الناس اشكالاً ضل بسببه خلق لا يحصى كثرة فصار قوم إلى التعطيل وقوم إلى التشبيه ـ سبحانه وتعالى علواً كبيراً عن ذلك كله ـ والله جل وعلا أوضح هذا غاية الايضاح ولم يترك فيه أي لبس أو اشكال وحاصل تحرير ذلك أن الله تعالى بيّن أن الحق في آيات الصفات متركب على أمرين :

احدهما تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث في صفاتهم سبحانه وتعالى

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية للغنيمي تحقيق الاستاذين محمد مطيع الحافظ ومحمد رياض المالح /١٨١ ـ ١٨٢/

عن ذلك علواً كبيراً . **والثاني** الايمان بكل ما وصف الله به نفسه أو وصفه رسوله ﷺ لأنه لا يصف الله تعالى أحد أعلم بالله من الله ((أأنتم أعلم أم الله) ولا يصف الله تعالى بعد الله أعلم من رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى فيه (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى) فمن نفى عن الله تعالى وصفاً أثبته لنفسه في كتابه العزيز أو أثبته له رسوله ﷺ زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله عز وجل فقد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق به سبحانه . ثم قال : ومن اعتقد أن وصف الله تعالى يشابه صفات الخلق فهو مشبه ملحد ضال ، ومن أثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ مع تنزيهه تعالى عن مشابهة الخلق فهو مؤمن جامع بين الايمان بصفات الكمال والجلال والتنزيه عن مشابهة الخلق سالم من ورطة التشبيه والتعطيل . والآية التي أوضح الله تعالى بها هذا هي قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فنفى عن نفسه عز وجل مماثلة الحوادث بقوله (ليس كمثله شيء) وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله (وهو السميع البصير) . فصرح في هذه الآية بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال)[1] .

وهاك ما يدل على أن المسلمين متفقون على وجوب التأويل الاجمالي في حق صفات الله تعالى ، سئل الامام أحمد عن الاستواء في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) فقال : استوى كما أخبر لا كما يخطر للبشر . وسئل الإمام الشافعي عن ذلك فقال : آمنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيل واتهمت نفسي في الادراك وأمسكت عن الخوض فيه كل الامساك . سئل الامام مالك عن الاستواء فقال : الاستواء معلوم – مذكور في القرآن المعلوم – والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة[2] .

وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري : من شبه الله تعالى بخلقه فقد كفر ومن

---

(١) أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن / ٢ – ٢٧٣ / .

(٢) ابن تيمية ليس سلفياً للشيخ منصور محمد عويس .

جحد ما وصف الله سبحانه به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله تعالى به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى .

تفسير ابن كثير /٢/٢٢٠/ .

ليس جميع من جاء بعد القرن الرابع يرى تأويل صفات الله تعالى تفصيلياً ، بل يرى الكثيرون منهم أن الامساك عن الخوض في صفات الله تعالى أسلم لأنه قول بالظن ، وقد لا يصيب به صاحبه الحق عند الله تعالى ، ثم هو تكلف لما لم نكلف به من الله تعالى ، وخوض فيما لم يخض فيه رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم .

نعم قد لا يكون مفر من التأويل التفصيلي عند مناقشة العامي وتعليمه اذ يعيش في مجتمع مادي أو مجسم للذات العلية أو مشبه لها بالخلق ، حينذاك يكون التأويل هو المقدم وحده ، فكأن التأويل التفصيلي علاج والعلاج انما يعطى في حالات مرضية واذا زال المرض تُرك العلاج ، والله أعلم [١] .

روى البيهقي عن أبي عمرو بن السماك أن أحمد بن حنبل تأول قول الله تعالى (وجاء ربك) انه جاء ثوابه . ثم قال البيهقي وهذا اسناد لا غبار عليه . انظر البداية والنهاية لابن كثير في ترجمة أحمد / ١٠ – ٣٢٥ / .

٥ – الفِرق في شأن صفات الله تعالى ثلاث :

---

(١) انظر إلجام العوام عن علم الكلام للامام الغزالي مثلاً : واذا أردت التوسع في هذا الأمر فانظر (دفع شبه التشبيه) لعبد الرحمن بن الجوزي ، ودفع شبه من شبّه لتقي الدين ابي بكر الحصني ، والسيف الصقيل للامام السبكي واصول الدين للامام فخر الدين الرازي ومشكل الحديث لابن فورك . – والجوائز والصلات للشيخ نور الحسن خان .

* أهـــل السنة والجماعة وهم المثبتون لله تعالى كل صفة كمال ورد بها الدليل القطعي .

* المعتزلة هم المبثون لله تعالى الصفات النفسية والسلبية والنافون لصفات المعاني بمعنى استقلالها ، فيقولون مثلاً ان الله تعالى يرى بذاته وليس بصفة البصر ويسمع بذاته وليس بصفة السمع .

* الجهمية (أتباع جهم بن صفوان) وهم الزاعمون بأن اثبات صفات لله تعالى – وبعضها يوجد مشابهها في العباد – نقص في ذاته تعالى ، فهم ينفون جميع صفات الله تعالى التي يوجد لها مثيل في الخلق من الحياة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر . مع أنه شتان ما بين قدرة مطلقة ذاتية هي قدرته تعالى ، وقدرة مقيدة هي معطاة من الله تعالى .

٤ – تنقسم صفات الله تعالى الواجب الايمان بها تفصيلاً الى أقسام أربعـــة :

نفسية وهي الوجود . وسلبية وهي القدم ، البقاء ، الوحدانية ، المخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس . ومعانٍ وهي ، العلم ، الارادة ، القدرة ، السمع ، البصر ، الكلام ، والحياة ، ومعنوية وهي كونه سبحانه عالماً ، مريداً ، قادراً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً ، وحياً . فهي عشرون صفـــة ينضوي تحتها سائر صفات الله تعالى وكمالاته سبحانه .

ونشرع الآن في الكلام على صفات الله تعالى المؤمن بها تفصيلاً .

أ – الصفة النفسية : الوجود :

الوجود صفة ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها مثل : كون الانسان موجوداً . وجود الله تعالى ثابت بالبداهة والفطرة

لا يحتاج الى اعمال الفكر وتحريك الذهن بشدة في اقامة الدليل على وجوده سبحانه ، ففي كل شيء في هذا الوجود دليل ناطق على وجود الله تعالى . من هذه النبتة اللطيفة الدقيقة تشق غليظ التراب حتى ترتفع على وجه الأرض – وهي لا تكاد تحتمل لمس يد رقيقة – من هذه النحلة التي تعب الرحيق من هنا وهناك وينعقد في بطونها العسل خليطاً بالماء – والماء يفسد العسل – فتقوم نحلات بتحريك الأجنحة على وجه بيت النحل كأنها مراوح وأخرى باخراج رطوبة الماء الى الخارج ، الى هذا الانسان الذي خلقه الله تعالى وسواه ، فأعطاه الذاكرة يحفظ بها معلومات سنين متطاولة ثم يخرج منها في آن معلومات موضوع واحد ، مع أنه جاء مفرقاً على الأزمنة ومفرقاً بين موضوعات . الايمان بوجود الله تعالى هو العقل ، هو الفطرة ، هو العلم والفكر ، وانكار وجود الله تعالى هو الارتكاس في الفطرة وهو الجنون بعينه ، هو الجهل الذي لا يطاق (١) .

وهاك مثلاً على جهل من ينكر وجود الله تعالى وجنونه : اعلن البروفسور الكسندر اوبارين – رئيس معهد الكيمياء الحيوية في روسيا بعد أن ظل /٣٧/ عاماً يبحث في أصل الحياة وفيما اذا كان من الممكن ايجاد الخلية الأولى عن طريق تفاعل كيماوي فقال : ان الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم أو أن تتوالد من التفاعل الكيميائي والتوالد الذاتي ، وان العلم لا يمكن أن يخوض فيما وراء حدود المادة . فلما قيل له: فماذا تقول في هذا الوجود القائم ؟ قال كلاماً لا علاقة له بالعلم والعقل : لعل الحياة جاءت من كواكب أخرى ثم ترعرعت في هذه الأرض حتى كان منها الانسان . فاعجب للمنكر كيف لا يستحيي

---

(١) ليس داء اخطر على الانسان من الجهل لذا تبرأ الله من نوح عليه السلام حين سأل ربه في ولده الكافر أن يحميه من الغرق (ان ابني من أهلي وان وعدك الحق) وقال له تعالى (انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك ان تكون من الجاهلين) وقال أحدهم : كل شيء شيء إلا الجهل فليس بشيء .

وينطق بالجهل في مجال تبرير إلحاده وجنونه [1] .

وقد سبق ذكر أن صفة وجود الله تعالى صفة ذاتية للعقل أو هو العماد الأول في وجودها ويأتي بعده النقل والبيان .

وجود الله تعالى واجب لا يُتصور عدمه سبحانه قط ، ووجود ما سواه سبحانه جائز ممكن .

وجود الله تعالى قديم لا أول له ، ووجود ما سواه سبحانه منشأ حادث ،

وجود الله تعالى تام قائم بنفسه لا يحتاج الى شيء أو الى أحد ، ووجود ما سواه سبحانه ناقص قائم بايجاد الله تعالى وفقير يحتاج الى امداد الله تعالى بما يمده به من هواء وطعام وماء .

كان الله موجوداً وليس أحد من خلقه موجوداً معه فشاء أن يوجدهم فأوجدهم ويشاء أن يفنيهم فيفنيهم الى حين .

ومن هنا كان قول بعضهم : وجود الله تعالى حق واجب ، ووجود ما سواه سبحانه جائز ممكن .

ب ـ **الصفات السلبية** وهي خمسة : القدم ، البقاء ، الوحدانية ، مخالفة الحوادث ، القيام بالنفس وسميت سلبية لأنها تسلب من أذهاننا ما لا يليق بذاته سبحانه من أضدادها ، أو هي عدم أمر لا يليق بالله سبحانه [2] .

١ ـ القدم معناه : ان وجود الله تعالى غير مسبوق بعدم ، فان القديم من لا أول له [3] ، وقال الفخر الرازي ، القدم : هو سبق الله تعالى الى الوجود

---

(١) انظر ان شئت (الله جل جلاله) للشيخ سعيد حوى ، و (دلائل التوحيد) للشيخ جمال الدين القاسمي و (أومن بالله) لعلي هلال .

(٢) عبد السلام على جوهرة التوحيد / ٦٥ / .

(٣) الأربعين في أصول الدين / ٩٢ / .

سبقاً لا أول له ، وبعبارة أخرى عدم وجود أول له سبحانه . ذلك لأن الله تعالى لو كان مسبوقاً بالعدم للزم وجود موجد له سبحانه – وذلك هو التسلسل الباطل [1] ومحال حينئذ أن يكون إلهاً خالقاً قديماً مخالفاً لحلقه ، فلا بد أن يكون سبحانه هو السابق على العالم الموجد له فيكون القديمَ سبحانه ، ويكون واجب الوجود فليس قدمه سبحانه بالنسبة لخلقه كنسبة تقدم الواحد على الاثنين في العدد لأنهما مخلوقان لخالق هو الله سبحانه .

وقدم الله سبحانه واجب لذاته أي ان ذاته سبحانه تقتضي قدمه سبحانه لذاته ، فلو كان قدمه لغيره لكان مخلوقاً لا خالقاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

جميع ما سوى الله تعالى من عرش وكرسي وسموات وأرضين ومادة وتراب وملك وإنس وجان جميع ذلك حادثٌ أوجد بعد العدم ، خلقه الله تعالى بعد ان لم يكن فهو محدث موجود بارادة غيره . ومن زعم أن شيئاً من العالم قديم كالمادة فقد زعم باطلاً دون دليل ، وأنكر سفاهةً قول الله تعالى (خالق كل شيء) أي كل شيء سواه سبحانه . وانكار شيء من القرآن الكريم انكار لكله معاذ الله ؛ وذلك كفر به سبحانه . واقرأ معي وصية الشيخ محمد سعيد رمضان .. وما يحق للعامل أن يخوض في شبه عقلية في هذه الصفة وأمثالها ، فان ذوات البشر محدودة وعقولها كذلك ، وقد ينتهي بها الخوض في تلك الشبه الى الشقاوة والضلال البعيد . فليكن شأن المؤمن التسليم والتصديق بما جاء من عند الله تعالى ابتداء ، وقبل سلوك سبل وعرة قد تزيغ بالسالك عن السبيل معاذ الله تعالى .

---

(١) ويعني بالتسلسل تتابع الحوادث واقتفاء بعضها بعضاً ولا بد ان ينتهي إلى شيء . ومعنى انتهائها أنها مسبوقة بعدم .. ومحال ورود العدم على الذات العلية . فلا مفر من تقرير قدم الله تعالى على الصفة التي ذكرنا . والله اعلم .

٢ — **البقاء** معناه : عدم الآخرية والنهاية لوجود الله تعالى ، أو عدم لحوق الفناء بذاته تعالى . وكما قلنا ان وجود الله تعالى وقدمه واجب لذاته لا مؤثر لأحد عليه سبحانه في الوجود والقدم ، كذلك نقول في بقائه سبحانه انه لذاته ولا مؤثر لأحد عليه سبحانه في بقائه . ولو لم يكن الله تعالى واجب الوجود وواجب القدم بل كان جائزهما لكان مثل خلقه يجوز عليه الفناء كذلك ، وذلك باطل في الشرع ، ومحال في العقل .

وقد قضت حكمة الله تعالى أن يخلق البشر فيجعل لهم ابتداء وأن يبعثهم بعد موتهم لحياة باقية لا تنتهي ، لكنه بقاء بابقاء الله تعالى لهم وليس ذلك لذواتهم فان ذواتهم مخلوقة ، فيبقي الله تعالى أهل الجنة في الجنة أبد الآبدين بايمانهم وطاعاتهم ونواياهم في الثبات على الايمان والطاعة ما دامت بهم الحياة ، ويبقي أهل النار الذين هم أهلها في النار — وهم الكفار — بكفرهم ومعاصيهم ونواياهم في الاصرار على الكفر والمعاصي ما دامت بهم الحياة .

ولقد انحرف عن الايمان وجانبه من زعم فناء الجنة والنار وهو جهم بن صفوان ومن تبعه ، وضل من زعم فناء النار وهو أحمد بن تيمية ومن تبعه ، وكذب الحق من زعم أن العذاب يعود عذباً على أهله في النار وهم ضلال المتصوفة ومن زاغ زيغهم ، قال الله تعالى في شأن النار وأهلها (لا يخفف عنهم العذاب خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً) . الأحزاب /٦٥/ — ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون — كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) [1] .

وقد استدل ابراهيم عليه الصلاة والسلام على قومه في بطلان الايمان بغير الله تعالى بزوال ذلك المعبود وذهابه ، اذ لا بد لذلك الزوال من مزيل مؤثر ، كما كان له واضع مثبت ، فقال كما حكى الله تعالى عنه (.. فلما رأى الشمس

---

(١) يأتي لهذا الأمر زيادة بيان أثناء الكلام على الايمان باليوم الآخر إن شاء الله تعالى .

بازغة قال هذا ربي هذا أكبر [1] فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين .) .

قال الله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم — كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام .) .

٣ — **الوحدانية** معناها : سلب تصور الكمية فيه سبحانه ، فهو سبحانه ليس مركباً من أجزاء بحيث لا يصدق اسم الذات عليه حتى تتكامل أجزاؤه ، ولا من جزئيات بحيث يندرج تحت الجنس الذي يصدق على كثيرين متفقين في الحقيقة مختلفين في النوع كالحيوان يصدق على كل ما وضع فيه روح من انسان وحيوان وطائر أو تحت النوع الذي يصدق على كثيرين متفقين في النوع مختلفين في الصفة كالانسان يصدق على كل انسان ذكر أو أنثى .

ووحدانية الله تعالى تامة كاملة من كل جهة وتقدير ، فهو سبحانه واحد في ذاته العلية فهو سبحانه لا شريك له ولا زوجة ولا ولد ، وذاته سبحانه لا تشبه ذات مخلوق قط ولا يُشبهه سبحانه ذات مخلوق قط . وهو سبحانه واحد في صفاته فصفاته سبحانه قديمة كاملة لا يعرض لها زوال ولا زيادة أو نقصان بخلاف صفات المخلوقين . فصفة العلم لله تعالى واحدة ومعلوماته كثيرة بلا نهاية ؛ بهذه الصفة يعلم الكبير والصغير والسهل والصعب ، دون حاجة الى معالجة وجهد وتفكير في ذلك كله ، ولا فرق في العلم بكل ذلك عنده سبحانه ، خلافَ ما عند الخلق فادراكهم للمسائل السهلة أهون من ادراكهم للمسائل الصعبة وهي تحتاج الى جهد وفكر .. وأكثر ما في النفس والكون لا يعلمه الانسان . قال تعالى (وما أوتيتم من العلم الا قليلاً) . وقل مثل هذا في سائر صفاته سبحانه بعد العلم مثل القدرة والارادة .

---

(١) ذكر الضمير العائد إلى الشمس مع كونها مؤنثاً لان المعنى هذا المذكور أكبر . والمذكور مذكر . والله أعلم .

وهو سبحانه واحد في أفعاله فهو سبحانه منفرد بايجاد جميع المخلوقات وليس لغيره سبحانه شيء من ذلك ، وهو سبحانه لا يحتاج الى معالجة أمر ليقع ، ولا الى أعوان ليتم كما قال (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة — انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) بخلاف أفعال المخلوقين التي تحتاج الى فكر وهم ومباشرة ومعالجة ووسائل وأعوان ، ثم قد يتم وجود الفعل وقد لا يتم . قال الله تعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) الأنبياء،أي لو كان في السموات والأرض وتدبير شؤونهما آلهة غير الله تعالى لفسد أمر السموات والأرضين ، فان تلك لا بد أن يقع بينها خلاف ، فهذا يريد اهلاك قوم كفروا وذاك يريد ابقاءهم الى حين استدراجاً والثالث يريد أمراً ثالثاً هـذا يريد نصر قوم وذاك يريد خذلانهم والثالث يريد أمراً ثالثاً وهكذا . فلو استمر التنازع بينهما لهلك الكون لوجود تلك التضادات فيه ، ولو نفذت ارادة أحدهما وحده ، كان هو الإله القادر وحده وما يحق لآخر أن يكون إلهاً وهو ضعيف . ووجود الكون على هذا النظام البديع وبقاؤه كذلك دليل وأي دليل على أن الله واحد لا رب غيره ولا خالق سواه .

قال الله تعالى (قل لو كان معه آلهة اذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .) .

قال الله تعالى (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون .) .

قال الله تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .) [1] .

---

(١) اقرأ مناقشة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران في تقرير وحدانية الله تعالى في تفسير سورة آل عمران من تفسير ابن كثير والآلوسي .

٤ ـــ **مخالفة الحوادث** معناها مغايرته سبحانه لمخلوقاته وعدم مماثلته لها ، فهو سبحانه ليس بجسم يتألف من أبعاض ، ولا تعرض له سبحانه عوارض النقص كالنوم والغفلة والجوع والظمأ والحاجة أو العوارض النفسية والجسمية المختلفة كالمرض والتعب والعجز .

وصفاته سبحانه مغايرة لصفات خلقه فصفاته تامة كاملة قديمة بخلاف صفات المخلوقين ، وأفعاله سبحانه مغايرة لأفعال خلقه لا يوصف أمر يريده بسهولة أو صعوبة أو خفة أو ثقل .

ولو كان الله تعالى مماثلاً للخلق في ذاته وصفاته وأفعاله لما كان خالقاً واجب الوجودقديماً موجداً لكل ما سواه . وقد قال الله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

وما ورد من الآيات والأحاديث المشعرة بمماثلة الله سبحانه لمخلوقاته من الاستقرار والذهاب والمجيء والنزول ، والعجب والضحك والعلو بالذات والمعية بها في مثل (ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون) . وحصول الأذى له أو المرض وغيرهما ، فهي من المتشابه الذي أمرنا باثباته وامراره بلا كيف مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة الخلق [1] .

نعم قد جعل الله تعالى قبلة الدعاءِ السماءَ ، كما جعل الكعبة المشرفة قبلة المصلي ، وقال (وأينما تولوا فثم وجه الله) . وقال ﷺ (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء .) رواه مسلم وغيره ، وقال ﷺ (ان الله عز وجل قبل وجه أحدكم اذا صلى فلا يبصقنّ بين يديه .) أي أمامه . رواه البخاري وغيره

---

(١) انظر ص ١٤ وما بعدها .

وما أحسن قول القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى في شرح حديث الجارية التي سألها رسول الله ﷺ أين الله ؟ فأشارت الى السماء ، قال : المراد بالسؤال — أين الله تعالى — المكانة فان المكان مستحيل عليه [1] .

قال الامام الكوثري رحمه الله تعالى في تعليقه على حديث الجارية السابق : أين تكون للسؤال عن المكان وللسؤال عن المكانة [1] .

* وقال الامام أحمد : الآيات المتشابهات خزائن مقفلة حلها تلاوتها . وذلك حق. تقول للجاهل أين أنت من فلان العالم وانما نريد تباين المكانة لا المكان .

وما أحسن قول الشيخ الأستاذ محمد أديب الكيلاني حول المتشابه من الصفات : والخلاصة: ان من لم يصرف اللفظ المتشابه — آية كان أو حديثاً — عن ظاهره الموهم للتشبيه أو المحال فقد ضل ، ومن فسره تفسيراً بعيداً عن الحجة والبرهان قائماً على الزيغ والبهتان فقد ضل كالباطنية وكل هؤلاء يقال فيهم انهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ! أما من يصرف المتشابه عن ظاهره بالحجة القاطعة لا طلباً للفتنة ولكن منعاً لها ، وتثبيتاً للناس على المعروف من دينهم ، ورداً لهم الى محكمات الكتاب القائمة ، فأولئك هم هادون ومهديون حقاً ، وعلى ذلك درج سلف الأمة وخلفها وأئمتها وعلماؤها) . اهـ [2] .

٥ — **القيام بالنفس** (بالذات) معناه أن وجوده سبحانه وبقاءه قائمان وكائنان بذاته سبحانه لا باعتبار شيء آخر من ايجاد وخلق ، وامداد ورزق ، فهو سبحانه غير مفتقر الى موجد يوجده ولا الى مكان يحيزه ولا الى شيء من هواء وماء أو طعام ورزق ، بخلاف قيام الخلق فانه كائن بخلق الله تعالى وباق بامداد الله تعالى .

---

(١) السيف الصقيل ٩٤ — ٩٥ . وانظر شرح النووي على مسلم ٣ —٢٥٣ هامش القسطلاني.

(٢) شرح جوهرة التوحيد للاستاذين محمد اديب الكيلاني ، وعبد الكريم تتان ص ١٩٢ .

وقد كان الله تعالى موجوداً قبل وجود أي شيء وقبل وجود الأزمان والأفلاك ــ التي تحدد سير الوقت ــ والأمكنة ، وما يزال سبحانه ولن يزال على ما كان عليه سبحانه .

محال أن يكون قيام ذات الله تعالى على شيء من مكان أو زمان أو امداد ورزق ، فان ذلك يقتضي قدم غير الله تعالى ، أو تعدد الخالقين ، وذلك باطل وقد تكررت الاشارة اليه ، فإن ذلك يقتضي نقصاً في ذات الله تعالى ومجانبة لصفة الكمال له جل علاه .

لقد أثبت الله تعالى لنفسه الغنى عن كل شيء وأثبت لعباده الفقر اليه سبحانه في كل شيء، فقال (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد . ــ) وقال (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

ومعنى الصمد المذكور في السورة : هو السيد المقصود الذي يُحتاج اليه ولا يَحتاج الى أحد . وذلك الله سبحانه وحده .

لقد خلق الله تعالى الانسان على حال من الضعف تعقبه قوة ، في فترة من الحياة يعقبها موت ، وعلى حدود في العقل والادراك والسمع والبصر يعقب ذلك زوال ، فأمره لذلك بما يدخل في طاقته ويتلاءم مع وجوده ، وما كان لهذا الانسان المحدود الضعيف القصير العمر أن يستكشف ذات الله تعالى وصفاته وهي غيب غير مشهود ــ الا بما أعلمنا به سبحانه في الكتاب والسنة ، ومن هنا كان خطر الخوض في البحث عن كنه ذات الله تعالى وكنه صفاته وتعلقها به سبحانه ، وكان ضلال قوم أوغلوا في هذا الخطر المكفر أن جسموا ذات الله تعالى وشبهوه بالخلق كما فعل اليهود والكرامية ، أو عطلوه عن كل شيء كما فعل الجهمية .

قال الأستاذ سعيد : عقولنا كذواتنا محدودة بحدودها . وأمر الشارع الينا أن لا نتكلف بالعقول ما لا نطيق وأن نسلم لأمر الله تعالى وننقاد .. روى أبو داود وغيره أنه ﷺ قال (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدُرُوا قدره) . ورواه أبو نعيم في الحلية باسناد ضعيف ، ورواه اسماعيل الأصبهاني في الترغيب والترهيب باسناد أصح منه ، ورواه أبو الشيخ كذلك [1] .

ملاحظة : كما يجب اعتقاد هذه الصفات السلبية الخمس والصفة النفسية لله تعالى تفصيلاً لقيام الدليل التفصيلي عليها ، كذلك يجب اعتقاد سلب نقائض هذه الصفات عن الله تعالى لأنها نقص ، والله تعالى متصف بكل كمال ، ولأنها تعود على صفات الله بالنقص معاذ الله وتنافي أدلة النقل والعقل .

وأضداد هذه الصفات هي : العدم، والحدوث ، والفناء ، والتعدد ومشابهة الله تعالى للخلق ، واحتياجه الى شيء أو أحد . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فالزم الأدب ولا تتجاوز حقيقتك !

واعلم أن وجودك بايجاد الله تعالى لك فلا تكفر ، هو الذي أوجدك من من العدم فاشكره ، وهو الذي يعيدك للحياة الآخرة ليكرمك فأطعه ، وهو وحده القائم بالخلق والأمر فلا تشرك معه غيره، ودع عنك التفكر في ذات الله تعالى تحفظ ايمانك ، واجعل حاجاتك كلها الى الله تعالى تحظ برضوانه وتقض حوائجك .

---

(١) كتاب (الله جل جلاله) واضيف ان ترغيب الاصبهاني غير ترغيب المنذري، وتوجد من الأول نسخة جيدة في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام .

ج ـ صفات المعاني :

وهي سبعة: العلم، الارادة ، القدرة، السمع، البصر ، الكلام، والحياة .

معنى صفات المعاني: هي كل صفة أزلية قديمة قائمة بذات الله تعالى تستلزم حكما معينا له سبحانه فصفة العلم مثلا تستلزم أن يكون المتصف بها عالما .

هذا النوع من الصفات كثير كذلك لكنها في كثرتها تجتمع في هذه الصفات الرئيسية ، إذ ان هذا العدد هو الذي قام عليه الدليل التفصيلي من القرآن الكريم ، فيجب الايمان بها تفصيلا ، وما سوى هذه الصفات مثل العدل والرحمة والحكمة ، الخلق والرزق والهداية ، فيجب الايمان بها اجمالا لأنها كمال والله تعالى متصف بكل كمال .

وتسمى صفات وجودية كذلك لانها تدل على معنى بالنسبة للذات العلية زائد على الذات [1] .

١ ـ العلم : هو صفة أزلية قديمة قائمة بذات الله تعالى يتأتى بها كشف الامور والاحاطة بها على ما هي عليه في الواقع أو على ما ستكون عليه في المستقبل من غير سبق خفاء أو جهل عليه سبحانه [2] .

يتعلق علم الله تعالى بجميع المفهومات سواء كانت وجودية كالممكنات الوجودية وهي العوالم العلوية وما فيها ولها والعوالم السفلية وما فيها ولها كذلك ، وما للواجبات لذاته سبحانه وصفاته ، فيعلم سبحانه ذاته وصفاته ويعلم انه متصف بكل كمال ، وبالمستحيلات فيعلم سبحانه ان شريكا له في ملكه محال ، ويعلم كل محال كاجتماع النقيضين في آن واحد كاجتماع الحياة والموت في إنسان في آن .

---

(١) انظر كبرى اليقينيات .

(٢) توضيح العقائد للشيخ عبد الرحمن الجزيري مؤلف الفقه على المذاهب الأربعة .

علم الله تعالى القديم كامل تام محيط ، يستوي فيه الماضي والحاضر والمستقبل — لأن الكل خلقه وايجاده — فيعلم سبحانه الاشياء قبل وجودها على الحالة التي ستوجد عليها في أوانها المعلوم ، كما يعلمها أثناء حدوثها وبعد حدوثها كذلك ، فعلم الله سبحانه كامل تام ، ليس مثل علم الخلق الذي يسبقه جهل ثم ينمو ويزيد إلى حدّ وحين ، ولا يضير علم الله تعالى ان يتعلق بالازمنة المختلفة من الماضي والحاضر والمستقبل لان ذلك التعلق أمر اعتباري وليس هو صفة لله تعالى فلا يضير تغير الاعتبار وتبدله بين ماض وحاضر ومستقبل .

جميع الاشياء في هذا الكون تنكشف لله تعالى على ما هي عليه في مكنون علمه ، وما ستكون عليه حين تكون وتحدث : كلياتها وجزئياتها ، صغيرها وكبيرها ، جليها وخفيها ، لا يخرج عن علم الله سبحانه مثقال حبة ولا أصغر من ذلك ، قال الله تعالى على لسان العبد الصالح لقمان رضي الله عنه يعظ ابنه (يا بُنـي انها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير) .

مخلوقات من البشر والجن والملك والحيوان تعد بالملايين ومئات الملايين وآلافها من أول الخلق إلى أن يرث الله الارض ومن عليها .

مزروعات من حب وريحان ونجم وشجر خضر وأخر يابسات تعد كذلك بالملايين ومئات الملايين وآلافها من أول ما خلق الله الارض ومن عليها .

حبات رمل وتراب وحجارة وصخور لا تعدّ من البشر بحال من أول ما خلق الله الكون إلى أن يرثه وأهله . عشرات الملايين من الاسرار والمخفيات ، من العواطف والافكار ، من العزائم والارادات ، فضلا عن الأقوال والأفعال ، كل ذلك داخل في علم الله تعالى ولا يخفى عليه سبحانه من ذلك شيء ، ولو خفي عليه سبحانه شيء من ذلك لكان جاهلا ببعض خلقه ... وذلك محال ،

وذلك نقص والله تعالى متصف بكل صفة تدل على الكمال .

فاذا رأيت ورقة من شجرة قطعتها الريح عن منبتها ودارت بها هنا وهنا ، تصعد بها وتنحط تسري يمينا وشمالا ، تضطرب وتتحرك ، حتى ترميها الريح إلى حفرة فيطمرها التراب او يطعمها حيوان ، فاعلم ان ذلك كله بعلم الله تعالى ، علم من الورقة كم دورة تدور ، كم مرة ترتفع وتنخفض ... أين تحط آخر الأمر ... وما سيكون مصيرها بعد ...

واذا رأيت حبات الرمل في يوم ريح بصحراء مرملة ، تذروها الريح ملايين من الحبات هنا وهناك ، تلتقي مع اخواتها الحبات او تُلقى عليها ، ترتفع وتنخفض ، وتأخذها إل كل مكان ... ثم تلقيها على وجهك وثيابك وداخل جسمك وفي متاعك وركوبك ، فاعلم ان ذلك بعلم الله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) .

فكيف يظن عاقل انه اذا غاب عن الناس واستخفى منهم او تستر بظلام وأبواب انه قد واتته فرصة المعصية أو غاب عن الرقيب الشهيد ؟! أين هو إذن من جوارح وأرض ومكان تشهد له أو عليه بما كان ؟!

ان العقل والواقع يحيلان وجود شيء منظم بدون علم موجده ! فهذا الكون العجيب العظيم ، في سمواته وما فيهما وما بينهما ، هذا الانسان الأحسن خلقا وعقلا ، هذا الحيوان المتناسب مع وظيفته صورة وادراكا ، هذا وأمثاله من أوضح الادلة وأقربها في الدلالة على كمال علم الله الخالق سبحانه [1] .

قال الله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر

---

(١) قد ذكرنا من قبل : انا نقف في اتصاف الله تعالى بالصفات المختلفة ـ عند حدود الايمان بها واثباتها لله سبحانه وتنزيهه عن مشابهة الخلق فيها ، ثم لا نتكلف في إدراك كنه تلك الصفات وقيامها بالله تعالى .

والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين (الانعام ٦٠) .

(ان الله لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء . — ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد — وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه تُرجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ارداكم فأصبحتم من الخاسرين — يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها — الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

وما أحسن قول الزمخشري — الذي قيل انه تاب آخر عمره عن الاعتزال — في هذا الباب :

يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها في مخهـا ... والمخ في تلك العظام النّحل
امنن عليّ بتوبـة أمحو بهـا ... ما كان مني في الزمان الاول .

واويح الجاهل بسعة علم الله تعالى وكماله وتمامه ! انه يرى في أمر الله تعالى خطأً أو قصوراً ، ويحكم على نهي الله تعالى بان فيه فائدة ونفعاً ! وهو هو الجاهل بنفسه التي بين جنبيه ، انه يشرع أوامر تخالف أوامر الله تعالى ووصاياه ... ونواهي تخالف نواهي الله تعالى وتحذيراته ... بل انه يشرع نظاما تعيش به الجماعة وهو لا يرى ما بين يديه ... ولا يعلم ما يكون بعد لحظة ... ولذا ... تجده يغير أوامره ونواهيه ، ونظمه وقراراته من يوم إلى آخر ، لا اعلانا بالجهل ، ولكن تماديا في الجهل فيقول ان التطور اقتضى تغيير هذا وتعديل ذلك ، وهو نفسه ما تطور من أكل الطعام بفمه إلى أن يأكل الزجاج بعينه ، ولا بدل بالنوم على الفراش النوم فوق السحاب ، وما رأى

تبدلا في نظام الكون من طلوع الشمس من مشرقها واضاءتها الارض بالنهار وما رأى الارض تنتج طعاما مطبوخا ... بل ما رأى انسانا وُلد عالما ولا حيوانا أصبح انسانا ... !

مسكين هذا التطور الذي لا وجود له في لغة العرب كم يحملونه من كذب وزور لا يطاق . ! .

٢ ـ الارادة : هي صفة أزلية قديمة قائمة بذاته تعالى من شأنها تخصيص الممكنات ببعض ما يجوز عليها من وجود أو عدم وتكييف وتبدل بقطع النظر عن أي مؤثر خارجي . فوجود هذا الكون بما فيه من انس وجان وحيوان وزرع وأشياء أمر ممكن في حدّ ذاته يجوز أن يكون وأن لا يكون ـ فالشيء لا يوجد ذاته ولا مثله ـ فايجاد الله تعالى له دليل على تعلق ارادة الله تعالى بايجاده قديماً بأنه حين يوجد هكذا يكون [١] ، ثم أوجده سبحانه على تلك الصورة التي أراد الله سبحانه أن تكون حين تكون [٢] .

فما يوجد شيء في هذا الكون يوجد هكذا . أو أوجد ذاته ... أو أوجده شيء مثله ، فما لمخلوق صفة الخلق والايجاد ... أما رأيت رسول الله ﷺ يتحدى المصورين الذين يضاهون خلق الله تعالى حين يقول لهم (فليخلقوا حبة) . البشرية كلها متحداة على لسان رسول الله ﷺ أن تخلق حبة قمح من العدم .. وهي عاجزة الآن وكل آن لانها مخلوقة موجدة ... ولا تملك قدرة على الخلق والايجاد .

وجود هذه الأمة وتلك الأمة ، قوتها وضعفها ، فقرها وغناها ، عزها وذلها أجلها طولا وقصراً وأمثال هذا ، كل هذا تعلقت به ارادة الله تعالى

---

(١) تسمى هذه الارادة صلوحية قديمة وان صلاحية الإرادة هذه لتخصيص الممكن بالايجاد بدل صفة الاعدام والغنى بدل الفقر وهكذا .

(٢) تسمى هذه الارادة تنجيزية حادثة فعلاً .

قديما ان توجد ، وانها حين توجد كيف ستكون ، ثم أوجدها سبحانه على تلك الحالة التي تعلقت به ارادته القديمة وفي الموعد الذي قد شاءه سبحانه من قبل [1] .

والارادة — كالقدرة — تتعلق بالممكنات وجوداً وعدمـــا ، اذ لا فائدة من تعلقها بالواجب وجوداً ، وهو الله تعالى لانه وحده الواجب وجوده — اوجوده واجبا يقينا فيكون تحصيل أمر حاصل ولا فائدة من تعلقها بالمستحيل اعداما — كوجود شريك لله تعالى — لانه معدوم فعلا ، فلا داعي لتعلق الارادة وكذا القدرة به لأنه يكون تحصيل حاصل كذلك وهو محال على الله تعالى اذ ليس فيه حكمة .

الارادة من صفات الكمال لله تعالى وعظيم سلطانه وتمام قدرته ، فلا يقع شيء في هذا الكون ولا يحدث فيه حادث ما ، لا يكون أمر ولا قول أو فعل ، الا بارادة الله تعالى واذنه ، كان ذلك خيراً أو شرا ايمانا أو كفرا طاعة او معصية ... ولو وقع في ملكه سبحانه ما لا يريده لكان ذلك نقصا في صفة ارادته سبحانه حين يقع في الكون ما لا يريده او يجهله — وذلك محال في حق الله تعالى . ثم الارادة ارادتان تكوينية — قدرية — وهي الارادة التي لا يتخلف المراد عنها بحالٍ من الاحوال مهما كانت الموانع والمعوقات — في نظر الخلق — ،

وارادة شرعية — تتضمن الأمر أوهي هو — وهذه هي التي قد يتخلف المراد عنها في كثير من الاحيان ومن كثير من الخلق ، لانها بمعنى الأمر والأمر يتعلق بمأمور ، والمأمور مخير بين أن يفعل ما يؤمر به او لا يفعل ، والى هذا النوع تشير الآية (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) . أي

---

(١) انظر كبرى اليقينيات في بحث الارادة .

ليأمرهم ويريد لهم عبادته سبحانه . أي ارادة أن يعبدوني ، يعني ليأمرهم بعبادته ، ثم هم قد يختارون عبادة غير الله تعالى من هوى أو صنم . وقوله تعالى (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) . فالله تعالى يريد هدايتهم بالاوامر والنواهي ، وقد لا يطيعون الله تعالى ويطيعون الشيطان . قال الله تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) . فلا يسبقن إلى ذهنك ان مراد الله سبحانه التكويني يمكن أن يتخلف ، أو يمكن لاحد أو جماعة أن يحول بينه وبين وقوعه بحال من الاحوال ، فتحدي ارادة الله تعالى والوقوف في وجه قدره سخافة مفتراة ... وباطل يشهد الواقع ببطلانه .

وقد تطلق الارادة على ما يحب الله للعباد مثل اليسر في العبادة ، قال الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ...) وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها : (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما فاذا كان اثما كان أبعد الناس منه) .

ويقينا موافقة أمر الله ودينه هو اليسر كله ... ومخالفة أمر الله ودينه هو الشقاء والعسر كله .

لا تساقط ملايين ملايين حبات المطر أرتالا بعد أرتال فتأخذ طريقها إلى مسارب الارض ورؤوس الاشجار وعلى البحار والآبار والانهار من يوم خلق الله تعالى هذا الكون حتى يرثه . ولا تسقط من أشجار التفاح وأمثالها ملايين ملايين الأزهار من يوم خلق الله الأرض إلى أن يرثها وما عليها ولا تعقد حبات العنب ولا القمح ولا السمسم ملايين الملايين من أعدادها من يوم خلق الله السموات والارض إلى أن يرثها ، لا يكون ذلك كله الا بارادة الله تعالى ومشيئته سبحانه .

ولولا تعلق ارادة الله تعالى بذلك ان يكون ما كان . ولو لم يكن الله تعالى شائيا مختاراً لكان مكرها ... فما يكون إلها .

فأعظم بارادة الله تعالى التي لها السلطان الاعظم على الهواجس والعواطف والقلوب والافكار ، والاقوال والافعال ، على جميع ما يكون من البشر وغير البشر .

ارادة الله تعالى واحدة ، لا توصف بكثرة وقلة وقوة وضعف ، فارادته لايجاد ذرة ، أو السموات والارضين واحدة ... لا فرق فيها بالنسبة للأمر المراد . وهذا خلاف الخلق الذين يريدون بارادة الله تعالى وإلى حدود ... ويوجد مرادهم – باذن الله تعالى – على جهود مختلفة تختلف باختلاف الشيء المراد ، ولا نتكلف كيفية تعلق صفة الارادة بالله تعالى ، بل نؤمن بها وننزه الله تعالى عن مشابهة الخلق فيها فالله سبحانه كما قال (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

قال الله تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار – إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول كن فيكون – فعال لما يريد – ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون (الانعام ١١٢) – وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون (يونس ١٠١) – واذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال .) .

٣ – **القدرة :** صفة أزلية قديمة قائمة بذاته تعالى يتأتى بها ايجاد الممكن الذي تعلقت ارادة الله بايجاده واعدامه وتكييفه بحالة دون حالة وصفة دون أخرى . فهي مثل الارادة في التعلق بالممكنات دون الواجبات والمستحيلات وقد ذكرنا في بحث صفة الارادة بيانه .

ومعنى التعلق : طلب الصفة – كالقدرة مثلا – أمراً زائداً على قيامها بذاته تعالى ولا تسألني كيف يكون التعلق والارتباط فالكيف في حق ذات الله تعالى وصفاته مجهول .

وجود هذا الكون كله من عرشه إلى فرشه ، من سمواته إلى ذراته ... وجود الامم والاقوام وجود الالوان والاعراق ، دليل على قدرة الله تعالى وبرهان ، فلو لم يكن قادراً لما أوجد ، وقد وُجد هذا الكون فعلا فكان هذا دليلا على قدرته سبحانه ، ولو لم يكن الله تعالى قادراً لكان عاجزاً والعجز نقص ، والله تعالى موصوف بكل صفة كمال سبحانه وتعالى .

لقدرة الله تعالى تعلقان : صلوحي قديم : ويعني صلاحية قدرة الله تعالى في الازل للايجاد والاعدام أن الشيء حين يوجد بقدرة الله تعالى وارادته يوجد على صفة كذا وكذا .

وتنجيزي حادث ويعني : ايجاد ذلك الذي به تعلقت قدرة الله تعالى في الازل فعلاً وحقيقة ، من ايجاد زيد ورزقه وموته في أجل محدود . واستدراج جماعة كافرة واعطائها مطالبها إلى حين ثم خذلانها وايصال العذاب العاجل اليها في أجل محدود . وهكذا .

قدرة الله تعالى واحدة — كسائر صفاته — لا توصف بالكثرة والقلة ، او القوة او الضعف وهي تخالف قدرات الخلق في أنها من عطاء الله تعالى — ثم هي تختلف بين كثرة وقلة — وقوة وضعف بحسب الامر المراد الاقتدار عليه ... كما أنها محدودة بما وهب الله تعالى وأقدر . قدرة الله تعالى كاملة شاملة محيطة لائقة بالله تعالى الموصوف بكل كمال ، لا يعجز الله تعالى شيء في الارض ولا في السماء ولا تعجزه الأرض والسماء . (والله على كل شيء قدير .) .

هذه النجوم والكواكب التي تبلغ أعدادها عدد حبيبات الرمال الموجودة على شواطىء وبحار الدنيا [1] فلا يحصرها حاصر من الخلق ولا يعدّها عالم ، كيف وأحدنا لا يبصر ولا يقدر — على احصاء حبيبات الرمل في شاطىء

---

(١) الشهادة . للاستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٢٤ .

واحد من شواطىء البحار . إن الله تعالى خلقها وقدر على ذلك ، وقدّر لها سيرها وأفعالها وغاياتها إلى حين . (وخلق كل شيء فقدره تقديرا .)

هذه النملة الصغيرة الدقيقة اللهُ تعالى خلقها وجعل لها سمعا وبصراً وادراكا وبطنا وجهازاً داخليا وقدر لها أجلا ورزقا ، من غير الله تعالى يقدر على خلق مثل ذلك المخلوق البسيط ؟

هذا الانسان العجيب في عقله وأفكاره وخياله وأطواره ، العجيب في حواسه وأعضائه الله تعالى خلق هذا الانسان فسواه في أحسن تقويم ، من غير الله تعالى يقدر على خلق مثل هذا الانسان ؟

ما أكثر الدلائل على قدرة الله تعالى ! انظر إلى هذه الارض ! لقد خلقها الله تعالى من العدم وجعلها كرة معلقة في جو السماء ، ويبلغ محيطها /٣٩٥٠٠/ كم تقريبا ، ويبلغ طول قطرها /١٢٧٠٠/ كم تقريبا ، ويبلغ وزنها /٦/ آلاف تربليون من الاطنان — أي رقم ٦ مسبوقا بسبعة وعشرين صفراً — ، الا يدل ذلك على خالق قادر جل جلاله ؟ بلى وليست الكرة الارضية أعظم الاجرام ، بل قد تكون من أصغرها فثمة أجرام أخرى تعظمها بملايين المرات [1] .

من يقدر على خلق شيء من هذا ؟! بل من يقدر على الاحاطة بخلق الله تعالى وقدرته ؟ واويل المغرور ! يأخذه غروره ، وتخدعه قوته ، يعميه سلطانه ويوسوس له شيطانه ... حتى يرى كأن الله تعالى لا يقدر عليه . وهو يعيش وينطق ويقوى ويتجبر بنعم من الله تعالى خلقها له وأقدره منها على ما أقدر .

ويله ! أيجهل أن الله تعالى قد أهلك من هو أشد منه بطشا وقوة وعزة وجندا ومالا وسلطانا ؟ (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ، ومنهم من أغرقنا

---

(١) المصدر السابق ص ٢١ .

وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . او لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) . وقال تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير — ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب — ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) .

وقدرة الله تعالى التي تعلقت بالايجاد من العدم وقدرت عليه — كما يشهد الواقع — تتعلق كذلك بالاعادة إلى الحياة بعد العدم وتقدر عليه .

فاذا توفرت ارادة الله تعالى وعلمه وقدرته على اعادة البشر وبعثهم وحشرهم للحساب والجزاء بالجنة والنار فمن يحجز الله تعالى عن فعل ذلك ؟ لا أحد .

قال الله تعالى (أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ — وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً، فاذا أنتم منه توقدون اوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه تُرجعون) .

ملاحظة : قال الله تعالى (وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا إله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين) . معنى نقدر في الآية : نضيق فهو من التقدير اي التضييق الوارد في مثل قوله تعالى (والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر). فلا تظن بنبي كريم سوءاً في جانب فضل الله تعالى وقدرته . وقد ضيق الله عليه فعلا إلى حين فكان في ظلمة البحر وظلمة بطن الحوت حتى نجاه الله تعالى ورده إلى قومه المؤمنين .

وقال سبحانه (اذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن

ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين) . معنى يستطيع هنا هل يفعل ذلك ، كما تقول لقادر على خدمتك في أمر هل تستطيع أن تخدمني في كذا ؟ وأنت تعني هل تفعل ذلك . فلا تظن بحواريين كرام – صدقوا مع الله تعالى ونصروا رسوله عيسى عليه السلام – سوءاً في جانب فضل الله وقدرته .

٤ – السمع : صفة أزلية قديمة قائمة بذات الله تعالى تتعلق بالمسموعات او الموجودات جميعها الاصوات وغيرها ، فتدرك هذه الصفة ادراكا تاما لا على طريق التخيل والوهم ، ولا على طريق تأثير حاسّة ووصول هواء وتحقق قرب معين وفقد حواجز ، وانما على كيفية يعلمها الله تعالى ولا يعلمها سواه [1] ولا نتكلف علمها فليس ذلك في مقدورنا بحال ونكل أمرها إلى ذي الجلال. صفة السمع لله تعالى صفة كاملة تامة محيطة بكل موجود ، سواء كان وجوده لذاته – كوجود الله تعالى وصفاته – او كان وجوده بغيره – كوجود سائر الخلق ، سواء كانت أنفاسهم أو أصواتهم ، مناجاتهم ومناداتهم ، ولو يكون دبيب النملة الضعيفة على الصخرة الغليظة . ولا تتعلق بالمعدوم غير الموجود .

صفة السمع واحدة لا تعدد في ذاتها ، وان كثرت المسموعات بها كثرة لا يحيط بها حصر ، وهذا خلاف سمع المخلوقين فانه بخلق الله تعالى وايجاده ، وهو محدود بحدود وابعاد ، ووسائل وأدوات وله بعدُ أجل ينتهي اليه لا يتعداه .

صفة السمع لله تعالى صفة كاملة تامة دائمة لا يغيب عنها دبيب النملة النحيلة الضعيفة في صخب الحياة وضجيج البشر وآلامهم . لا يغيب عن سمعه سبحانه صوت امرأة يرتفع بشكوى إلى الله تعالى والبشر يملؤون الدنيا بأصوات

---

(١) كبرى اليقينيات .

ومناجاة ... لا يذهب عن سمعه سبحانه تناجي جماعة من اليهود بينهم يقولون (ان الله فقير ونحن أغنياء) . ولا يند عن سمعه سبحانه مسارة بعض الانصار بعضا وقد أظهر الله تعالى الاسلام وكثر المسلمون أن يعودوا إلى أرضهم التي تركوها فيصلحوها بالزراعة فيقول الله تعالى لهم (وانفقوا في سبيل الله ولا تُلقوا بايديكم إلى التهلكة ...) ، لا تختلط عليه الاصوات ولا تلتبس عليه اللغات ولا يشغله نداء عن نداء ودعاء عن دعاء .

وما أحسن تعليم رسول الله ﷺ أصحابه رضوان الله تعالى عليهم وتأديبه إياهم وقد رفعوا في بعض الاسفار أصواتهم في الدعاء — وبعضنا يفعل ذلك حتى في المسجد القائم على الوقار — فقال لهم (اربعوا على أنفسكم فانكم لا لا تدعون أصم ولا غائبا انما تدعون سميعا قريبا .)

وقال الله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا .) أي لا ترفع صوتك بالدعاء فتؤذي به ، ولا تخف صوتك فلا يسمعك من قد يدنو من مؤمن لك على الدعاء .

ولو لم يكن الله تعالى سميعا لكان أصم ، وذلك نقص عن الكمال ، والنقص في ذات الله تعالى وصفاته باطل محال .

ان الله تعالى سميع يسمع أنين المفجوع وآهة الموجوع وظلامة المظلوم ! انه يسمع دعوة المضطر ويكشف السوء ! إلى الله تعالى يرفع المظلوم شكواه ! ويرفع الداعي صوته بالدعاء والمناجاة يشكو اليه المعنى بلاياه ويسأله من فضله فيعافيه من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة اذا شاء .

ويسمع الله تعالى تناجي اولئك الذين يتناجون بالاثم والعدوان ، ويخططون للكيد المبيد للاسلام وأهله . ويسعون في كل مجتمع وناد للقضاء على الدعاة اليه وطمس شعاراته .

ويلهم ... ! ان الله سميع بهم وبمكرهم ! يمكر بهم كما يمكرون بالاسلام

وأهله ، فيأخذهم بظلمهم ويميتهم على غيظهم وقهرهم لم ينالوا من الاسلام وأوطانه وأهله منالا ... وما مثلهم الا كمثل من قال :

كناطحٍ صخرةً يوما ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل .

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم — واذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه واعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير — وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه [١] فنادى في الظلمات [٢] ان لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين — سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) .

٥ — **البصر** : صفة أزلية قديمة قائمة بذات الله تعالى تتعلق بالمبصرات أو الموجودات لا المعدومات ، فتدرك صفة البصر ادراكاً تاماً لا على طريق التوهم والتخيل ، ولا عن طريق تأثير حاسة أو وصول شعاع [١] وقد ذكرنا مراراً انا نؤمن بصفات الله تعالى مع تنزيه مشابهتها لصفات الخلق ولا نتكلف إدراك كنهها في كيفية قيامها بذات الله تعالى ونكل ذلك اليه سبحانه .

* صفة البصر صفة كاملة تامة محيطة لا يغيب عنها منظور موجود ، في جوف البحر وجوف البطن وجوف الليل ، لا يغيب عن بصره الحشرة الصغيرة تسعى بين مخلوقات كبيرة ، ولا نملة تدب في ظلمة الليل الدامس على صخرة سوداء معتمة ، لا تختلف عليه المبصرات ولا يغيب هذا في ذاك ، ولو لم يكن الله تعالى بصيراً كاملاً في هذه الصفة — كسائر الصفات — لكان

---

(١) نضيق عليه .

(٢) ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت .

(٣) كبرى اليقينيات .

عاجزاً – ناقصاً ، ولما كان منه أن يعطي خلقه البصر إذ لا يكون له ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، النقص والعجز محال في حق الله تعالى الموصوف بكل كمال .

* صفة البصر واحدة غير متعددة والتعدد انما هو في المبصرات وهي لا تتناهى ولا يأتي عليها حصر ، وهي تخالف صفة البصر في الخلق – لأنها فيهم عطاء من الله تعالى ، ولها حدودها ووسائلها وأوائلها وغاياتها لا تتجاوز حدود ما أراده الله تعالى لها بحال .

* وهي كصفة السمع تتعلق بالمبصرات أو الموجودات واجبة كانت أو جائزة .

لو لم يكن الله تعالى بصيراً كيف كان يكون أولئك العباد الذين يذكرون تعالى في خلواتهم ويسبحونه سبحانه ويعبدونه في لياليهم وأسمارهم اذا كان الله تعالى لا يراهم ؟

لو لم يكن الله تعالى بصيراً كيف كان يجد المؤمن السلوى فيما يلقاه من العذاب في سبيله سبحانه إن كان يوقن ان الله لا يراه ؟

* حقاً ان الله تعالى بصير لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

لقد بالغ حزقيل مؤمن آل فرعون في نصح فرعون وقومه وبلغ بنصحه الغاية ، ثم قال (فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) .

قال الله تعالى (والذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين – انه هو السميع العليم.وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين) . يونس /٦١/ .

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى عن المتقرب اليه سبحانه بالنوافل (.. وما يزال يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه)..

وفي حديث مسلم أنه ﷺ قال (الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك) .

٦ ــ **الكلام** : صفة أزلية قديمة زائدة قائمة بذاته تعالى الذي هو بها آمر وناه ومخبر ، هذه الصفة القديمة هي التي يعبر عنها بألفاظ القرآن الكريم والتوراة والانجيل . قال الباجوري قال : أهل السنة معنى كلام الله تعالى أنه : صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت منزهة عن التقدم والتأخر والاعراب والبناء ، منزهة عن السكوت النفسي في أن لا يدبر في نفسه الكلام مع القدرة عليه ، ومنزهة عن الآفة الباطنية بأن لا يقدر على ذلك كما في الخرس والطفولة [١] .

قال علماء أصول الدين ان الكلام ينقسم الى قسمين : الأول الكلام اللفظي والثاني الكلام النفسي . **فأما اللفظي** فهو ذلك القرآن الكريم المنزل على سيدنا محمد ﷺ وكذا سائر الكتب المنزلة على الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ولا ريب في أن الكلام اللفظي حادث مخلوق له تعالى لأن الألفاظ تنقضي بمجرد النطق بها ، وقال الامام الأعظم أبو حنيفة رحمه الله تعالى ورضي عنه في في كتابه (الوصية) : نقر بأن القرآن كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله وصفته لا هو ولا غيره ، بل هو صفته على التحقيق مكتوب في المصاحف مقروء بالألسن محفوظ في الصدور غير حالّ فيها ، والحروف والحركات والكاغد والكتابة عليها مخلوقة لأنها أفعال العباد ، وكلام الله تعالى غير مخلوق لأن الكتابة والحروف والكلمات والآيات كلها آلة القرآن لحاجة العباد اليها . وكلام الله تعالى قائم بذاته ومعناه مفهوم بهذه الأشياء اهـ ، فلا يقال ان الله تعالى يتكلم بحروف وأصوات وبآلة من فم ولهاة ، والله معبود ولا يزال كما كان

---

(١) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للشيخ ابراهيم اللقاني المالكي المصري المتوفى سنة ١٠٤١ ص ٤٣ .

وكلامه مقروء ومكتوب ومحفوظ من غير مزايلة عنه [١] .

وأما النفسي فهو صفة قديمة زائدة على ذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت ، ويدل عليها الكلام اللفظي . وقد ثبت في اللغة أن الكلام يطلق على الكلام اللفظي وعلى الكلام النفسي ، قال الله تعالى (واسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور – ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم) . وقال عمر رضي الله تعالى عنه يوم سقيفة بني ساعدة حيث اختير أبو بكر للخلافة وقام يتكلم بما شرح الله صدره من الحق فاجتمعت عليه كلمة المسلمين ، قال عمر كنت زورت في نفسي كلاماً أي حسنته ، ولما ينطق به ، لأنه حين أراد الكلام قال له أبو بكر على رسلك . والله أعلم [٢] .

ونحن لا ننسى هنا ما ذكرناه سابقاً أكثر من مرة أن ذات الله تعالى وصفاته ليست كذوات العباد وصفاتهم فعلينا الايمان بالله تعالى وصفاته مع تنزيهه سبحانه ذاتاً وصفات عن مشابهة المخلوقين في شيء ، ولا نتكلف معرفة كنه ذاته تعالى وصفاته وقيامها به سبحانه ، ونكل ذلك اليه جل جلاله . قال الله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .) .

قال الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان بعد كلام .. وقد مر كلام أهل السنة والجماعة في كلامه تعالى وانه صفة نفسية يعبر عنها بألفاظ – وقد رأى المعتزلة أن كلام الله تعالى أصوات وحروف يخلقها الله تعالى في غيره كاللوح المحفوظ وجبريل عليه السلام وانه حادث وليس بقديم . وهي ترجع الى صفة العلم . بينما رأى الحنابلة أن كلام الله تعالى أصوات وحروف متوالية مرئية وانها قديمة حتى زعموا قِدم هذه الحروف التي نقرؤها من القرآن الكريم .

ولا يخفى أن الحق هو رأي أهل السنة والجماعة ، فان المعتزلة نفوا صفة

---

(١) شرح الفقه الأكبر لعلي القاري ص ٢٦ .

(٢) توضيح العقائد للجزيري .

الكلام الثابتة لله تعالى بذلك التأويل الذي أولوه به . وبعض الحنابلة جعلوا قدماء مع الله تعالى وهي الحروف والأصوات التي يقرأ بها المخلوق ا هـ [1] .

قلت ومن هنا يظهر صواب رأي أهل السنة والجماعة وانه الرأي الوسط بين رأيين ، وقد أثنى الله تعالى على هذه الأمة بأنها الأمة الوسط في قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً .) .

والوسط الفاضل ، قال تعالى (قال أوسطهم) : قال أفضلهم . والله أعلـــم .

صفة الكلام لله تعالى صفة كاملة تامة ، وما يتكلم الخلق من البشر الى النملة الا بخلق الله تعالى الكلام فيهم ، ولو لم يكن الله تعالى متكلماً لكان أخرس عاجزاً ناقصاً ، والنقص محال على الله تعالى لأنه موصوف بكل كمال .

وصفة الكلام لله تعالى واحدة لا كثرة فيها والكثرة غير المحصورة انما في متعلقاته ، وهذه الصفة تتعلق بالواجبات — لذات الله تعالى وصفاته — والجائزات — جميع ما سوى ذاته وصفاته — والمستحيلات مثل وجود شريك لله تعالى ، وتعلقها بما ذكرنا انما هو تعلق دلالة ، فكلامه سبحانه — الذي ليس بحرف ولا صوت — يدل على كل واجب ، وجائز ومستحيل وموجود ومعدوم بكل ما هو عليه [2] .

قال الله تعالى (وكلم الله موسى تكليماً — وإن أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله)

٧ — **الحياة** صفة أزلية قديمة قائمة بذاته سبحانه يتأتى بها ثبوت الصفات السابقة من العلم والقدرة والارادة والسمع والبصر ، وهي حياة لا تقوم على

---

(١) كبرى اليقينيات .

(٢) الحصون الحميدية للشيخ حسين الجسر .

روح ونفس كحياة الخلق وامداد كحياة الخلق ، ولا تشبه حيواتهم في شيء ، بل الله أعلم بحقيقتها وسائر صفاته سبحانه ، والذي علينا أن نؤمن بهذه الصفة له سبحانه مع تنزيهه جل جلاله عن مشابهة الخلق فيها ، ونكل ما بعد ذلك الى الله تعالى .

* صفة الحياة ليست كسائر الصفات المتعلقة المارّ ذكرها ، مثل العلم والكلام المتعلقين بالواجب والجائز والمستحيل ، والقدرة والارادة المتعلقين بالممكن الجائز ، دون الواجب أو المستحيل ، لذا تسمى هذه الصفة صفة مصححة تصحح لمن قامت به أن يتصف بالصفات السابقة .

* صفة الحياة صفة كاملة تامة كما يليق به سبحانه ، ولو لم يكن الله تعالى حياً لما صح اتصافه بالعلم والارادة والقدرة والسمع والبصر والكلام ، بل كان يكون عدماً معاذ الله . وذلك منتهى النقص وغايته ، وذلك محال على الله تعالى بل كل نقص عليه سبحانه محال .

لو لم يكن الله تعالى حياً ما كان يصدر منهالوجود قط ، لأن الميت والعدم لا علم له ولا ارادة ولا قدرة وبالتالي لما كان هذا الوجود. ولو لم تكن حياته سبحانه باقية أبدية لما بقي هذا الوجود — الى حين — لأنه يحتاج دائماً الى منظم ومسير ومدبر ؛ وأمر الخلق في كل لحظة — كما هو مشاهد — يقوم على الاحياء والاماتة والعطاء والمنع والنصر والخذلان والسعادة والشقاء .. بل .. لولا حياة الله تعالى وبقاؤه لزالت السموات والأرض . قال الله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض ان تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) . أي ما أمسكهما أحد بعده سبحانه . وذلك حق لا ريب فيه .

ما أحمق ذلك الانسان الذي يزعم أن الله تعالى قد أنهى وظيفته — على حد تعبيره — وترك الخلق يسيرون كما يشاؤون لا حاجة بهم اليه سبحانه . ويله ! لولا تدبيره سبحانه بانزال المطر واخراج النبات لولا تدبيره باقبال الليل

والنهار ، وتقلب الفصول والمواسم ، لولا الاحياء والاماتة ، لولا الحفظ والرعاية ، لولا الرزق منه والعطاء كيف يكون أمر الخلق ؟ بل الكون كله ؟! لولا تدبيره سبحانه ذلك وأكثر من ذلك من كان يقوم بتدبير القليل من كثير أمره سبحانه ؟ اللهم لا أحد .

قال الله تعالى (الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم — يدبر الأمر من السماء الى الأرض).

ملاحظة :

كما يجب اعتقاد هذه الصفات السبع المذكورة انها صفات الله تعالى تفصيلاً لقيام الدليل التفصيلي عليها كما ذكرنا ، كذلك يجب سلب نقائض هذه الصفات عن الله تعالى لأنها نقص والله تعالى متصف بكل كمال ، ولأنها تعود على واجب الوجود بالنقص معاذ الله ، ولأنها تنافي ما ذكرناه من أدلة النقل والعقل .

وأضداد هذه الصفات على الترتيب هي : الجهل — العجز والاكراه — العجز والضعف — الصمم — العمى — الخرس والموت تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

أخي المؤمن

* تذكر أن علم الله تعالى محيط بكل شيء فاحرص أن يعلم الله تعالى منك ما تسعد به في الدنيا والآخرة .

* تذكر أن الله تعالى هو المتصرف في الكون بما يشاء ويختار ، فارض بمشيئة الله واعتقد أن عقباها دائماً الى خير .

* تذكر أن قدرة الله تعالى فوق قدرتك ، فلا تدفعك قدرتك الى ظلم الضعيف فان الله أقدر عليك من قدرتك عليه .

* تذكر أن الله تعالى يسمع الدعاء والشكوى في ظلمة الليل العميق

فارفع دعاءك وحاجاتك اليه ، وحاذر الظلم أن يرفع مظلوم عليك ظُلامته الى الله فيسمعه — فيكون الويل لك إن استجاب له .

* تذكر أن الله تعالى يراك في خلوتك وجلوتك ، في الليل والنهار ، في بلدك وغربتك . فاحذر أن يراك على معصية واستحي منه وأنت معروض عليه أكثر مما تستحيي من والدك أن يراك على معصية له .

* وتذكر أن الله تعالى حي مدبر كل أمر فكل أمورك اليه ! أنجز الذي منك ودع الذي لله الى الله تنج وتسعد .

د ــ الصفات المعنوية :

هي كل صفة قائمة بموصوف توجب له حكماً لكونه تعالى قادراً بالنسبة لصفة القدرة الثابتة لله تعالى ، أو هي : قيام صفات المعاني في الذات ، أي ان الله سبحانه وتعالى مثلاً ــ قادر بصفة تسمى القدرة ، فقيام القدرة في الذات هي صفة معنوية ، وهي كونه سبحانه وتعالى قادراً (١) . والفرق بين صفات المعاني والمعنوية : ان صفات المعاني صفات وجودية والمعنوية ثبوتية بمعنى أنها عبارة عن قيام المعاني بالذات وهذا هو المعتمد ، وان المعاني ملزومة للمعنوية عقلاً والمعنوية لازمة للمعاني . بمعنى أنه يلزم من كونه قادراً أنه موصوف بالقدرة ، كما يلزم من اتصافه بالقدرة كونه قادراً وان الصفات المعنوية واجبة له تعالى اجماعاً (٢) .

وهي سبع كصفات المعاني : كونه تعالى عليماً ، كونه مريداً ، كونه قادراً ، كونه سميعاً ، كونه بصيراً ، كونه متكلماً ، كونه حياً جل جلاله .

وبذا تم الصفات العشرون الواجب الايمان بها تفصيلاً ، انها صفات الله تعالى لقيام الدليل التفصيلي عليها . والحمد لله رب العالمين .

* صفات الذات والفعل :

ثم تنقسم صفات الله تعالى الى صفات ذات وصفات فعل .

فصفات الذات : ما قامت بالذات واشتق من معنى قائم بها كالارادة والقــدرة .

وصفات الفعل : ما كان خارجاً عن الذات واشتق من وصف خارج

---

(١) المختصر المفيد على جوهرة التوحيد لمعاوية علوش .
(٢) شرح الجوهرة للكيلاني .

عنها كذلك ككونه تعالى خالقاً رازقاً فانها من الخلق والرزق [١]) .

وفرق آخر : ان كل ما وصف الله تعالى به ولا يجوز أن يوصف بضده فهو من صفات الذات ، كالقدرة والعلم والعزة والعظمة . وكل ما يجوز له أن يوصف به وبضده فهو من صفات الفعل كالرأفة والرحمة والسخط والغضب . فهو سبحانه قادر على فعل ما تتعلق به صفة القدرة ، ولا يجوز له سبحانه عكسها ، أما الرأفة فيوصف الله سبحانه فيها في حق المؤمن والتائب في الدنيا والآخرة ، ويوصف بضدها في حق الكافر الذي مات على الكفر في الدار الآخرة [٢] .

وصفات الفعل قديمة كسائر صفات الله تعالى لأنها ترجع الى صفة التكوين العام وما يرجع اليها ، لكنها تتعلق بالمحدثات لتعلقها برزق فلان أو خلق فلان ــ كالتخليق والترزيق والانشاء والابداع والصنع والاحياء والافناء . فإن تعلق هذا التكوين بالحياة سمى إحياء وبالموت إماتة وبالصورة تصويراً .

وقال الوزير راغب باشا في سفينته : قال بعض الحنفية منهم أبو منصور الماتريدي : التكوين صفة قديمة زائدة على السبع المشهورة أخذاً بقوله تعالى (انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) . فقد جعل الله تعالى قوله للشيء كن مقدماً على كون الحادث أعني وجوده ــ والمراد بأن يقول له كن تعلق التكوين . ومعنى التكوين : مبدأ اخراج المعدوم من العدم الى الوجود ، فاذا تعلق التكوين بالحياة سمى احياء وبالموت سمي اماتة وبالصورة تصويراً وبالرزق ترزيقاً الى غير ذلك . ومرجع الكل الى التكوين وانما تتعدد هذه الأسماء بتعدد المتعلقات ، أقول فظهر أن الشيخ أبا منصور يؤول قول (كن) بتعلق التكوين فالمعنى انما أمره اذا أراد شيئاً أن يتعلق بتكوينه فيكون .

---

(١) حاشية الأمير على الجوهرة .

(٢) شرح الفقه الأكبر للقاري ٤١ .

ثم قال : وقالوا ان التكوين غير القدرة لأن القدرة أثر لصحة الشيء أي امكانه ، والصحة لا تستلزم الكون أو الوجود ، فلا يكون الكون أثراً للقدرة بل أثراً للتكوين فتثبت المغايرة بينهما ا هـ [1] .

وقالت الأشاعرة صفات الفعل حادثة لأنها عبارة عن تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة كالاحياء فانه حادث ، والإرزاق والإماتة والنصر فانها حادثة . والله أعلم .

ملاحظة : اصطلح علماء التوحيد على ذكر عشرين صفة لله تعالى تفصيلاً ، وهي التي ذكرناها – وشرحناها تفصيلاً ، ويردون كل صفات الله تعالى الأخرى من الحكمة والعزة الى سائر صفات الكمال الى تلك الصفات العشرين فهو تعديد اصطلاح راجع اليهم ، وليس ينفون صفات أخرى لله معاذ الله ، فهو على هذا اصطلاح ، ولا مشاحة في الاصطلاح ولا اعتراض ، بل ولا تعيير ولا انتقاص ولكل وجهة هو موليها .

ما يجوز في حق الله تعالى :

بعد أن ذكرنا ما يجب لله تعالى اجمالاً وتفصيلاً ، وما يستحيل عليه سبحانه اجمالاً وتفصيلاً كذلك، نذكر هنا بايجاز بعض ما يجوز في حق الله تعالى ويمكن.

١ – يجوز في حقه تعالى فعل كل جائز أو تركه مهما كان الجائز عليه عظيماً مثل ايقاف الشمس عن سيرها واطلاعها من مغربها بعد غروبها ، وشق القمر نصفين ، ومعجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام من فلق البحر واحياء الميت وعدم احراق النار ، وتسبيح الحصى وغير ذلك ، لأن الله تعالى تام القدرة كامل العلم . وان كل جائز فهو قابل للوجود والعدم ، فيكون الله تعالى قادراً على ايجاده واعدامه حسب اتجاه ارادته سبحانه .

---

(١) سفينة الراغب ٥٦١ – ٥٦٢ مفرقاً .

٢ ـ ومن ذلك خلق الخير والشر ، ولا يكون ذلك قبيحاً لأن الله تعالى فاعل مختار يتصرف في ملكه كيف يشاء ، وربما يكون الشيء حسناً في نفسه وان خفي علينا حسنه وعددناه شراً على أن الشر شر بالنسبة الينا كمخالفة أمر الله تعالى ولذلك نؤاخذ بكسبه ومخالفة نهي الله تعالى عنه ويكون فعله منا قبيحاً ، أما بالنسبة اليه تعالى فلا يقال ان الشيء الفلاني خير والشيء الفلاني شر لأنه سبحانه لا ينتفع بشيء ولا يتضرر من شيء (يا عبادي انكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني) . رواه مسلم .

٣ ـ ومن ذلك أن يفعل غير الصالح وغير الأصلح في حق عباده ، ولا يجب عليه سبحانه أن يفعل الصالح والأصلح في حقهم ـ خلافاً للمعتزلة ـ لأنه لو وجب عليه سبحانه فعل الأصلح لما خلق الكافر الفقير المريض المعذب في الدنيا بأنواع البلاء ، وفي الآخرة بالعذاب الأليم ، لكنه سبحانه خلق ذلك الكافر كذلك لحكمة ، كما يخلق الطفل مشوهاً مريضاً لحكمة يعلمها سبحانه . (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) . ولو قلنا بوجوب الأصلح عليه سبحانه لجعلنا الخالق المختار مسؤولاً أمام خلقه معاذ الله . ٤ ـ ومن الجائز عليه سبحانه ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام وتسليط الكفار عليهم بالأذى والسخرية واطالة أعمارهم في مجابهة الرسل ودعواتهم مع ما يكون عليه الرسل من مكارم الأخلاق والصدق في الدعوة والحرص على تبليغها الى الناس ليهتدوا ، وذلك وفقاً لحجج المحتجين وقطعاً لحبل المعتذرين واعذاراً الى المصرين على كفرهم يوم الدين ، قال الله تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) .

٥ ـ ومن ذلك تعذيب المذنبين من المسلمين على قدر ذنوبهم ثم ادخالهم الجنة ، وادخال اكثرهم الجنة دون سابقة عذاب كما قال الله (ان الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) . وان كان لا بد من تعذيب جنس المذنبين لكل ذنب ـ ولو واحداً ـ فوعد الله تعالى بالثواب يوفي به لكل موعود به ، ووعيد الله تعالى يوفي به لجنس الموعود عليه . والله أعلم [1]

(١) عن الحصون الحميدية للشيخ حسين الجسر بتصرف يسير ٢٩ ـ ٣٢ .

أسماء الله الحسنى[1]

أسماء الله الحسنى قديمة توقيفية بمعنى أنها تعليمية يتوقف جواز اطلاقها عليه سبحانه على تعليم الشارع واذنه ، فلا يصح اطلاق اسمٍ ما على الله تعالى خلاف ما ورد به صحيح النص وصريحه من القرآن والسنة .

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة الا واحداً من أحصاها دخل الجنة انه وتر يحب الوتر) . رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وآخرون ، وزاد الترمذي بعد قوله (يحب الوتر) (هو الله الذي لا اله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل ، اللطيف الخبير ، الحكيم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود ، المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين ، الولي الحميد ، المحصي المبدي المعيد ، المحيي المميت الحي القيوم ، الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر ، المقدم المؤخر ، الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف الملك ذو الجلال والاكرام ، المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي ، البديع الوارث الرشيد الصبور ا هـ) .

وقال الترمذي حديث غريب . ثم قال وقد روي هذا الحديث من غير

---

(١) معنى كونها قديمة انها قديمة بتسمية الله تعالى نفسه بها والألفاظ حادثة قطعاً .

وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلمه في شيء من الروايات له اسناد صحيح ذكر الأسماء الا في هذا الحديث [1] .

وقد صحح ابن حبان والحاكم حديث أبي هريرة ، وقال النووي في الأذكار انه حديث حسن . وقد ذكر الأسماء الحسنى على غير هذا الترتيب ، ومع تبديل: أبو نعيم في كتابه الأسماء الحسنى والحاكم في المستدرك، وسردها ابن حجر في (التلخيص الحبير) . وسردها آخرون ، وقد رأينا فيها خلافاً في الترتيب وفي سرد الأسماء ، وهذا الأمر يفيد أن :

الأسماء الحسنى ليست محصورة في هذا العدد ، والمذكور نماذج منها ، قال ابن العربي في شرح الترمذي : ويفيد التوسعة في استخراج الأسماء من الكتاب والسنة وان كان العدد ثابتاً ، وهذا الذي يميل اليه الرأي ، لما نجد أن من سرد الأسماء الحسنى من الترمذي والبيهقي وابن حجر وغيرهم لم يزيدوا على تسعة وتسعين اسماً والله أعلم .

معنى : الأسماء الحسنى : أحسن الأسماء لأنها تدل على معان حسنة . قاله النسفي في المدارك .

والحسنى مؤنث أحسن وجمع التكسير في غير العقلاء يعامل معاملة المؤنثة الواحدة .

* من أحصاها : فيه أربعة أقوال : أحدهما من حفظها فسره البخاري في صحيحه [2] وتقدمت الرواية الصريحة به وأنها عند مسلم . ثانيها من عرف معانيها وآمن بها . ثالثهامن أطاقها بحسن الرعاية وتخلق بما يمكنه من العمل بمعانيها . رابعاً أن يقرأ القرآن حتى يختمه فانه يستوفي هذه الأسماء في اضعاف

---

(١) شرح الترمذي لابن العربي ، ابواب الدعاء . ج ١ / ١٣ — ٣٩) .

(٢) قال الشوكاني في شرح الحصن الحصين : وفي رواية للبخاري : ولا يحفظها أحد إلا دخل الجنة .

التلاوة . وذهب الى هذا أبو عبدالله الزبيري . قالها ابن حجر في (التلخيص الحبير) .

* ان الله وتر : الوتر في حق الله تعالى هو الواحد الذي لا نظير له في ذاته ولا انقسام .

وقد اختلف العلماء في تعيين الاسم الأعظم الذي اذا دعا به العبد ربه أجابه واذا سأله أعطاه على أقوال كثيرة بلغت أربعة عشر قولاً : منها (الله) جل جلاله، الحي القيوم ذو الجلال والاكرام لا اله الا الله — ولعل أرجح الأقوال أنها (الله) فانه ما عُهد أن أحداً تسمى بهذا الاسم ، أو أن معبوداً من دون الله تعالى أطلق عليه هذا الاسم ، ولأن معناه المألوه أي المعبود ولأنه اسم ذات الله تعالى ، أما سائر أسماء الله تعالى فانها تدل على صفات أو هي مشتقة من صفات مثل الرحمن الرحيم النافع الضار الخ والله أعلم .

وتناول العلماء من قديم شرح الأسماء الحسنى المروية أو المستخرجة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ جاء في كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون : شرح الأسماء الحسنى لجماعة من أهل العلم منهم الأزهري ، والاقليشي والبراسي والنسفي والبقالي والبيضاوي ، والبيهقي ، والجصاص والخطابي — والغزالي . — وفخر الدين والقشيري والكافيجي وغيرهم . قلت ومن ذلك الغير الشوكاني ومنلا علي القاري ومحمود سامي البارودي وكثيرون [1] .

وقسم العلماء أسماء الله تعالى القديمة الى أقسام فقسمها السيد نور الحسن خان الى أقسام ثلاثة :

أ — أسماء تتبع اثبات الباري سبحانه وهي القديم — الأول ، الباقي ، الحق المبين .. الخ .

---

(١) انظر في كتاب (الجوائز والصلات من جمع الاسامي والصفات) فهذا الكلام منه نُقاية موزعا .

ب ـ أسماء تتبع اثبات الابداع والاختراع له عز اسمه وهي : الله (جل جلاله) الحي القيوم ـ القادر الحكيم ، الخ .

ج ـ أسماء تتبع نفي التشبيه وهي : الأحد ، العزيز ـ المتعال ـ الباطن ـ السلام ، الغني ، الفعال .. الخ .

أما الامام الغزالي في (المقصد الأسنى) فزاد على ثمانية أقسام . فارجع اليه ان شئت .

والحق أن سرد أسماء الله الحسنى تفيد معرفة بأسماء الله تعالى الحسنى وصفاته ، وتلزم الانسان حدود العبودية لله تعالى ، وتؤثر تأثيرها في قلب المؤمن ووجدانه وسلوكه وأفكاره .

فحين يذكر المؤمن أن الله تعالى هو (النافع الضار المحيي المميت الرزاق) يتوكل على الله تعالى ويثق بوعده في الرزق أينما كان وكيفما كان ، فلا يسلك مسالك الحرام ودروب الشبه ، ولا يذل لعدو في سبيل رزقه . ويعيش في عزة وثقة بايمانه بالله تعالى ويتعالى عن الكفر باعتقاده فما يملك أحد من البشر أن ينفعه أو يضره الا فيما شاء الله تعالى . ويفتح قلبه لله تعالى وحده فلا يخشى أحداً سواه ، ولا يدع قول كلمة الحق لأن الاحياء والاماتة بيد الله وحده لا شريك لـــه .

وحين يذكر المؤمن أن الله تعالى هو (التواب المنتقم) يبادر الى التوبة اذا عصاه سبحانه يمحو بذلك ذنبه ويتفادى غضب ربه وبطشه . ويخشى إن ركن الى الذنب وداوم على المعصية أن يدركه الموت عاصياً غافلاً ويندم ولات ساعة مندم .. وتكون عاقبته أن ينتقم الله تعالى منه يوم القيامة حيث لا أهل ولا نصير ولا مهرب ولا خلاص الا أن يشاء الله .

وقل مثل هذا في سائر أسماء الله تعالى .

قال الله تعالى (ولله سبحانه الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون

في أسمائه[1] وقال (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعو فله الأسماء الحسنى) .

فلا تدع أيها الأخ المؤمن أن تقرأ أسماء الله الحسنى أحياناً ثم تدعو الله تعالى بها عساه يجيب الدعاء ، وان حفظتها ليتيسر عليك الاكثار من قراءتها يكن خيراً . والله يتولاني واياك .

---

(١) الالحاد في اسماء الله تعالى ان يُدعى بما لم يرد به الكتاب والسنة مثل يا رفيق يا سخي ، او يسمي الطبيعة الخلاقة — القدرة — الوجود — العناية الحكيمة — السماء الرحيمة وأمثالها . ومن المعلوم ان عبادة الصفات كالرحمة كفر بالله تعالى ، كما ان عبادة الذات مجردة عن الصفات فسق ، والحق عبادة الذات المتصفة بالصفات . ومن الالحاد ان تطلق اسماء الله المقدسة على غير الله تعالى مثل تسمية الاوثان آلهة وتسمية القوي من البشر خلاقاً .

دلائل ومشاهدات

في الإيمان بالله تعالى

تمهيد :

الأصل في الاسلام انه لا تكليف الا بشرع ، ولا مسؤولية إلا بعد بعثة رسول .

وقد أرسل الله تعالى بالشرائع رسله تترى في كل أمة ، إلى أن أرسل الرسول محمداً ﷺ إلى كل قوم وإلى كل عصر حتى يرث الله الأرض ومن عليها . قال الله تعالى (وإن من أمة الا خلافيها نذير . — وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً .. قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض ...) .

والعقل هو مناط الفهم للتكليف وليس مشرعاً يبتدىء الأمور والشرائع ، أو يحكم على الشيء بحكم وعلى هذا اتفق أهل السنة والجماعة أنه لا تكليف إلا بخطاب شرعي ، والايمان بالله تعالى داخل في هذا ، إلا أن الامام أبا حنيفة رحمه الله تعالى يقول : في أصل الايمان بالله تعالى يكفي العقل ليصبح المرء مكلفاً بالايمان وليس ضرورياً للتكليف بالايمان ان يكون الأمر بالايمان بالله تعالى قد جاء على لسان رسول . لهذا فهو يرى ان الخلق جميعاً مكلفون

بالايمان بالله تعالى اينما كانوا في شاهق جبل ومستكثف غابة لان آدم عليه السلام قد جاء بالإيمان بالله تعالى ، ولأن الله تعالى قد أخذ العهد على ذريته بالايمان به سبحانه في عالم الذر (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ...) .

والآراء في أصل التكليف بالايمان بالله تعالى والشرائع ثلاثة :

* رأي أبي حنيفة رحمه الله تعالى (الماتريدية) أن الايمان بالله تعالى يدرك بالعقل ويجب به بعد أن ورد به الشرع مرة على لسان آدم عليه السلام ، وسائر أمور الدين تتوقف على رسالة الرسول في كل أمة .

* رأي الأشعري رحمه الله تعالى : ان الايمان بالله تعالى وسائر أمور الدين تتوقف على رسالة الرسول في كل أمة . رأي المعتزلة : ان الايمان بالله تعالى يقوم على العقل ولا يتوقف على ورود الشرع به قط ، وكثير من أمور الدين كذلك .

ثم .. الذين غلفوا قلوبهم وعطلوا عقولهم واصموا آذانهم واستكبروا في أنفسهم وعتوا عن الحق ، لا تفيدهم آية ولا يجدي معهم برهان لان كفرهم كفر عناد وإصرار على الباطل وإدمان . (إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون) . وسيأتي غير بعيد ــ باذن الله تعالى ــ ذكر أسباب تدعو بعضهم إلى الاصرار على الكفر بالله تعالى مهما أورد لهم من آيات وجيء لهم به من براهين .

كيف يتحقق الايمان بالله تعالى نظراً وفكراً ؟ .

الايمان بوجود الله تعــالى وربوبيته للخلق مغروز في فطرة كل حي ، وما يضل عن ذلك الا من مالت تربيته عن الجادة ، او انحرف سلوكه عن الاستقامة ، واستبدت به المصالح والأهواء عن الرشاد والعقل .

قال الله تعالى (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) .

وروى البخاري وغيره أنه ﷺ قال (كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصرانه او يمجسانه) . وقال تعالى (ومن أضل ممن اتخذ إلهه هواه واضله الله على علم ..) .

دلائل وجود الله تعالى :

عقيدة وجود الله تعالى مغروزة في فطرة كل حي كما ذكرت ، يقرّ بذلك كل مخلوق في كل حال او في حال البأس والشدة ، وانه ليكفي دليلاً على وجود الله تعالى ما نرى من محاولات الملحدين بوجوده والمؤمنين بالعبيد والأهواء من دونه سبحانه ، وهي محاولات مستمرة ، مضحكة مؤلمة في التمثيليات والقصص والمحاضرات والرسائل والكتب والشهوات والضلالات والحديد والنار ، في سبيل تحويل الخلق عن الايمان بالله تعالى .. ثم لا تزيد تلك المحاولات الايمان بالله تعالى الا قوة ولا ظهوره إلا وضوحاً ، لكن .. انما يبدو ذلك لكل عيان حين يزول بطش الحديد وذل السجن والمحاربة في الرزق ، وتقابل كلمة الحق بكلمة الباطل دون سلطان . وعسى أن يكون ذلك قريباً .

وقد بدا لي في شهر رمضان المبارك من عامنا هذا / ٣٩٢ / أثناء اعتكافي في جامع الأرناؤوط ان أعرض قليلاً من كثير ونزراً من جليل من الدلائل القطعية على وجود الله تعالى .

ولقد خضع كل عقل واستسلم كل فكر وأدرك علماء الملاحدة في وجود الله تعالى ان معبوداتهم اعجز من أن تخلق ذبابة ، واحقر من ان تدفع عن نفسها

أذى ، فضلاً عن أن تجلب لغيرها نفعاً أو تدفع ضراً وان هذه الحياة ما وُجدت هكذا بل أوجدها موجد ، وخلقها حيٌّ قادر كامل في كل صفة ، وهو الله تعالى .

ولقد رتبت تلك الدلائل إلى دلائل علوية من سماوات ، ونجوم وكواكب ، ودلائل سفلية من أرض وانسان وجن وحيوان . والله الموفق الهادي .

أ ـ دلائل علوية ـ ١ ـ السموات :

السماوات موجودات قائمة ، وما ادعى انسان ولا جماعة في قديم الدهر وحديثه انهم خلقوا السموات واوجدوها من العدم ، وما خُلقت هكذا دون خالق فانه يستحيل على العدم أن يوجد موجوداً ، فظهر ان الله تعالى هو وحده خالق السموات ومنشئها من العدم وهي ملكه وله كامل التصرف بها سبحانه .

* لقد خلق الله تعالى الأرض في يومين وقدر ارزاقها في يومين آخرين ثم خلق السموات السبع في يومين آخرين من دخان . قال الله تعالى (.. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين واوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم) .

* السموات مبنية بقوة عظيمة قال تعالى (والسماء بنيناها بايد وانـا لموسعون) . ولها أبواب ومسالك ودروب وحدود ، قال تعالى (وفتحت السماء فكانت أبواباً ـ يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ـ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاسٌ فلا تنتصران) . السموات عظيمة واجلّ من خلق الناس قال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) .

* السموات مسكن الملائكة العظام ، ومنهم جبريل عليه السلام الذي أنعم

الله تعالى عليه بإبلاغ الرسالة إلى رسل البشر ومنحه من القوة أن قلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذي تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح بثمود صيحة فاصبحوا موتى جاثمين ، فهو لعمر الله أسرع حركة من ضياء الشمس [١] ومنحه من البسطة أنه حين ترأى للنبي ﷺ سدّ أفق السماء أمامه .

* وهي كذلك مسكن عيسى عليه السلام من وقت رفعه اليها — إلى حين — يعيش فيها بروحه وجسده ، حتى يأذن الله تعالى بنزوله إلى الأرض ليملأها توحيداً وعدلاً وقد ملئت إلحاداً وظلماً . [٢]

* السموات بناء عظيم مرفوع على غير عمد نراها ، لا تقع على الأرض لأن الله تعالى لا يأذن لها في ذلك ، حتى تقوم الساعة فحينئذ تقع السماء على الأرض . قال تعالى (رفع السموات بغير عمد ترونها — ويمسك السماء ان تقع على الأرض إلا باذنه — اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت ..) .

* السموات سبع بعضها فوق بعض وبين كل سماء وسماء كما بين السماء الدنيا والأرض ، وفوقها سدرة المنتهى وفوقها عرش الرحمن سبحانه وتعالى عن التشبيه والمشابهة للخلق في الحاجة إلى مكان يحويه وزمان يحيط به — وما

---

(١) تفسير روح المعاني للآلوسي / ٢٧ — ٤٧ / .

(٢) ورد في نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان أكثر من سبعين حديثاً ، واشارت إلى نزوله أكثر من آية ، فكان خبر نزوله عليه السلام متواتراً ، لذا قضى العلماء بكفر من انكر نزوله عليه السلام لانكاره ما تواتر من الدين . انظر / التصريح بما تواتر في نزول المسيح / للشيخ محمد أنور الكشميري ، تحقيق وتعليق المحدث الفقيه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة كان الله معه .

عُلمنا مادة السموات – وما كان لاحد من البشر أن يعلمها لأنه ما وصل إليها ، فان الرسول ﷺ مع عروجه اليها ما أخبرنا عن شيء من ذلك ، فنكل علمها إلى الله تعالى . ولم يصح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه وصف مادة السموات انهـا سماء من فضة وأخرى من ذهب وثالثة من حديد ، وهكذا مما ذكر في رسالة (المعراج / المنسوبة إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كذباً وزوراً . وقد نفى كونها عنه رضي الله عنه أئمة منهم الامام السيوطي في / تدريب الراوي / . قال الله تعالى (الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ..) .

* وهي معراج أعمال المؤمنين الصالحة ، قال الله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال في حق فرعون وقومه وامثالهم (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) . أي ما بكى عليهم معرج عملهم من السماء ومتعبدهم من الأرض ، وما كانوا مؤخرين بعد حلول موعد نزول العذاب .

وما يجدر ملاحظته الآن – وقد ظن بعضهم باسم الاسلام استحالة وصول الانسان إلى القمر لان القمر في السماء والسماء لا يصل اليها الجن والانس – ان الله تعالى ذكر أن النجوم والكواكب – زينة السماء الدنيا ، كما قال تعالى (انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) . فالشمس والقمر والزهرة والمريخ والمشتري وسواها من ملايين الكواكب والنجوم جميعها تحت السماء الأولى ، فليس ثمة ما يمنع شرعاً من وصول الإنسان إلى القمر والمريخ ، لان ذلك جميعاً دون السماء ، أما السماء الحقيقية فحاشا ان يصل اليها جن أو إنس إلا باذن الله تعالى معجزة وكرامة . قال تعالى (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً . – لا يَسَّمَّعُون إلى الملأ الأعلى ويُقذفون من كل جانب) .

٢ – الفضاء العلوي : بين السماء والأرض وما فيه – .

هذا الفضاء العلويّ بما فيه من ملايين الكواكب والنجوم والشموس

والأقمار موجودات قائمة وما ادعى انسان ولا جماعة في قديم الدهر وحديثه أنهم خلقوا هذه الكواكب والنجوم وأوجدوها من العدم ، ولا خُلقت هكذا دون خالق إذ محال أن يوجد نظام دون منظم بله وجود مخلوق دون خالق والعدم لا يمكن أن يخلق وجوداً ، فالله تعالى هو خالق الفضاء وما فيه وهو مالكه .

اذا خلا أحدنا في ليلة من الليالي الأولى من شهر قمري على سطح دار او مرتفع جبل أو جوف صحراء ، ثم مد نظره إلى السماء .. فاعجبه منظر النجوم الكثيرة التي تبلغ في نظره آلافاً مؤلفة .

ثم خلا إلى فكره وقال : من أبدع هذه النجوم الكثيرة الكثيرة ، من وهبها النور والحركة والنظام كل يسبح في فلك خاص به ، من جعل النظام بين هذه النجوم نظاماً لا يُنقض .

ثم خلا إلى كتاب من كتب الفلك فسيرى عجباً . سيرى ان المجرة ـ التي منها الأرض والشمس ـ يبلغ قطرها / ١٠٠,٠٠٠ / سنة ضوئية والسنة الضوئية مسافة مقدارها /٦/ مليون مليون ميل فقطر هذا القرص نحو من /٦٠٠/ الف مليون مليون ميل [1] وقد يبلغ عدد النجوم فيها / ١٠٠,٠٠٠ / مليون نجم . فكم في الفضاء العلوي من مجرات .. وكم في كل مجرة من نجوم ؟ ! الله وحده يعلم .

ايعقل في منطق عاقل أن يكون هذا كله قد وجد هكذا دون خالق ؟ أو خلق هكذا دون حكمة معاذ الله ! وصدق الله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) .

٣ ـ الشمس : الشمس أهم الأجرام السماوية بالنسبة الينا إذ نستمد منها الحرارة ، وهي أقرب النجوم إلينا يقدر بُعدها المتوسط بنحو / ٩٣ / مليون

---

(١) انظر / مع الله في السماء / ١٧٨ .

ميل ، ولما كانت سرعة الضوء تساوي / ١٨٦,٠٠٠ / ميل في الثانية نجد أن الضوء يصل الينا في زمن يقدر بثماني دقائق تقريباً ، بينما يصل الينا من أقرب النجوم بعد الشمس في زمن يقدر باربع سنين ونصف [١] .

ويبلغ محيطها مثل محيط الأرض / ٣٢٥ / مرة ووزنها / ٣٠٠ / الف ضعف وزن الأرض [٢] — وزن الأرض / ٦ / آلاف مليون تريليون اي رقم / ٦ / متبوعاً بسبعة وعشرين صفراً — ، ويبلغ درجة حرارة سطحها وهو الأقل حرارة نحو / ٥٥٠٠ / درجة مئوية . [٣] .

فمن ؟ من أمدّ الشمس بهذه الضخامة وهذا الضياء وهذا العطاء ؟ ! ولولا ضياء الشمس لجمد ما على هذه الأرض من حياة .. وما عاش عليها أحد من الخلق ! هو الله ! هو الله سبحانه ! ويا ويل من لا يعقل، ويجهل .

٤ — **الشهب** : أجسام صلبة تجري بسرعة هائلة في السماء ، فاذا دخلت الجو الأرضي احترقت فاتقدت وهي تخترق الهواء ؛ أما كيف تنشأ هذه الشهب امن مذنبات أو غمام الله أعلم بذلك ، والمراقب للسماء يرى في المتوسط في الساعة الواحدة نحو عشرة من الشهب ، ولو أن لسطح الأرض عيوناً ترى لرأت في الساعة الواحدة الف الف (مليون) من الشهب وبالمناظر ترى أكثر من ذلك [٤] .

قلت : هذا ما يقوله علم الفلك أو بعض أهله ، والله تعالى وهو الخالق المنشىء لكل شيء يقول في القرآن الكريم ان هذه الشهب رجوم موجهة من الملائكة إلى الشياطين التي تسترق السمع في السماء ، (لا يسمّعون إلى الملأ

---

(١) انظر/ في اعماق الفضاء/ للدكتور عبد الحميد سماحة .

(٢) الشهادة لعبد الرزاق نوفل .

(٣) المصدر ذاته .

(٤) مع الله في السماء ١٥٦ — آثار الخالق .

الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب ثاقب). فالله تعالى يخبر بحكمة انطلاق هذه الشهب واعمالها، وعلم الانسان لا يستطيع أن يصل إلى الحكمة في الواقع والغاية بنفسه ، شأنه في هذا كشأنه في سائر الموجودات فعلم الانسان يعرف العلاقة بين الإنسان والاكسجين والعلاقة بين النبات والاكسجين . ولكنه لا يعلم — مثلاً — لماذا يستنشق الانسان الاكسجين ليلاً ونهاراً بينما يصنع النبات عكس ذلك .

وليس يُعد عالماً ولا عاقلاً ذلك الذي يمدّ أنفه فيزعم أنه يعرف — حكم — أو غاية المخلوقات العديدة على وجه الأرض فضلاً عما في جو السماء .

قال لاپلاس — وهو من كبار الرياضيين والفلكيين — ان النظام المحير للعقول، المشاهد في حركات الاجرام التي تتألف منها المجموعة الشمسية لا يمكن أن يحصل صدفة ، بل ان الصدفة لا يصح النطق بها في لغة العلم . ان الصدفة معدومة ومحال في هذا العالم الذي ترى فيه كل شيء خاضعاً لقوانين الموازنة وقوانين الحساب التي عينتها ارادة غيبية وحكمة بالغة .

ملاحظة :

ليس جميع ما يذكره علماء الفلك في أمر النجوم والكواكب والمجرات وأقطارها وأحجامها حقائق علمية ، انها ظنون تقوم على قوانين كذلك ، لكنها تشير إلى عظمة هذه الآيات الدالة على الخالق العظيم سبحانه .

* ذكر الله تعالى في القرآن الكريم ان السماء متنزل المطر (وانزلنا من السماء ماء طهوراً) وتقرر قرآنياً وعلمياً أن المطر انما ينزل من السحب فكيف نوفق بين الأمرين ؟ التوفيق: تطلق السماء في القرآن الكريم على اطلاقين السماء الشرعية الحقيقية وهي التي ذكرنا من أمرها ما ذكرنا .. السماء اللغوية وهي : كل ما علاك فكان فوقك . فالسحاب من السماء اللغوية ، قال تعالى (وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) أي من السحاب . وقال تعالى (فالحاملات وقرا) .

ومن المقرر في علوم القرآن ان أول ما يفسر به القرآن الكريم هو القرآن الكريم قال تعالى (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) . فظهر التوفيق والحمد لله .

٥ ـ الرياح :

الرياح وما أدراك ما الرياح ! تجد منها رياح البشرى بالغيث والسقيا ، وريح الصبا تأتي من المشرق لينة لطيفة ، وريح الدبور تأتي من المغرب قوية قاسية ، وريح الشمال تأتي عن يمين القبلة إلى جهة الغرب ، والرياح اللواقح تحمل لقاح الأزهار والأشجار .

إنها أنواع عديدة ، وهي من جند الله تعالى ، ولقد أهلك الله تعالى بالريح الدّبور قوم هود على عظم أجسامهم وشدة بأسهم فأخرجتهم من بيوتهم ومخابئهم فرفعتهم إلى السماء ثم رمت بهم إلى الأرض (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) .

وقد صرف الله تعالى بها الاحزاب من مشركي قريش وغطفان من المدينة المنورة بعد حصارها شهراً في شوال من السنة الخامسة من الهجرة ... فعادوا (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياًعزيزاً) .

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : (الماء والريح من جنود الله عز وجل والريح جند الله الأعظم) .

وما أشد العواصف والأعاصير ! ما أشد ما تهيج البحار وتثير الرمال وتحرك الأنهار ، فاذا العامر خراب ، وإذا الأرض قد غمرتها المياه فأهلكت ما شاء الله ان تهلك .

قال الله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح ـ واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) .

(ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) .

ولو .. احتبست الريح عن الأرض أياماً لأنتن ما بين السماء والأرض .

ما حقيقة الرياح ، ما قوتها ، وسرعتها ، ما أنواعها ومواطنها وآثارها ؟ أسئلة موضع الاجابة عليها كتب التقويم المدرسية فلا نعرض للكلام عليها .

قال الله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) . فحياة المخلوقات والموجودات من انسان وحيوان ونبات إنما هي بالماء الذي ينزله الله تعالى من السماء . قال الله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً ان في ذلك لذكرى لأولي الألباب)[1] .

وقد قضت حكمة الله تعالى في تكون المطر أن يكون تبخراً من الماء المالح يفقد الماء ملوحته ثم يصاعد في السماء ويصاعد حتى يبلغ درجة من البرودة تعيد البخار ماء ثم تجمع الرياح سحب الأمطار واذا أذن الله تعالى بنزول الأمطار في مكان نزلت منها حبات ناعمة دقيقة متفرقة على أوقات وأماكن متعددة .. ولو نزل مطر السنة في يوم ، أو نزل مجموع حباته في غرفة لاهلك الحرث والنسل ، لكنه لطف الله القائل (وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون) .

ومن العجب الدال على عظيم فضل الله تعالى وتدبيره أمر الكون على الدوام ، في نظام لا تفاوت فيه ولا تخالف والحمد لله : ان الله ينزل في كل عام مطراً بنسبة واحدة على الأرض لا تزيد نسبة سنة على أخرى ، لكن يختلف ذلك في أماكن نزولها ومقاديرها وأزمنتها . قال الصادق المصدوق محمد ﷺ : (ما عام بأمطر من عام) .

---

(١) الزمر .

لطائف علمية :

* تبلغ سرعة القمر على مداره / ٣٣٨٠ / كم في الساعة بينما تبلغ سرعة الأرض في حركتها حول نفسها عند خط الاستواء / ١٦٧٥ / كم في الساعة ، ولو كانت سرعة القمر المدارية أقل من سرعة الأرض المحورية لاختل نظام الأشهر القمرية ، إذ يزداد الشهر القمري عما هو عليه الآن أياماً تتناسب مع قلة سرعته ، ولازدادت مدة الكسوف والخسوف لدرجة ان تضطرب الحياة على الأرض اضطراباً كلياً . قال تعالى (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) .

* يبلغ ميل محور الأرض ٢٣,٥° درجة فلو كان المحور غير مائل بل كان عمودياً على مستوى مدارها لكانت الشمس تقع فوق الرؤوس وقت الزوال عند خط الاستواء ، وعلى مدى السنة دون ان تنقل عموديتها بين المدارين كما هو عليه الآن ، ومن جراء ذلك يمتنع حدوث الفصول الأربعة الربيع والصيف والخريف والشتاء في المنطقة المعتدلة ، وتتحول المناطق المعتدلة إلى مناطق باردة غالباً وتكون منها قارات من الجمد وتصبح المنطقة الباردة زمهريراً لا يطاق ، فمن أقام ذلك الميل بهذه النسبة حتى توفر الحياة على سطح الأرض ؟ انه العليم الحكيم (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) .

* تبعد الشمس عن الأرض مسافة / ٩٣ / مليون ميل، ولو كانت أقرب مما هي عليه الآن إلى الأرض لكان ذلك كافياً لانضاج جلود الخلق ولاحراق الزرع والنبت ، ولو كانت أبعد مما هي عليه الآن لضربنا الجمد ولما كانت حياة على وجه الأرض (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) .

* يبعد القمر عن الأرض / ٢٤٠ / الف ميل ، ولو كان أقرب إلى الأرض من مسافته المذكورة لكانت تبلغ الموجة المدية مبلغاً هائلاً ، يكفي ان تغمر الأرض بقاراتها حتى مرتفعاتها بمياه المحيطات مرتين فقط في اليوم ، وانظر اين سيكون الأحياء حينئذ ؟ ! ولو كان القمر أبعد مما هو عليه الآن

لما حصل المد والجزر المعتدلان اللذان لهما فوائد صحية وتجارية وزراعية وصناعية ولما تمتعنا بنور القمر الباهر .

* تبلغ سرعة الأرض في دورتها اليومية حول محورها / ١٠٠٠ / ميل في الساعة عند خط الاستواء ، فلو كانت سرعة دوراتها / ١٠٠ / ميل في الساعة لكان طول الليل والنهار عشرة أضعاف طولهما الآن ، ولاستطاعت حرارة الشمس ان تحرق نباتنا في النهار الطويل الطويل ، وكذلك استطاع الليل لغياب الشمس أن يجمد نباتنا الذي ربما بقي حياً بعد وهج الشمس الطويل . (يغشي الليل والنهار يطلبه حثيثاً — سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) . [١]

ب — دلائل سفلية على وجود الله تعالى :

١ — الأرض :

هذه الأرض التي نعيش عليها ويعيش عليها ثلاثة آلاف مليون انسان ومليارات من الحيوانات والحشرات والأسماك . هذه الأرض موجودة وقائمة ، وما ادعى انسان أو جماعة في قديم الدهر أو حديثه أنهم خلقوا الأرض وأوجدوها من العدم ، وما خُلقت هي هكذا دون خالق ، ومن المحال وجود نظام دون منظم ، بله وجود مخلوق دون خالق ، والعدم — عقلاً — لا يخلق وجوداً ... فالله تعالى هو خالق الأرض وما فيها ومن عليها ، هو مالكها والمتصرف فيها وأهلها بما يشاء ويختار سبحانه .

* خلق الله تعالى الأرض في يومين ثم خلق السموات ، قال الله تعالى (قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له انداداً ذلك رب العالمين). [٢]

---

(١) آيات الخالق الكونية والنفسية / للاستاذ رشيد رشدي العابري مفرقاً .

(٢) كذب العلم الفرضية القائلة ان الأرض انفصلت عن الشمس في قديم الزمان وانها=

* وجعلها كرة كبيرة ممدودة مبسوطة للناظر ليسهل عليها العيش ، ويستقر عليها الماء والزرع والبناء ويسهل السير والعمل . قال تعالى (الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء — والأرض مددناها — والأرض بعد ذلك دحاها) .

* وحين اضطربت الأرض ومالت ، ثبتها الله تعالى بالجبال العالية القوية ، قال الله تعالى (والجبال أرساها — والأرض مددناها والقينا فيها رواسي) .

لقد خلق الله هذه الأرض واحدة ، لكنها رمال وتراب وحجارة وصخور وجبال ووديان ، والرمال أشكال والوان ، والتراب كذلك ، وكذا الحجارة والصخور بل الجبال والوديات وهي جميعها أرض واحدة .. وجاء التنوع لصالح حياة الخلق عليها .

على هذه الأرض يعيش الانسان والجان والحيوان والنبات ، وفي جوفها توجد الكنوز والمعادن . وثمة سوى هذه الأرض ست أرضين ما نعلم عن مادتها وخلقتها شيئاً . نعلم حقيقة وجودها للنصوص الدالة على ذلك ، قال الله تعالى (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ..) .

وقال رسول الله ﷺ (من ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين) . رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

وكأن النظر يميل إلى اعتبار الأرضين بعضها فوق بعض كالسماوات ، وليس فيها بشر مثلنا وقد يكون فيها بعض الجن . والله اعلم . وما كلفنا الخوض فيما لم يأتنا به الشرع بتفصيل وبيان .

= كانت تدور بسرعة هائلة ،حتى إذا كادت تنطفيء شعلتها خرجت الجبال من قاعها وكان الماء — الخ ، كما تنفي الآية ذلك ، قال تعالى (ما اشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً) .

٢ ـ الانسان :

الانسان وما أدراك ما الانسان ! مخلوق كريم على الله تعالى ، جعله مولاه آية عظيمة تدل على الخالق العظيم سبحانه (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) .

خلق الله تعالى الانسان الأول من تراب عجن بماء فأصبح طيناً لزجاً ، ثم ترك حتى يبس الطين فكان صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الروح فصار انساناً كريماً من لحم ودم وعظم وجلد وحواس وعقل . كان ذلك الانسان الأول هو آدم عليه السلام ، ثم خلق الله تعالى من نفسه حواء ثم كان التناسل منهما من مني يمنى ، وهي سنة الله تعالى في خلق البشر ـ الا ما استثنى وهو عيسى عليه السلام فقد خلقه الله تعالى من أم دون أب ليكون آية للناس دالة على عظيم قدرة الله تعالى ، وعلى انه سبحانه يفعل ما يشاء ويختار . قال الله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيباً ـ الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً . ـ وبدأ خلق الانسان من طين ـ خلق الانسان من صلصال كالفخار) .

* لقد خلق الله تعالى الانسان أطواراً في رحم الأم حتى يأذن بخروجه إلى الدنيا ، قال الله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلنا نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) [١] .

ثم جعله أطواراً بعد خروجه إلى الدنيا ، قال الله تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ـ ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً .

---

(١) المؤمنون / ١٤ / .

ثم يجعله أطواراً بعد خروجه من الدنيا : طور حياة البرزخ في القبر وطور الحياة الآخرة : في الدار الآخرة قال الله تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ـ ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) وقال في حق فرعون وقومه وأمثالهم من الكافرين مخبراً عن حالهم في حياة البرزخ في القبور : (النار يُعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب) .[1]

يخلق الله تعالى الانسان جاهلاً بكل شيء عاجزاً عن كل شيء ، ثم تدركه عناية الله تعالى فينعم عليه بما يحتاج إليه ، قال الله تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة لعلكم تشكرون) .

الله تعالى وحده هو خالق الانسان وخالق كل مخلوق ، بل خالق الحياة ، لا يخلق أحدٍ سواه ولا يوجد من العدم ولو كان حبة قمح أو حفنة من تراب فضلاً عن ذبابة او بعوضة ، ولو كان بعض العلماء لبعض ظهيراً ونصيراً .

ولقد ذكرنا من قبل قول أوبارين الروسي في بيان جهل الإنسان بكنه الحياة واستحالة استحضار الحياة بالوسائل المادية من أحد من البشر . قال الاستاذ رشيد رشدي العابري :[2] لم يتمكن العلم ولن يتمكن من أن يعرف سر الحياة ، ولكن الانسان يشاهد أثرها في هذه الدنيا ، فالحياة النباتية مثلاً تتوقف على التربة والماء والهواء والحرارة والضوء ، وهذه العوامل الخمسة بتفاعلها الكيماوي والفيزيائي تنبت البذرة او النواة التي تأخذ في النمو والازدهار ، واذا نظرنا إلى البذرة او النواة قبل وضعها في التربة ظهرت لنا كأنها لا حياة فيها ،

---

(١) المؤمن / ١٦ / .

(٢) آيات الخالق الكونية والنفسية / ٤٦ ــ ٤٧ / .

ولكنها تحيا وتنمو بعد ان تتفاعل كيماوياً وفيزيائياً مع العوامل الخمسة المذكورة آنفاً ، ولم يتوصل العلم حتى الآن وربما لن يتوصل أبداً إلى معرفة كيفية احياء هذه العوامل للبذرة بعد موتها ، ولماذا احيتها - أي أظهرتها وأنمتها - ، وعظماء الكيماويين من العلماء الفطاحل من أمثال باستور ولبيج قد اعترفوا متواضعين بأنه لا يمكن خلق خلية من الخلايا النباتية أو الحيوانية ولا ايجاد بيضة جرثومية أو عضلة ، أو أصغر العضلات ، أو عصبا أو تركيب ورقة بسيطة صالحة للنشوء والنمو نظراً للعجز عن إيجاد مادة عضوية ذات حياة ، مع أن أجسام النبات والحيوان الظاهرة مركبة من موادّ معروفة التحليل والتركيب كيماوياً . ان ذلك يقتضي بالضرورة الاعتراف بوجود قوة خفية في أسرار الخلقة في النبات والحيوان ، ولذلك اعتقد العلماء بوجود قوة معنوية للحياة لا نستطيع ادراكها . (يخرج الحي من الميت) . اه

١ - يولد هذا الانسان جاهلاً لا يعلم شيئاً ، أصم لا يسمع أعمى لا يبصر ، فما ان يبكي وتُلقمه أمه ثديها - وقد ملأه الله تعالى لبناً بعد ولادته - حتى يأخذ في الرضاع ، ولو كان اللبن ينزل من الثدي بمجرد وضعه في الفم لهان الأمر ، لكن اللبن لا ينزل إلا بالمص . فمن علم الوليد هذا ؟ ولو أنه ما عُلم لمات بعد ساعات قليلة من ولادته جوعاً وحرماناً .

ثم يكبر قليلاً قليلاً فيفتح عينيه ويصيخ باذنيه ويملك - إلى حد - اعصابه ثم تنبت له الاسنان وتتم عدداً في الوقت الذي لا ينتهي فيه مفعول اللبن في حياته كغذاء أولي ، كي ينتقل بهذه الاسنان إلى الأكل الذي يحتاج إلى قطع بالاسنان وقضم بها ، وازدراد - فمن هيأ له هذا المسير ؟ !

يولد الانسان ضعيفاً .. فاذا به يحرك يديه وأصابعهما ورجليه وأصابعهما وجسمه كله كما يريد ، ولو لم يجعل الله تعالى مفاصل العظام على ما هي عليه ، بل جعلها مربوطة بربط أو مضرية بدسر كيف كان يمكن للانسان أن يتحرك ، وكيف كان يمكن أن يعيش وقد جاء تحريك تلك المفاصل بما هي عليه حقاً

في مصلحة الانسان . قال الاستاذ علي هلال : .. ثم تدبرت التدبير الصارخ في تهيئة المفصل ليكون مفصلاً يؤدي عمله ، سيور واربطة وغضاريف تمنع الاحتكاك بين العظام ، ومواد زلالية تسهل الحركة ، ثم وقايات تمنع المفصل ان يتحرك إلى الجهة التي لا يتطلب الأمر أن تتحرك اليها .. ثم مفاصل تتحرك إلى الأمام مثل مفصل المرفق ، ومفاصل تتحرك خلفا مثل مفصل الركبة ومفاصل تتحرك لجميع الجهات مثل مفصل الرسغ لوجدت ان مصلحة الإنسان تطلب ذلك . وان ثمة قوة عاقلة مدبرة حكيمة منعمة متفضلة ورحيمة [1] .

قلت بل ذات لها قدرة وارادة وحكمة وهو الله سبحانه .

٢ — انعم الله تعالى على الانسان بالجلد الذي يكسو جسمه كله ، وجعل له مسامّ لا يعلم عددها إلا الله وينظم بذلك فرز الجسم العرق ، لينظم حرارته ويجعلها ثابتة بالنظر لتبخره واستهلاكه كميات من حرارة الجسم ، وجعله أنواعاً من لين وقاس ، ومن رقيق وغليظ ، ولو كان رجلا الانسان في رقة جلد شفتيه فكيف كان يمشي على رجليه ؟ لو كان جلد جفنيه في غلظة جلد رجليه كيف كان يستطيع أن يفتح عينيه ويبصر طريقه ويتقي الأذى ؟ لو كان جلد بطنه في رقه جلد خديه كيف كان يتقي الضربة البسيطة تلقي امعاءه إلى الأرض وتكون سبب الوفاة ؟ !

٣ — انعم الله تعالى على الانسان بالمعدة التي تعمل للانسان هضماً للطعام سنين طويلة وهي من جلد رقيق لين ، بينما نجد قدور الحديد والنحاس تخدم سنين ثم تخرق وتبيد ، مع ان المعدة التي تهضم الغذاء تفرزه بعد ذلك وتوزعه على حديد وملح وماء ، وتودع كل عضو من الجسم ما يناسبه ، فللاعضاء الهضمية مادة (كلور الصوديوم) وللطحال والكبد مادة الحديد ، وللغدد التناسلية مادة الفوسفور ، وللمجموع العصبي الكلس والمغنسيوم والفسفور ،

---

(١) الجائزة أو أومن بالله لماذا ؟ / ١ — ٢٢ / .

فمن .. من أعطى المعدة اللينة الرقيقة هذه القوة الخارقة والمستمرة ، ومن أعطاها ذلك التدبير لما يصل اليها وهي لا تعي ولا تعقل ، فتأتي بأعمال تعجز عن بعضها مخابر التحليل في العالم كله ؟

الا ما اعجب ما جعل الله تعالى في الانسان من آيات ، وما أعظمها وألطفها ، ما أظهرها وما ابينها ولكن الظالمين لا يعقلون .

٤ ــ في العالم الآن ثلاثة آلاف مليون انسان او يزيدون ، والكل خلق الله تعالى وتدبيره ، ومع ذلك فلا تجد في هذه الملايين العديدة اثنين متشابهين في كل شيء ، ولو قد جاءا في حمل واحد من بطن واحدة . فلا بد من الاختلاف ، الاختلاف في السحنة أو اللون أو الطول او الصوت أو الحركة ، أو الفكر والعاطفة ، أو القوة والضعف ، أو الخلق حسناً وسوءاً .

وهذا الذي يقال في الانسان يقال في الحيوان ــ ويقال في النبات بل أوراق الوردة الواحدة ! تختلف كل ورقة عن أختها من وردة واحدة في اللون أو الحجم ، أو العروق أو المجس .

بينما نرى الصابون مثلا تأتي ألواحه نوعاً واحداً متشابهة في اللون والحجم والوزن والرائحة إذا كان القالب واحداً . لان قالب الصابون لا يعقل ، وخالق كل شيء له كمال الارادة والخيرة سبحانه في كل شيء .

قال الله تعالى (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين) .

حقاً حقاً ! كل ما في الانسان حتى الظفر والشعر آية تدل على الله تعالى وتشير إلى الخالق سبحانه وصدق الله تعالى حين يقول (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) .

قال الامام القرطبي رحمه الله تعالى : (وقال الله تعالى : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) يعني آدم عليه السلام (ثم جعلناه) أي جعلنا نسله

وذريته (نطفة في قرار مكين) إلى قوله (تبعثون) فالانسان اذا تفكر بهذا التنبيه بما جُعل له من العقل في نفسه رآها مدبرة ، وعلى أحوال شتى متصرفة ، كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحماً ثم جلداً وعظماً ، فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال نقص إلى حال كمال لانه لا يقدر على أن يحدث لنفسه في الحال الأفضل التي هي كمال عقله وبلوغ رشده عضواً من الأعضاء ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه ، فيدل ذلك على أنه في حال نقصه وأوان ضعفه من فعل ذلك أعجز . وقد يرى نفسه شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلى حال الشيخوخة والهرم - ولا اختار لنفسه ولا وسعه أن يزيل حال الشيب ويراجع قوة الشباب ، فيعلم بذلك انه ليس هو الذي فعل تلك الأحوال لنفسه وان له صانعاً صنعه وناقلاً نقله من حال إلى حال ولولا ذلك لم تتبدل احواله بلا ناقل ولا مدبر . وقال بعض الحكماء ان كل شيء في العالم الكبير له نظير في العالم الصغير الذي هو بدن الانسان ، ولذا قال تعالى (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) وقال (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) . فحواس الانسان اشرف من الكواكب المضيئة ، والسمع والبصر منها بمنزلة الشمس والقمر في ادراك المدركات بها ، واعضاؤه تصير عند البلى تراباً من جنس الأرض ، وفيه من جنس الماء العرقُ وسائر رطوبات البدن ، ومن جنس الهواء الريح والنفس ، ومن جنس النارفيه المرة الصفراء ، وعروقه بمنزلة الأنهار في الأرض ، وكبده بمنزلة العيون التي تستمد منها الانهار ، لان العروق تستمد من الكبد ، ومثانته بمنزلة البحر لا نصباب ما في أوعية البدن اليها كما تنصب الانهار إلى البحر . وعظامه بمنزلة الجبال التي هي أوتاد الأرض ، واعضاؤه كالأشجار فكما ان لكل شجرة ورقاً أو ثمراً فكذلك كل عضو ذي فعل أو أثر . والشعر على البدن بمنزلة الحشيش على الأرض . ثم ان الانسان يحكي بلسانه كل صوت حيوان ويحاكي باعضائه صنع كل حيوان . فهو العالم الصغير مع العالم الكبير مخلوق محدث لصانع واحد لا إله إلا هو . اه . (١)

---

(١) تفسير القرطبي/ ٢ - ٢٠٢) . وانظر حكمة المخلوقات للامام الغزالي، في القديم ،=

ولعل القائل أخذ منه قوله :

وتزعم أنــك جرم صغير وفيــك انطوى العالم الأكبر

لطائف

* درجة حرارة الانسان العادية واحدة / ٣٦ ـ ٣٧ / سواء كان في المنطقة الاستوائية أو جزيرة صابر / سيبيريا / شتاء . ولو اختل ذلك فيه لما كان أهلا ليعيش في كل الأرض التي خلقت له وجعلت وطنه ـ وليس مثله الكثير من الحيوان .

* اذا راقب الانسان الدورة الدموية يجد أن الدم الذي يأتي به الوريد أزرق اللون ثم هو اذ يسكبه في القلب يراه قد خرج أحمر قانياً فكيف حصل هذا ؟ ان الهواء الداخل مع النفس قد تغلغل في الرئتين في حين ان الدم الأزرق قد تغلغل هو الآخر في ثنايا القلب ومن وراء هذا الجدار الرقيق ، وبسبب الألفة الكيماوية يجذب أكسجين الهواء ما بالدم من كربون وايدروجين ـ وهي تلك المواد العكرة ـ فيعود الدم صافياً ، ويأخذ لونه الأحمر النقي السابق [١] انه فعل العزيز الرحيم الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

٣ ـ الجان (الجن) :

والجن أرواح قائمة في أجسام لطيفة نارية قادرة على التشكل بصور مختلفة يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون ويموتون كما يموت الانس .

أصل مادة الجن (أبي الجن) هو اللهب المختلط بسواد النار ، قال الله تعالى (خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار) .

= ومثل الطب محراب للايمان ، وفي اعماق الانسان في الحديث ، تزدد بصيرة بما أودع الله تعالى في هذا الانسان .

(١) اومن بالله ولماذا ؟ للاستاذ علي هلال / ١ ـ ٣١ / .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال ((خـُلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار وخـُلق آدم مما وصف لكم)) . رواه مسلم .

* الجن لا يرون من البشر على صورهم الحقيقية لذا سموا جناً من الجن وهو الستر ومنه قوله تعالى (فلما جن عليه الليل) . ومنه تسمية الوليد في رحم أمه (جنيناً) لأنه مستور لا يـُرى ، قال تعالى (انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) .

* الجن طائفتان كالبشر منهم المؤمنون ويسمون الجن ، ومنهم الكافرون ويسمون الشياطين ، أما ابليس فهو الذي رفض منهم السجود لآدم عليه السلام فطرده الله تعالى من رحمته فأبلس أي يئس من رحمة الله تعالى .

وهم مكلفون كالبشر بالايمان والطاعات ، قال الله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وقد اجتمع بهم رسولنا محمد ﷺ أكثر من مرة وقرأ عليهم القرآن الكريم ودعاهم الى الاسلام فأجاب منهم دعوته من كتبت له السعادة ، وأصر على كفره من سبقت اليه الشقاوة ، نعوذ بالله منها ، قال الله تعالى (قل أوحي اليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به – وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قـُضي ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به) .

ومن كفر من الجن يسعى دائماً الى تضليل الانسان وصرفه عن الايمان بالله تعالى ليكون مثله من أهل النار ، قال الله تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) .

فحري بالمؤمن أن لا يجعل للشيطان عليه سبيلاً ، وذلك باقباله على الله تعالى ، بالطاعة والذكر والاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم ، وقراءة آيه الكرسي قبل النوم وقراءة المعوذات وكذا آيتي خواتيم سورة البقرة (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون) الى آخر السورة قبل النوم كذلك .

فيعود بذلك كيد الشيطان ضعيفاً ، يسعى بالوسوسة فقط ، ولا يكون له على المؤمن سلطان . قال الله تعالى (ان كيد الشيطان كان ضعيفاً — وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) .

* الشيطان يحول بين المؤمن وبين الانفاق في الخير ويحرصه على الانفاق في اللهو والشر ، قال الله تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) . وكم ينفق من يطيع الشيطان في اللهو والفساد واذا جاء من يدعوه للانفاق على فقير ، أو مساعدة قريب أو اغاثة ملهوف شكى الفقر وقلة ذات اليد ، وقال كالمستهزىء (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) .

* الشيطان يسعى الى الافساد بين المسلمين بما يزين من باطل المحرم في القمار والخمر وقبيح الغناء ومنكره على صور ذلك كله وأشكاله ، والله تعالى يقول (انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) .

* الشيطان هو الذي يوسوس في المؤمن الى سوء الظن بالمؤمنين وحمل أحوالهم الطيبة الحسنة على الرياء معاذ الله وانهم اذا خلوا الى شياطينهم فعلوا ما يخالف ظواهرهم الطيبة معاذ الله .

وقد خشي رسول الله ﷺ على المؤمنين سوء الظن به ﷺ وهو من هو في دينه وخلقه .

قالت صفية زوج النبي ﷺ (كان النبي ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً محدثة ثم قمت لأنقلب — أي لأرجع — فقام معي ليقلبني —وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد — فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال النبي ﷺ : على رسلكما انها صفية بنت حيي) ، فقالا سبحان الله ، فقال إن

الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم واني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً أوقال شيئاً) .

* وهو الذي يعد الانسان بالشر ويمنّيه حسن العاقبة على باطل الايمان وسيء العمل ، قال الله تعالى (أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً) هو القرين الذي ورد في مسلم يوسوس في صدر الانسان ويمكر به ويكيد عليه ، ولا ينجو منه الا المؤمن ، وقد وكل مثله برسول الله ﷺ الا أن الله تعالى أعانه عليه فأسلم . ذلك القرين من الجن هو الذي يستحضر في حفلات استحضار الأرواح بالبخور بالسلل أو الطاولات .. ليخبر عن أحوال قرينه الميت واخباره ودقائق ذلك ، ويزعم مستحضرو أولئك الجان أن الذين يحضرون هم أرواح الموتى .. وانى لهم ذلك فان الموتى ان كانوا مؤمنين فهم في عليين ، في بحبوحة النعيم وترفه — فضلاً من الله ونعمة ، وليست لهم عودة الى الأرض ، قال تعالى (كلا ان كتاب الأبرار لفي عليين) وان كانوا كافرين فهم في سجن ، يعرض عليهم عذابهم المنتظر وسوء المنقلب الذي سيضطرون اليه عدلاً من الله تعالى وأنى لهم العودة الى الأرض ، قال الله تعالى (كلا ان كتاب الفجار لفي سجين) [1] .

* والجن مخلوقات حقيقية كالبشر والحيوان ، فمن زعم أن الجن قوى الشر ... أو هي مكروبات .. أو نوازع الشر في الانسان ، من زعم ذلك فقد حرف القرآن الكريم وضل بتأويله ضلالاً بعيداً [2] .

ملاحظة : جل ما ذكرته في الجن وأحكامه رجعت فيه الى تفسير روح المعاني للآلوسي في تفسير سورة / الرحمن / ، والى بحث / حول عالم الجن) لفضيلة الشيخ عبدالله سراج الدين نفع الله به

---

(١) انظر (يسألونك عن الروح) وقد ألفه متبصر خدم كأمين سر في جمعية الاهرام لاستحضار الأرواح ثلاثين عاماً ، فبصره الله تعالى واناب وكتب هذا الكتاب .

(٢) وانظر الفكر الإسلامي المعاصر للاستاذ غازي التوبة .

٤ ـ الحيوان :

الخالق تعالى هو خالق ما ليس له منطق نفهمه من الاحياء ونسميه الحيوان لوجود الحياة والحركة فيه حيناً من الدهر ، قال الله تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ــ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ــ أفلا ينظرون الى الابل كيف خُلقت ــ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير) .

أمر الحيوان الذي لا يعقل ـ على تعبيرنا ـ أمر عجيب .. يدل بكل لسان على خالق له وملهم ، يتجه بالحيوان بالهامه ذلك الى أعاجيب الأمور والأحوال .

لقد كيّف الله تعالى كل حيوان لما خُلق له ، كيف الجمل لحياة الصحراء التي يقل فيها الماء والبقل ويكثر الشوك ويغطي أرضها ناعم الرمال . وكيف حيوان الركوب والحمل بالقوة على الحمل ويُسر راحة المحمول عليه بايطاء الظهر واقامته ، وذلك للركوب والحمل ـ ولو كان فيلاً عظيماً ـ فيركبه طفل صغير ضعيف .

ولولا أن الله تعالى جعل في الحيوان المهابة من الإنسان والتذلل له والسكون الى خدمته لما استطاع الانسان أن يستخدم الحمار القوي والفرس الشموس ، والثور المتين والجمل الحقود ، وكل واحد من هذه الحيوانات لا يقف في البأس والقوة أمامه العصبة من الرجال ، قال تعالى (وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) .

وكيّف الطيور بالأجنحة تقطع بها مئات الأميال والأنهار ، لا تغير جناحاً ولا تسعفه بدواء ، وأجنحة الطائرات تحتاج الى غيار وأدوات وقود وراحة وغير ذلك . ولا يسقط طير من السماء لعطل أصابه في طيرانه وتسقط طائرات

بين فترة وأخرى لعطل ظاهر أو خفي . قال الله تعالى (أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير) .

لقد جعل الله تعالى عظم الطائر مجوفاً خالياً من العصب ليبقى عظمه خفيفاً ، وبذلك يسهل عليه أن يطير ويطير .

ثم جعل للحيوان والطير ثوباً واحداً من صوف أو شعر أو وبر أوريش للصيف والشتاء لا يتقطع ، ولا ينشق ، ولا يبدل بسواه ، يعيش به الحيوان في راحة وغنى ، وهذا الانسان كم وكم يتعبه ويكلفه أمر ملابس الصيف والشتاء ! ..

وألهم الله تعالى بعد ذلك كل حيوان تمام ما خُلق له ، من حياة وطعام وعمل ، لذا تصدر عنه تصرفات مدهشة حقاً .. ولو أن العاقل يعلم أن ذلك بالهام العليم الحكيم وهو الله سبحانه لهيل من الدهش ، ولظن بعض الحيوان أعقل من الانسان .

قال الأستاذ رشدي العابري : في علم الحيوان طائر يسمى (صقر البحر) لا يحب البرد القارس ولا الحر اللافح ، ويميل الى الجو المعتدل ، والشتاء في المنطقة الشمالية يقابل الصيف في المنطقة الجنوبية ، فعندما يكون الشمال مهدداً بالشتاء يكون الجنوب متمتعاً بحرارة معتدلة ، وعندما يقبل الشتاء على الجنوب يكون الجو معتدلاً في الشمال ، فصقر البحر بهجرته من الشمال الى الجنوب ثم عودته الى موطنه يتمتع بالجو المعتدل الذي يوائم طبيعته في طرفي العالم ، ويقطع الطير في رحلته هذه مسافات شاسعة لا تقل عن اثني عشر الف ميل في الذهاب ومثلها في الاياب . ويكاد العقل ينكر قدرة هذا الطائر الصغير على اجتياز هذه الأبعاد العظيمة .

وهناك طائر آخر يسمى (خطاف البحر) أصغر من صقر البحر ، ولكنه أقوى منه على الطيران ، يسكن في المنطقة المتجمدة الشمالية يربي فيها صغاره ،

وعندما تحل ليالي الشتاء الطويل يعبر الكرة الأرضية على جناحيه ، ويصل الى المنطقة المتجمدة الجنوبية ليتمتع بصيفها ، ثم يدعوه الحنين الى موطنه فيهرول مسرعاً ، وهو يقطع في هذه الرحلة نحو عشرين الف ميل في الذهاب والاياب بسرعة تعجز عنها أقوى الطائرات التي ابتكرها عقل الانسان . ومن غريب أمر هذه الطيور أنها لا تحتاج الى مرشد يهديها الى السبيل في الطريق الذي تسلكه في الذهاب والاياب . فالغريزة وحدها دليلها الذي لا يخطىء وقائدها الحكيم الذي لا يغفل (أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير) اﻫ .

ولننظر الى ما بين أيدينا من الحيوان ! فهذا حيوان يأكل بسرعة عجيبة واذا ما نفد ما أمامه من طعامه ، أو أخذ من موضع طعامه الى اصطبله ، بدأ عملية الاجترار لما أخذه من طعام على عجلة فيهضمه جيداً ليصبح غذاء له نافعاً ...

وأنى مثل ذلك للإنسان !

وهذا حيوان يسقى ماءً بكثرة فيعب منه ويعب ، ثم يسير في الصحراء المحرقة وعلى رمالها اللافحة لا يحتاج في سيره ذلك الى ماء ولا مستنقع ، ان ما جمعه من المـــاء في شربته الأولى يكفيه لتلك الفترة كلها .. وأنى مثل ذلك للانسان ؟ !

أمر طعام الحيوان أمر عجب ، فمن الحيوان ما يدخر قوته من الصيف الى الشتاء في جسمه مثل العقرب والثعبان ، إنهما يبقيان طوال الشتاء ليس لهما طعام يأكلانه ، إن طعامهما شحمهما ، فهو الذي يذوب فيهما .. ان غذاءهما سلبي .. يذوب شحمهما قليلاً قليلاً ..

وهذه النملة تدخر قوتها من أيام الصيف الى الخريف .. حتى اذا جاء الشتاء البارد ركنت من كهفها في حفرة أو تحت التراب .. تتغذى من قوت الصيف حتى يعود الربيع من جديد .

ومن الحيوان ما يعرض نفسه للموت في سبيل قوته ! فهذه البعوض تلسع الانسان – الذي يستطيع بضربة كف أن يقتل مئات منها – وتتغذى بدمه بطريقة هي حقاً علامة تدل على الخالق المبدع سبحانه . تمتص أنثى البعوض دم الانسان بالطريقة التالية : تثقب الجسم ثم تضع في الثقب بعضاً من لعابها ليهيج الدم ويقترب منها فتأخذ حاجتها منه ، ومن فائدة ذلك اللعاب كذلك أن يبقى الدم سائلاً لا يجمده الهواء .

من ألهم البعوض وسائر الحيوان وسائل الحصول على القوت وحفظها ؟ !

انه الله رب العالمين (الذي قدر فهدى) .

هذه العنكبوت ! صاحبة الشبكة العجيبة التي تصنعها من خيوط حريرية تغزلها بنفسها بشكل هندسي متقن ، تستعملها للهبوط من مكان عال عال الى مكان نازل نازل ، ولتقطع حفرة حين تصل بين جانبي الحفرة بذلك الخيط الرقيق بتأثير الرياح على ذلك الخيط الرقيق الذي لا تكاد تبصره العين .

وهذا دود القز يضع خيوط الحرير الطبيعي من ورق التوت فيكون منه أقوى أنواع الخيوط .. ويأكل الحيوان ورق التوت فيبعر بعراً .. ويأكله الغزال فيعقد في ابطه نوافح أطيب أنواع المسك .

وفي الحيوان بأنواعه أجناس وأجناس ، وفي كل حيوان أسرار وأسرار ، لا يحيط بها الانسان العاقل المفكر تتألف النباتات والحيوانات من البروتوبلازم وبروتوبلازم الحيوانات والنباتات واحد تقريباً ، ولكنه ليس نفس الشيء تماماً وهذه الفروق أساسية وحيوية وإلا لما نمت بيضة الضفدعة فصارت ضفدعة ولما نمت بذرة البلوط فاستحالت شجرة بلوط ، وهذه الفروق مخفاة عنا ، ان من أبرز الحقائق في علم الحياة ان كل أنواع البروتوبلازم مهما كان مصدرها خافياً تبدو متشابهة الى حد كبير وتشبه بياض البيضة وفيه نقط دقيقة منتشرة [١] .

---

(١) العلم يزحف تأليف جيمس ستوكلي ترجمة الدكتور محمد الشحات .

فتبارك الله (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) .

٥ ــ النبات :

قال الله تعالى (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين [١] ــ ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج[٢] . ــ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) [٣] أمر النبات الذي لا يدرك الانسان سره عجيب عجيب مع أنه يعيش حيث يضعه الانسان من الأرض .

لو نظرنا الى حبة القمح لوجدناها حبة ميتة لا حياة فيها ولا روح ، أنى لها بالعود المرتفع السامق ، وأنى لها بالسنابل التي قد تصل الى سبعة وكل سنبلة مائة حبة على طعم الحبة الأولى ونفعها . تقع الحبة تلك تحت التراب فسرعان ما نرى الأمر على غير ما كنا نظن ــ نرى الجنين المستكن في حبة القمح يستيقظ بسبب رطوبة الأرض المسقاة ، وتهب فيه شعلة الحياة التي كانت هاجعة فيقوم هذا الجنين يطلب الغذاء ككل كائن حي آخر ، ولكنه لا يتعب كثيراً في البحث عن الغذاء لأن الغذاء قد وضع من حوله وهيء له ليجده حين يقوم ووضع له من النوع الذي يستطيع الاغتذاء به في حالة الطفولة التي هو عليها ، هذا الغذاء هو المادة البيضاء التي تملأ غلاف حبة القمح وتسمى الدقيق ، فإذا

---

(١) سورة الأنعام / ١٤٢ / .

(٢) سورة ق .

(٣) الأنعام / ١٠٠ / .

استنفذها ويكون ذلك بعد أسبوع أو نحوه يكون الجنين قد نما نوعاً ما وظهرت بوادر أوراقه واتجهت الى أعلا ، وامتد جذره الى أسفل باحثاً في باطن الأرض ، وليس في قولنا باحثاً شيء من المجاز ، فهو يبحث بحثاً حقيقياً لا شك فيه . ان الحبة اذا وضعت مقلوبة بحيث كان الجزر حين نموه يتجه الى أعلى بحكم الوضع ، فانه لا يلبث أن ينثني وينعطف ليكون اتجاهه الى الأرض التي يطلبها ، كأنه قد علم أنه كان أولاً يتجه اتجاهاً لا يؤدي الى الغاية فغير اتجاهه ليصل الى غايته ، وهكذا يتجه الجذر الى باطن الأرض حتماً وينغرس في مغرسه ليلتقط الغذاء اللازم له ، وتتجه كذلك الأجزاء العليا للنبتة الى وجه الأرض وتمتـــد في جو السماء الى المدى الذي قدر لنوعهـــا أن تمتد اليه ، ويستخلص من جو السماء معظم ما يلزم لها . وهي تشق طريقها الى الأرض القاسية والحجارة حتى تظهر على وجه الأرض ، ولو أن أحداً حاول أن يعيد ما ظهر منها على الأرض الى داخل الأرض لاستحال ذلك الا بحفر .. وقطع للورق أو قصف للنبتة ذاتها . وما أجمل قول الله تعالى في هذا المجال (فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا وفاكهة وابا متاعاً لكم ولأنعامكم) [1] .

ومن عجيب أمر هذا النبات — وهو أمر يعجز عن مثله البشر — أن أبسط أنواع النبات وأقلها شأناً يقدر على تحضير المركبات العضوية والغذائية المعقدة من الأملاح المعدنية البسيطة التي تمتصها التربة . ولنقرأ ما يقوله الأستاذ العابري : اذا لاحظنا ملاحظة دقيقة في دراستنا للنبات لاعتقدنا جازمين بأن العناية الالهية قد شملتها بما يقيها من الأخطار وقت الحاجة ، فمنها ما اذا اشتد الحر عليها تغطي ثغورها وفتحاتها بمادة شمعية تمتد عليها فتمنع الحر عنها ، وتبقى كذلك الى أن يعود فصل المطر ، ومنها ما تتغطى بقشور من (كربونات

---

(١) سورة عبس / ٢٥ — ٢٩ / انظر اومن بالله لماذا للاستاذ علي هلال / ١ — ٨٩ / .

الكالسيوم) تمنع عنها شدة الحر ، ومنها ما تحفظ الماء في بصلها ودرناتها المدفونة تحت الأرض كما تخزن الجمال الماء في مواضع خاصة من أجوافها لوقت الحاجة ، ومنها ما تكون ذات أغصان واسعة عريضة جداً إذا كانت في منطقة استوائية حيث الحرارة والتبخر شديدان وحيث المطر دائمي لكي تستطيع النبتة التخلص من المياه الكثيرة عن طريق الفتح ، ومنها ما ترسل جذورها عميقة في التربة اذا كانت في منطقة صحراوية شديدة الحرارة والجفاف لتستطيع أن تصل الى المياه الباطنية من الأرض لكي تعيش في الظروف الصحراوية كما تخزن هذه النباتات الصحراوية المياه في جذورها وسيقانها لوقت الحاجة كما بينا آنفاً . وهي تجعل أوراقها مدورة وصغيرة ذات سطح سميك ومدببة أحياناً وتأخذ الورقة وضعاً رأسياً بالنسبة لأشعة الشمس بدلاً من الوضع الأفقي لكيلا تتعرض للشمس كثيراً فيزداد التبخر منها كأشجار الكافور ...

ومنها ما تكون أوراقها خيطية إبرية وأشجارها على شكل مخروطي لوقايتها من البرد القارص في المناطق الباردة .

كل ذلك يدل دلالة قطعية على وجود خالق عظيم عليم خلق فسوى ثم قدر وهدى (وفي الأرض آيات للموقنين) [1] .

وجاء في كتاب / عجائب الخلق / يقدر وزن جرم الأكسجين الذي يمتصه الجسم البشري في السنة بـ / ١٦٠ / الف متر مكعب ، ويظنون أن الحيوانات الباقية تمتص أربعة أضعاف ذلك على الأقل ، ويخرج الانسان من جهة أخرى / ٢٥٠ / غراماً من الغاز حامض الكربون في اليوم فيها /٧٥/ غراماً من الكربون الصرف (الفحم) فبناء على ذلك لا يمضي وقت يسير حتى يتحول الهواء الى حامض الكربون السام ، وينقرض الحيوان على وجه الأرض ولكن العناية الالهية تلافت ذلك بتنفس النبات ، فالنبات يحتاج الى مقدار كبير من الكربون لغذائه وتقوية أعضائه، فيتناول حامض الكربون من الهواء وينخله فيأخذ منه

---

(١) آيات الخالق الكونية والنفسية ٣٢ .

الكربون لنفسه ويخرج الأكسجين الى الهواء ، فيتم التوازن . اه .

* زرع الزارع البصل منذ آلاف السنين وما يزال . وما تطور البصل الى توم أو كراث – براصيا – بله الى بطاطا وباذنجان ، فمن الذي حفظ للبذرة حقيقتها وأصلها وذاتيتها على آلاف السنين ؟ ! والنبات لا يدرك ولا يعقل ! لولا العناية الالهية ، ولولا ما جعل الله تعالى في النبات من ذاتية خاصة لا تختلط بغيرها لاختل الأمر وتبدل الأصل ، ولكن لا يكون ذلك .

* في البذرة خاصة عجيبة أنها تبقى سنين محفوظة في بيت لا حياة فيها في نظر الناس ولا تصلح لزراعة ، فتلقى في الأرض بأي بلد فتعطي مثل ما أعطت أختها من مئات السنين من الحب أو الثمار ، ومثل ما أعطت أختها في بلدة أخرى من هذه الأرض .

حقاً حقاً ! وفي كل شيء له آية .. تدل على أنه واحد .

٦ – المعادن :

قال الله تعالى (قل لمن الأرض ومن فيها قل لله – لله ملك السموات والأرض وما فيهن – وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) .

هذه الأشياء المخبأة في الأرض والتي تعد /٩٢/ عنصراً وقد يكشف العلم عناصر أخرى بعدها هذه المعادن من الذهب والفضة والبرونز والنحاس والقصدير والكروم وغيرها مما ينتفع بها الناس أليس أمرها عجباً أن الحديد الذي يُحصل عليه في أرض كذا وزمن كذا هو الذي يُحصل عليه في أرض أخرى وزمان آخر له قانون واحد في الذوبان وعمل مشابه في خدمة الانسان ! وقل مثله في الفضة وغيرها .

ثم ان لكل عنصر وزنه الجوهري مما يختلف عن وزنه في عنصر آخر ؛

فالوزن الجوهري للحديد غيره للنحاس غيره للذهب وهكذا ، ولكل عنصر ذاتية مستقلة ، وقانون خاص ، مما يدل حقاً على اللطيف الخبير الواحد الأحد سبحانه الذي نثر لعباده رزقهم هنا وهناك فوق الأرض وعلى الأرض وتحت الأرض وفي جوف الأرض وكلفهم أن يسعوا لرزقهم فان جميع ما في الأرض خُلق لهم وهي لخدمتهم .

قال الله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً — وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً فيه) . فما على الانسان الا أن يعرف مكان وجود الخيرات وقوانينها لكي يستعملها فيما ينفعه ، وما يطلب الله تعالى من عباده مقابل ذلك الا أن يعبدوه ويحمدوه سبحانه . قال رسول الله ﷺ (ان الله ليرضى من عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها) .

ليس بين الانسان والطبيعة المخلوقة مثله عداء ! ألا ان الله تعالى قد خلق الطبيعة لهذا الانسان ، فلا يقال اذا اكتشف الانسان جديداً في علم الفلك أو وصل الى القمر : انتصرنا على الطبيعة بل نقول وصلنا الى نعمة من نعم الله تعالى كنا عاجزين عن الوصول اليها من قبل ، ان فكرة العداء بين الانسان والاله ، بين الانسان والطبيعة فكرة سمجة ، ورثها الناس عن عباد الأوثان من اليونـــان .

كم كانت تكون حياة الانسان شاقة لولا مثل الحديد الذي يجعله في بناء بيته ، وفي بناء عربته ومعمله ، بل كيف كان يكون جهاد المؤمن لاعلاء كلمة الله تعالى وقطع دابر الفتنة في الأرض لولا المعادن .

كم كانت تكون حياة الانسان شاقةً وصعبة ، لو لم يكرمه الله تعالى بالمعدن السائل المسمى بالنفط يستعين به ويستدفىء ، ويحرك به الآلة ويسير المعمل ويدفع به الدبابة والطائرة والسفينة للجهاد في سبيل الله تعالى ونشر دعوة الاسلام في الأرض .

* ويقول العلم ان كل ما في هذا الوجود من مظاهر مادية ترجع جميعها الى أصل واحد هو الذرة . وما أدراك ما الذرة وما فيها من قوة جبارة قد خبرها قليل من الناس في بلدتي هيروشيما ونجازاكي من اليابان ، فكان حصادهما مائة الف قتيل .. وما لا يحصى من الأضرار ..

ولنقرأ معاً ما كتبه الأستاذ رشيد العابري في حقيقة الذرة قال : تتكون الذرة من جسم صغير أطلقوا عليه اسم النواة تسبح حوله جسيمات أصغر منه وأدق يكاد وزنها لا يُذكر ، فالذرة — كما بناها الخالق سبحانه : تشبه الشمس وما يدور في فلكها من توابع وسيارات ، وتتوزع الكهارب حول النواة في ترتيب بديع . وجل مادة الذرة متركز في النواة التي تحمل شحنة من الكهرباء الموجبة تعادل كل الشحنات السالبة فتتساوى جميع كهارب العناصر المختلفة . هذه هي الذرة الهباءة التي يتراوح قطرها بين جزء من مليون جزء وجزء من عشرة ملايين جزء من السنتيمتر والتي آلت آخر الأمر أن سخرها الانسان ففتحت له قلبها وكشفت له عن آية من آيات الإآه السرمدي عله يتذكر أو يخشى . كشفت له عن آثارها الخالدة من قوة كامنة وطاقة جبارة مختزنة فاستغلها ، فان القوة المكنونة في الذرات عظيمة لدرجة لا يتصورها العقل كما دلت على ذلك الكشوف والحسابات الأخيرة ، فان القوة المكنونة في غرام واحد من المادة مثلاً يعادل (٥١٠) مليون من الكيلوغرامتر — الكيلوغرامتر هو القوة الفعالة الكافية لرفع الكيلوغرام من الثقل الى متر — أي أن تلك القوة تعادل سبعة ملايين حصان بخاري — وكل حصان بخاري يعادل ٧٥ كيلوغرامتر — وقد حسب العلماء أن الذرة التي تستخرج من تحطيم غرام من ذرات المادة يمكنها أن ترفع ثلاثين مليوناً من الأطنان الى ارتفاع /٣٠٠/ متر وهذا يعادل تسع بليونات كيلوغرام أي ١٢٠ مليون من الحصن البخارية — وهذه القوة لا تصل اليها جميع البواخر والآلات البخارية الموجودة في الدنيا كلهـــا .

وهذه المقادير بالرغم من الاختلافات ليست فرضيات شخصية ، بل هي

مستندة الى تجارب وحسابات دقيقة . اذن فأصغر ذرة هي آية باهرة كالنظام الشمسي من آيات القدرة الالهية ، والحكمة السبحانية .

وكل ما في الكون من أصغر ذرة الى أكبر شمس ، شاهد عادل وبرهان ساطع على وجود الباري سبحانه (يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ــ ٥٩ ــ ٢٤ ــ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء) يونس ٦١ اهـ [1] .

---

(١) آيات الخالق الكونية والنفسية ــ / ٥٣ ــ ٥٤ / . وانظر / الظاهرة القرآنية / لمالك بن نبي في تقرير خالقية الله تعالى للمادة في فصل : المذهب المادي .

ثمرات الإيمان بالله تعالى

وبعد هذا العرض الوجيز لمخلوقات الله تعالى وذكر نماذج من تلك المخلوقات وجميعها تنطق بلسان العقل والواقع بوجود خالق حكيم هو الله سبحانه وتعالى ، نذكر صوراً من آثار الايمان بالله تعالى وثمراته .

١ — **الايمان بالله وحده** وعبادته سبحانه وحده دون سواه ، فما سوى الله تعالى مخلوق لله تعالى سماء كان أو أرضاً شمساً كان أو تراباً ملكاً كان أو انساناً ، كوكباً كان أو حجراً ، قال الله تعالى (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) . الأنعام /١٠٢/ . وعبادة ما سواه سبحانه شيء عدم ، قال الله تعالى (ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) .

ما سوى الله تعالى يجري على نظام وترتيب لا يختلُّ ولا يتخلف [1] ، وذلك دليل على منظم له ومدبر .

قال : بخز الملحد : لم يشاهد أبداً في أي مكان حتى في أبعد حدود الفضاء مما ندركه بالتلسكوب حالة شاذة عن النظام .

---

(١) واذا أراد سبحانه تغيير شيء في الكون كمعجزة لنبي او سوى ذلك ، فذلك له سبحانه ، لأنه يفعل ما يشاء ويختار .

وحين يتم هذا الايمان ويقوى حتى يملأ القلب ويشع على جوانب النفس ويملك على المؤمن شعوره ، فلا تكون ثمة عبادة لانسان أو طاعة له ، لا يكون فعل ولا ترك ، لا سير ولا سلوك ، بل لا اقدام ولا احجام ، ولا صمت وسكوت الا وفق أمر الله سبحانه ونهيه .

فان ما سوى الله تعالى لا يستحق الطاعة من الإنسان فانه مخلوق مثله ، الا أن يكون في أمر الله مثل طاعة الوالدين وأولي الأمر من المؤمنين ، والموجه الناصح والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر .

لقد تعاظم أبا جهل توحيد الله تعالى ، لأنه كان يقدر معنى كلمة التوحيد وآثارها ـ حين طلب منه في مواجهة رسول الله ﷺ في مجلس أبي طالب أن يقول (كلمة واحدة يدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم ، وقال وأبيك وعشر كلمات فقال رسول الله ﷺ (قولوا لا اله الا الله) فولى أبو جهل هارباً يجر ثوبه وأخذ معه جماعة وهو يقول : (اجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشيء عجاب ، وقد حكى الله تعالى ما كان من فعل أبي جهل وجماعته في قوله تعالى (وانطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا إلا اختلاق أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب) . واذا ذاقوا عذاب الآخرة علموا كذبهم وصدقه ﷺ ولكن أنى يفيدهم علم أو وندم ، وقد حق القول عليهم بالخلود في النار .

* هذا التوحيد يمتلىء به قلب المؤمن حتى أنه ليؤثر دوام بقاء نعمة الايمان على ملك الدنيا مع زوال الايمان ولو ساعة . لما أسلم حمزة عم رسول الله ﷺ قال له ﷺ : ما أحب أن لي ما أظلت الأرض وأنا على الكفر ساعة .

ساعة ايمان أغلى عنده من الدنيا وما فيها . فلذة الايمان لا تعدلها لذة الغنى ولذة مناجاة الله تعالى لا تدنو منها لذة عد الأموال واحصائها .

وقيمة الموت على الايمان لا توازيها فداء الدنيا ومثلها ذهباً عند الله مع الموت على الكفر .

* بل ان الايمان بالله تعالى ليدفع المؤمن الى بذل روحه رخيصة في سبيل الله تعالى ، حتى انه ليودّ أن لو كانت له أرواح بعدد شعر جسده ليبذلها في سبيل الله تعالى ، كما قال عبدالله بن حذافة السهمي في وجه أمير الروم !

* الايمان بالله تعالى يسمو بصاحبه حتى ما يبالي بأم تقتل نفسها على الكفر اذا لم يكفر ولدها بعد الايمان فيقول لها : لو كانت لك مائة نفس ثم خرجت واحدة واحدة ما تركت هذا الدين .

* الايمان بالله تعالى يجعل صاحبه لا يبالي بسلطان ظالم ، وبطشه ، أو إدبار دنيا أو نزول عذاب ولو كان باب الموت ، وما أصدق قول سحرة فرعون بعد ايمانهم بقليل له (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) .

* الايمان بالله تعالى يدفع صاحبه الى نبذ المُلك واغضاب الملك ، ولتكن العاقبة بعد ذلك الصلب حتى الموت كما كان من آسية المؤمنة امرأة فرعون ، قال الله تعالى (وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين) .

٢ – حب الله تعالى والخوف منه :

من آمن أن الله تعالى هو الذي خلق هذا الكون العظيم في نظام وحكمة ، وسخر هذا الكون للانسان بما فيه من سموات وأرض ورياح وأمطار ، وحيوان ونبات ورمل وتراب وان ليس غير الله تعالى يفعل شيئاً من ذلك ، يعظم حبه لله تعالى حتى يملك عليه عقله وقلبه ، غرائزه ورغباته ، خطراته

ولحظاته ، فلا يقارف معصية ولا يأتي ذنباً الا أن يسبقه الى ذلك جهل من سفاهة أو غضب أو نزوة فيذنب ، فيبادر الى التوبة كما قال تعالى (والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) . آل عمران /١٣٦/ .

وعلى قدر ما تعظم المحبة تزيد الطاعة وتربو ، ولقد كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق عبادة لله تعالى لأنه كان أعظم الخلق حباً لله تعالى .

وما أصدق قول القديم في مدعي حب الله تعالى لا تصاحبه طاعة :

تعصي الآلة وأنت تظهر حبه   هذا لعمري في القياس بديع
لـــو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيـــع

ومن اعتقد عظم قدرة الله تعالى وسلطانه الذي لا يُحد ، وانه لا راد لقضائه وحكمه من أحد ، يعظم خوفه من الله تعالى حتى يملك عليه عقله وقلبه ، غرائزه ورغباته ، فيقف عند حدود الله تعالى لا يتعداها ، ويتحرى مراضيه سبحانه لا يتجاوزها كما قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماءُ) . وإمّا أذنب لجهالة من سفاهة أو غضب أو نزوة فسرعان ما يبادر الى التوبة الصادقة النصوح ، وهذا الذي يقبل الله تعالى توبته فضلاً منه سبحانه ، قال تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً) . النساء .

وعلى قدر ما يعظم الخوف من الله تعالى والتهيب من عصيانه تكون الطاعة كذلك وقد كان رسول الله ﷺ أكثر الخلق خوفاً من الله تعالى وأعبد الخلق له سبحانه ، مع انه الصفوة في الخلق وحبيب الله رب العالمين .

* هذا الحب لله تعالى يجعل العبد يحب ما يحب لله تعالى ويبغض ما يبغض له سبحانه ولو كان الأهل والولد والمال والوطن ، يقاتل الولد والوالد ، والأخ والعم والخال ايثاراً لله تعالى وابتغاء مرضاته .

وهذا الحق يسمو بصاحبه الى أن يحب الشهادة في سبيله سبحانه حتّى ليقول حين يصاب مقتلاً : فزت ورب الكعبة .

* هذا الحق يجعل صاحبه خاضعاً مستكيناً الى أمر الله تعالى ونهيه ويحب لله ويبغض لله ويعطي لله ويمنع لله ، سبحانه .

وهذا الخوف من الله تعالى يدفع صاحبه الى أن يغذّ السير الى الله تعالى عقيدة وعبادة وسلوكاً وصدقة على وجل لأنه راجع الى الله تعالى في يوم لا ريب فيه .

* هذا الخوف من الله تعالى هو الذي يهيج المؤمن الى هجر الراحة وترك مهجع الليل ، ليصفّ قدميه في صلاة خاشعة لله رب العالمين ، ويدعوه سبحانه خوفاً وطمعاً .

* هذا الخوف من الله تعالى هو الذي يسمو بصاحبه على شهوات النفس ورغبات الجنس فيقول لذات المنصب والجمال تراوده عن نفسه (إني أخاف الله رب العالمين) .

* هذا الخوف من الله تعالى ، وهذا الحب لله تعالى وهذه بعض آثارهما .

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) . المائدة .

(لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا إن حزب الله هم المفلحون) . المجادلة .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ثلاث من كن

فيه وجد حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحبَّ اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه الا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار) . متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان) . رواه أبو داود .

وقال الله تعالى (وخافون ان كنتم مؤمنين – فلا تخشوا الناس واخشون – الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون – الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون) .

وقال رسول الله ﷺ (.. انا أخشاكم لله وأعبدكم له ..) ، وقال : (من خاف ادلج ومن ادلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا ان سلعة الله الجنة) . رواه الترمذي .

٣ – تعظيم قدر الله تعالى :

من خاف الله تعالى حق الخوف وأحبه حق المحبة عظم قدره سبحانه عنده ، في ذاته وصفاته وأفعاله وخَلْقه ، وانما يقدر الانسان ربه حق قدره بالعلم والمعرفة وذلك حاصل من تلاوة كتابه سبحانه وفهمه وتدبر آياته ومعرفة أحكامه وأغراضه ، وكذا النظر في حديث رسول الله ﷺ وفهمه وتدبر ألفاظه ومعرفة أحكامه واغراضه وغاياته ومراميه ، ثم إعمال النظر العلمي والبحث الفكري في مخلوقات الله تعالى ومعرفة ما اودع الله تعالى من الأسرار فيها .

ذلك هو طريق استشعار عظمة الله تعالى ، والتعرف على حقيقة قدره سبحانه . عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : أتى النبي ﷺ رجل من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم أبلغك ان الله عز وجل يحمل السموات على أصبع والأرض على أصبع والشجر على أصبع والثرى على أصبع والخلائق على

أصبع فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، فأنزل الله تعالى (ما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) . رواه البيهقي وقال رواه مسلم . وقد كان ضحك النبي ﷺ تعجباً من قول ذلك اليهودي وعبارته ، واليهود كالمشركين ما قدروا الله تعالى حق قدره أي ما عرفوه حق معرفته والا لما عبدوا معه سبحانه سواه او نسبوا إليه ما لا يليق به جل وعلا .

لا يتعاظم شيء عند المؤمن بأمر الله تعالى ونهيه ، ولو كان الخلق جميعاً ، ولا اعتبار لرأي يخالف حكم الله تعالى ولو كان رأي الناس جميعاً . انه لا يبالي الخلق جميعاً في الله سبحانه .

إن الله تعالى هو العظيم — ولا يعاظم أمره شيء من مال أو سلطان أو وظيفة وجاه .

قال الله تعالى (ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز — ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة — إنما امره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

وقد سبقت الاشارة إلى تعظيم قدر الله تعالى من خلال الحديث عن مخلوقاته وآياته فيها .

٤ — الاستقامة على ذلك :

نعني بالاستقامة الثبات ، والدوام على الايمان بالله تعالى وحده وعبادته وحده ، وطاعته سبحانه وتحري مراضيه ، ودوام ترك معاصيه والحذر من مساخطه سبحانه ، ودوام محبة الله تعالى والحرص على ذلك ، ودوام الخوف من الله تعالى والحذر من سخطه سبحانه في كل عمل وحال .

وما أحسن قول الأديب الرافعي في وصف المؤمن المستقيم على أخلاقه :

ليس كالمسلم في الخلق أحد ليس خلق اليوم بل خلق الأبد .

قال الله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون — ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون — فاستقم كما أمرت ومن تاب معك) .

سأل رجل رسول الله ﷺ قائلاً يا رسول الله قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك أو قال بعدك ؟ قال (قل آمنت بالله ثم استقم) . رواه مسلم .

* الاستقامة تقتضي الصبر على طاعة الله تعالى والدوام عليها دون انقطاع بدافع من كسل أو غرض ، وتعني الصبر عن معاصي الله تعالى دون انقطاع بدافع من هوى أو غرض ، والصبر على قضاء الله تعالى والرضا به على الدوام دون انقطاع بدافع من خوف أو جزع . الاستقامة هي التي تدفع المؤمن ليجعل همه في الحياة واحداً هو رضوان الله تعالى ثم الأمر عنده سيان رضي الناس عنه ام سخطوا .. فيكفيه الله تعالى هم الدنيا والآخرة ويجعل قلوب الصالحين تتجه إلى حبه .

لماذا يلحد بعض الناس في الايمان بالله تعالى ؟

ذكرنا نماذج من براهين قواطع دالة على وجود الله تعالى ووجوب الايمان به عقلاً وواقعاً كما ذكرنا من قبل كيف يتحقق الايمان بالله تعالى شرعاً .

والآن نتساءل لماذا يلحد قليل من الناس في وجود الله تعالى فينكر وجوده سبحانه ويظن الأمر هملاً ، لا يؤمن بالخالق سبحانه بل يؤمن بمخلوق لله تعالى من هوى أو مال أو سلطان أو فرد أو جماعة او مظهر من مظاهر الطبيعة وموجود من موجوداتها .

يلحد قليل من الناس لاسباب واهية لعلها لا تخرج عن الأسباب التالية :

١) العقيدة الوثنية والتربية الوثنية في الايمان بالله تعالى ، وهو الايمان الذي ربي عليه من ينسب لله تعالى صاحبة وولداً ، أو ربي عليه من يرى حلول الله تعالى في أفراد من خلقه ، أو اتحاده سبحانه مع أحد من خلقه . فاذا فكر أصحاب ذلك النوع من الايمان بعقولهم — رأوه إيماناً مخالفاً للعقل ومجانباً للمنطق ، بعيداً عن الفطرة والواقع ، فيدفعهم ذلك إلى إنكار وجود الله تعالى والالحاد في الايمان به سبحانه .

فالدافع إلى الالحاد في هذه الحالة هو غرابة ما كان عليه من الايمان وخطؤه في ميزان العقل والنظر والواقع ، ولو أنهم نظروا في الايمان الحق — الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام — القائم على توحيد الله تعالى ومخالفته للمخلوقات وقيامه بنفسه لما كان منهم ذلك ..

لذا نرى ان الالحاد أكثر ما يكون في المجتمعات المرباة على عقيدة محرفة في الله تعالى لا تقوم على برهان من عقل ولا أساس من نظر .

ومن هنا نرى كذلك ان الالحاد أقل ما يكون في المسلمين الذين عرفوا بعض قواعد الاسلام .

٢) الجو السياسي والمركز الوظيفي والتربية القائمة على أساس الالحاد في وجود الله سبحانه ، الايمان بالمادة أنها وجدت هكذا — ثم تذهب وأهلها هكذا .. ولا يحرك أصحاب هذه التربية أذهانهم إلى النظر إلى المادة التي لا تعقل كيف توجد عقلاء حكماء ؟ ! ان فاقد الشيء لا يعطيه .

وقديماً احرج ابراهيم عليه السلام قومه عباد الأصنام حين هدم عليهم الأصنام ، وقال ان كبيرهم هو الذي هدمها فقالوا بعضهم لبعض (إنكم أنتم الظالمون) أي لعبادتهم غير الله تعالى . وصرح ناطق الفطرة على لسان

خروشوف في مؤتمر صحفي أقسم فيه بالله تعالى .. فلما سئل كيف يقسم بالله ؟ قال انما هي العادة . بل هو ناطق فطرة الايمان المغروز في كل عقل ، ويا ويل المنحرفين .

٣) إيثار الهوى وارادة الاستمتاع بشهوات الحياة الدنيا دون منغص من أحكام الله تعالى ووصاياه واعلام بأن هذا حلال وهذا حرام . ولعمر الله ان كثيراً من الشباب اللاهي ليس الحاده الا من هذا النوع لذا تجده يذهب – أحياناً – في ومضة نور يقذفها الله تعالى في قلب أحدهم من كلمة صادقة أو حادثة عابرة أو رؤيا منذرة .. فيتنور قلبه ويهتدي ، فيحيا في اشراق الايمان وبحبوحة اليقين وكم كان سخيفاً ذلك الذي قال عن نفسه هو ملحد ، فلما أنكر عليه مخاطبه ذلك قال : والله العظيم انه ملحد ! . قاتل الله الهوى وعُبّاده ما أحقرهم .. وما اذلهم .

نون الهوان من الهوى مأخوذة   فصريع كل هوى صريع هوان

٤) مصالح دنيوية وامراض قلبية من حسد وحقد ، تحول بين صاحبها وبين الايمان بالله تعالى عن طريق انكار النبوة والرسالة مثلاً .

ذكر الامام البيهقي قصة اجتماع أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق ثلاث ليال متوالية لا يعلم أحدهم بمكان صاحبه ، كل يستمع إلى قراءته ﷺ القرآن في جوف الليل ، فاذا انتهى ﷺ من قراءته وعاد كل إلى داره جمع بينهم الطريق ، ولام كل غيره على حضور تلاوة القرآن الكريم ممن نزل عليه القرآن ثم بعد ثلاث تعاقدوا على ان لا يعودوا إلى مثل ذلك خشية فتنة الضعفاء فيهم ، فلما أصبح الأخنس في اليوم الرابع جاء ابا جهل فقال له : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال وما سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، واعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من

السماء ، فمتى ندرك هذه ! والله لا نسمع له أبداً ولا نصدقه .[1]

وقد كان اليهود ينتظرون مبعث النبي الأخير ليؤمنوا به ويقاتلوا به العرب . فلما جاء النبي الأخير عربياً ليس من اولاد يعقوب عليه السلام كفروا به حسداً وبغياً (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الظالمين) .

٥) العلم القليل والمعرفة الضحلة ، فاذا رآى شادي العلوم الطبيعية حبة القمح تلقى في الأرض فتصبح حبات كثيرة ، أو شاهد أن الحديد دائماً يصهر في درجة حرارة كذا ، ورأى ان من أصيب قلبه يموت .. فربما ظن ان تلك الأشياء وقوانينها وجدت هكذا وهكذا تسير بلا خالق ولا ضابط مع ان تفكيراً قليلاً في تلك الأمور ، ومعرفة موجهة فيها ، تدل على الخالق العظيم الذي جعل تلك القوانين وصنع تلك النظم ، فان الأرض أعجز من أن تنبت حبة القمح ، وكم في الأرض من حشرات ورطوبات ومياه وحجارة وهذه كلها قد تمنع نبات القمح ، والحديد أعجز من ان يضع لنفسه نظاماً وقانوناً وهو حديد لا عقل له ولا فكر ، بل الانسان اعجز من ان يقدر لنفسه او لغيره الحياة والموت .

وصدق القائل قليل من المعرفة قد تدفع إلى الالحاد ، لكن الاكثار منها يعيد إلى الايمان .. !

٦) وقد يكون من تلك الأسباب التقليد فيقلد الانسان عالماً كبيراً في الرياضيات مثلاً يكون كافراً بالله تعالى .. فيظن ذلك المقلد ان ذلك العالم عظيم حتى في قضايا الفكر والنظر ، مع انه قل ان يجتمع لاحد التفوق في كل شيء ، فيصح — وهو واقع كثيراً — ان يكون عالماً بالرياضيات جاهلاً بقضايا الفكر والنظر ، عالماً ببحوث الاقتصاد جاهلاً في مسائل الفلك .

ويقلد الانسان من سلف له من آباء وأقارب في الالحاد ، يظن بهم كل

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية / / ٣ — ٦٤ / .

خير ، وان لو كان الايمان بالله تعالى خيراً ما سبقهم إليه من دونهم .

وكم وكم في العلماء من عندهم مضحكات في الآراء ، ومبكيات في الفكر .. فقد كان منهم كثيرون يرون التوالد الذاتي في بعض الحيوان .. ويرى العلم اليوم غير ذلك — وهو الحق لان الخلق هو من الله تعالى لا خالق سواه ولا موجد غيره — ، وكان منهم كثيرون يقولون بالاثير . ويذكرون خصائصه ، ويرى العلم اليوم انه لا أثير ولا يحزنون . وقراءة مثل كتاب (قصة الايمان) للشيخ نديم الجسر تطلع على كثير من سخافات جماعات من العلماء الكبار من أمثالهم ..

وكم وكم في الآباء من مردوا على الالحاد دون فكر وروية ، وتبعهم ابناؤهم على ذلك لمثبطات من الشيطان ومرغبات من الهوى في القرار على ذلك .

وقديماً التقى خالد وعمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما في الطريق عند قدومهما على رسول الله ﷺ ليسلما ، فقال خالد لعمرو ما أخرك عن الاسلام إلى الآن ؟ فقال عمرو : كان لنا آباء نقول بقولهم حتى إذا ذهبوا نظرنا فاذا هذا الدين حق .

والقرآن الكريم يكرر كثيراً ترك تقليد الآباء في الكفر (أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون المائدة /١٠٤/ — واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون). البقرة /١٧٠ . (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى قالوا : إن أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين) ابراهيم /) .

٧) البيئة الملحدة من الأسرة أو الوسط في مدرسة أو مدرس أو رفقة أو قائد محبوب ، قال رسول الله ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) متفق عليه .

ولذا فقد يكبر المتربي في ذلك الوسط ليخرج عن طوق الأسرة أو ربقة المجتمع أو تبعية الفكر وقد يستمع لنداء الفطرة فيعود الى الايمان .

هذه ابنة ستالين / سفيتلانا / ولدت في بيت شيوعي ، أبوها ذلك الوحش — كما يصفه كاتب شيوعي يوغوسلافي من أحبابه — الذي قتل مئات الألوف من مخالفيه ، وأقام على حكم روسيا في شدة وبطش نحواً من ثلاثين عاماً ، وأمها يهودية — روزا — . ومع ذلك فقد آمنت سفتيلانا بالله تعالى ، ثم أعلنت ايمانها حين أمكنتها فرصة الخروج من بلادها : قالت : .. غير أني بعد أن شببت عن الطوق دخل في قلبي أنه يستحيل أن يعيش الانسان دون الشعور ولو في قلبه بوجود إله يحيي ويميت ويهيمن على كل شيء في الوجود ، ولقد توصلتُ الى هذه العقيدة بدون أي إرشاد أو عظة من أي شخص ، ولكن هذا في حد ذاته كان تغيراً عظيماً في فكري مما دفعني الى التقليل من أهمية المبادىء الشيوعية الملحدة ، ومن ثم فقدت هذه التعاليم قوتها في نفسي [1] .

٨) ولا يصح أن يعد من أسباب الالحاد عن قليل : ما يرون من الظلم الذي لا يجازى عليه صاحبه ، ومن الفساد والسرقة وانتهاك الأعراض ، وقتل الأبرياء وخداع الناس ثم لا يجازى عليها أصحابها وما يرى من دعاء الصالحين المظلومين على الكفار المفسدين وعدم استجابة أحد لدعائهم ، .

الحق أن هذا لا يعدّ من أسباب الالحاد لأنه : أ) الدنيا دار امتحان — كقاعة الاختبار — ولكل أجله ورزقه ، والحساب .. يكون في الدار الآخرة عادة ، وقد يكون شيء منه في هذه الدار .

ب — لأن المظلومين قد يكون منهم ذنوب وخطايا جاء الظلم عقاباً لهم وكفارة ، أو أن الله تعالى يستجيب لهم بما هو أنفع من الثواب في الآخرة .
ج — لأن الله تعالى حليم صبور ، يمهل للظالم لعله أن يتوب ، أو يمدُّ له في

---

(١) الرياض ١٥ — ٢ — ٣٨٧ هـ .

الحبل يستدرجه ليأخذه بعد ذلك أخذة لا يفلت منها أبداً بعد أن عمره ما عمره وذكره بما ذكره به .

٩) وأبعد تلك الأسباب أن يقول قائلهم انه لا يرى الله تعالى ولا يدركه بحواسه .. وما لا يدخل في دائرة الحواس فليس بموجود ولا يؤمن هو به ، ذلك لأن ذلك الملحد نفسه يؤمن بأشياء مما لا يدخل تحت ادراك حواسه هي ألصق به وأهم له مما يدخل تحت ادراك حواسه ! فالكرم والبخل والشجاعة والجبن ، والحب والبغض موجودات لا ينكر أحد وجودها ، من يقول ان الحواس تدركها ؟ !

الحياة والموت والكهرباء والجاذبية وسريان الروح في الجسد وخروجها منه ، موجودات لا ينكر أحد وجودها ، من يقول ان الحواس تدركها ؟

لا يجرؤ ملحد على انكار حقائق هذه الأشياء غير المدركة بالحواس .. ولا أمثالها بحال .

ومما يذكر كفاكهة في الموضوع : قصة ذلك الضابط الألباني الذي كان يلقن جنوده في تيرانا توجيهاً في الالحاد : قال لهم : هل ترون العمارة التي أمامكم ؟ قالوا نعم ، قال هل ترون المئذنة العالية أمامكم ؟ قالوا نعم .. وقال ثم قال ــ وبئس ما قال ــ هل ترون الله ؟ قالوا لا ــ قال لقد رأيتم العمارة والمئذنة لأنهما موجودتان ولم تروا الله ــ تعالى الله عما يشركون ــ لأن الله غير موجود . وكان بين الجنود جندي أقبل عليه ببلاهة مستمعاً منصتاً ، فدعاه الضابط لكي يقرر أمام الجنود ما فهمه من توجيه الضابط. فقال الجندي يخاطب الجنود ، أترون الضابط ؟ قالوا نعم ، قال أترون بنطاله ؟ قالوا نعم ، قال أترون سترته ؟ قالوا نعم ، قال أترون رأسه ؟ قالوا نعم ، ثم قال أترون عقل الضابط ؟ قالوا لا ــ فقال : قد رأيتم من الضابط ما رأيتم لأنه موجود ، ولم تروا عقله لأن الضابط لا عقل له [1] .

---

(١) هي حكاية .. بعيدة الوقوع .. لأن مخالفة الكبار هناك ترخص حرية وحياة أي انسان في المجتمع .

ملاحظة :

ذلك الذي يلحد في وجود الله تعالى ووجوب الايمان به سبحانه وطاعته ، انما يخرج بعقله على النظام الذي جعله الله تعالى لهذا الكون من أكبر حجرة إلى أصغر ذرة . فالشمس والقمر والنجوم والكواكب وهي تعدّ بالملايين لها نظامها ، في سيرها وجريانها ، لا تخرج عنه ولا يمكنها ذلك ، وقد قيل هذا في الحيوان والنبات (وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) بل قد مثل هذا في الانسان فان تأثره بالجوع وشعوره به — وتأثره بالشبع وشعوره به ، بالحر والبرد والجهد والراحة ، دقات قلبه وسير دمه ، عمل دماغه وشغل فكره ، كبره بعد طفولته ، كهولته بعد شبابه .. حياته وموته ، هذه وأمثالها يحيا فيها الانسان عبداً لله تعالى منقاداً لنظامه شاء أم أبى ، ولا يدفع الجوع الا بما جعل الله تعالى نظاماً من الشبع ، ولا التعب الا بالراحة .. فاذا كفر ذاك الانسان بعد هذا فانما يكفر فكره فقط بالدعوى والشقشقة .. أما الجسم والأعضاء ، أما الروح والعقل ، أما الحياة والموت فهي كسائر الموجودات خاضعة لله تعالى مستسلمة لأمره وارادته سبحانه لا تخالفه بحال .

حقاً ان الالحاد في وجود الله تعالى وفي وجوب الايمان به وعبادته ، ظلم وأي ظلم ! . ان الالحاد في وجود الله تعالى وفي وجوب الايمان به وعبادته ، **جهل** وأي جهل ، بل جنون دونه كل جنون !

افترى بعدُ من العجب أن تجد الملحد ينكر فضل الوالدين ويجحد برهما ، فهو قد أنكر واهب كل شيء وهو الله تعالى ومن هبته كان الوالدان ؟ !

أترى من العجب أن يكذب الملحد ويسرق ويغش ويخون في النفس والكلمة والكرامة والجماعة والأمة ، وهو قد تنكر لخالق السموات والأرض ، ومال عن فطرته وخرج عليها ؟ !

أترى من العجب أن يظلم الملحد ويقتل ويأتي كل فاحشة ، ولا يقدّر

أي معروف ولا يعرف أي جميل ، وهو الذي كفر بالله تعالى الذي وهب له الحياة وكل نعمة وما يزال يفعل الى حين ؟ !

لا ، لا عجب في الملحد أن يأتي كل قبيح فليس مثل الالحاد قبيح .

وقديماً قيل : ليس بعد الكفر ذنب ، لأن الكفر أعظم من كل ذنب .

سؤال وجوابه :

كيف يكفر عقلاء كبار ومفكرون عظام في عصرنا وفي كل عصر ولهم عقول وعلوم ومعارف ضخمة ؟

الجواب في القرآن الكريم آيات عديدة تدعو الانسان الى النظر في ملكوت الله تعالى وما خلق الله من شيء ، عسى أن يكون ذلك وسيلة الايمان والنجاة فالسعادة الحقة .

قال الله تعالى (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء — قل انظروا ماذا في السموات والأرض — قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين —) .

لكن النظر الذي يأمر القرآن الكريم به ليس نظر الباصرة فقط ، فذلك قدر مشترك بين الانسان والحيوان ، ان المطلوب هو نظر العقل والفكر الذي يُتوصل به من المصنوع الى الدلالة على الصانع ، ومن النظر في المخلوق الى الايمان بالخالق سبحانه .

* والناس في النظر والفكر أجناس ، فجنس نظره الى الكون وما فيه نظر مجرد بسيط كنظر الحيوان يرى النجوم وانتظامها .. يعرف الحكم العجيبة في عينه هو وقلبه ثم يُعرض — يغفل عن التفكير في عظمة الخالق وهو الله سبحانـــه .

* وجنس يغرق في دراسة العين مثلاً أو دراسة القلب ، ويقطع في ذلك

العمر ، لكنه لا يرفع بذلك العلم رأساً . فلا يستدل بالأسرار العظيمة التي تبدو له في دراساته ليصل الى الايمان بالله تعالى .

* والجنس الحميد هو الذي ينظر في الكون فيصل به الى النظر في الموجد ، ينظر في الانسان وأسراره فيصل بذلك الى الايمان بالخالق سبحانه ، ينظر في ملكوت السموات العديدة وما تحتها من شموس وأقمار ونجوم وكواكب تعد بالملايين فيصل بذلك الى الاستدلال على الخالق سبحانه ووجوب الايمان به وطاعته سبحانه .

قال الله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك الأنعام بل أهم أضل أولئك هم الغافلون — وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير —) .

وقال تعالى (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) .

فما كل نظر يؤدي الى الايمان .. وما كل فكر يؤدي الى اليقين .

ان النظر الذي يؤدي الى الايمان بالله تعالى هو النظر السليم الطالبُ الحق والرشد ، والفكير المستنير الطالبُ الهدى والنور .

أما المنحرفون عن الهدى ، أما المستكبرون عن الرشاد ، أما المغرورون بباطلهم ، أما أسرى الموروثات والتقاليد — فلا تفيدهم آية .. وكل آية .. والذنب ذنبهم لأنهم ما أرادوا الحق ولا طلبوه .. بل أصروا على كفرهم وآثروه .

ومن يلك ذا فم مُرٍّ مريض   يجد مُراً به العذب الزلالا .

الفصل الثاني

الإيمان بالملائكة

تمهيد :

خلق الله تعالى هذا الانسان محدوداً ، محدوداً في العمر والعيش ، مع أنه يطلب الخلود في الدنيا . محدود العقل والفكر مع أنه يود لو يعرف كل شيء .

محدود السمع والبصر مع أنه يود لو يسمع ويبصر كل شيء .

محدود القوة والشهوة مع أنه يود لو يقدر على كل شيء ويصل الى كل شيء .

وهذه أمور مسلمة لا شبهة فيها .. لدليل الواقع فضلاً عن الشرع والعقل .

هذا الانسان المحدود يسلم فيما يخرج عن حدوده لمن تجاوز ذلك منه . سواء كان في العمر أو العيش ، والعقل أو الفكر ، والسمع أو البصر ، أو القوة والشهـــوة .

فتراه مثلاً يسلم بوجود بلاد لم يرها حين يُخبر عن صادق أنه رآها ،

ومسموعات لم يسمعها حين يخبره صادق أنه سمعها ، وبمعقولات لم يستوعبها بعقله حين يخبره صادق بذلك وهكذا . بل اما ترى أحدنا يسلم بعقله وفكره وسمعه وبصره وقوته للطبيب الذي يخبره ان في كأس العسل الذي يريد أن يشربه سماً زعافاً قاتلاً ! إنه لا يرى السم ولا يجد ريحه .. ويأخذ بقول الطبيب المصدّق عنـــده .

كذلك وأكثر نقول في أمور الغيب التي لا تدرك بالحواس انا نصدق بها حين يكون المخبر بها صادقاً والخبر المنقول عنه صادقاً ثم لا نبالي بعد ذلك رأينا الملائكة – وما مثلهم من أمور الغيب – أم لا ، كما لا نبالي بتصديقنا بوجود مدينة بخارى ، رأيناها أم لم نرها ، وبوجود الروح والعقل مع انا لا نرى ذلك .

فلا تقل بعدُ لم نر الملائكة فكيف نؤمن بها ؟ فلقد ورد الخبر الصادق بذلك من الله تعالى ورسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، وكفى بذلك حجة .

ولا تقل كيف تنتقل الملائكة الى كل مكان ، فترافقنا لتكتب أعمالنا ، وتحضر صلوات مساجدنا فلقد ورد الخبر الصادق – بذلك ، وكفى به من حجة .. وكم وكم من المرئيات لا نراها لأن أبصارنا لا تبصر الشيء اللطيف اللطيف ! . ألا ترى الانسان لا يبصر الهواء ولا يبصر الجاذبية والرياح ويؤمن بها.

لا تقل في أمر غيبي انه بعيد محال.. بل انظر اذا جاء صحيح النقل ونقله ثقة مأمون، قل أنا محدود... وهذا الأمر فوق حدودي ، فعلي التسليم لله تعالى البريء من الحدود والقيود . والتصديق الحق بذلك الخبر ، وكفى بخبر الشارع حجة .

الايمان بالملائكة عليهم السلام :

الإيمان بالملائكة هو التصديق الجازم والاعتقاد القاطع بوجود الملائكة لما أخبر الله تعالى بذلك في القرآن الكريم المتواتر لفظاً ودلالة ، وأخبر بذلك النبي

ﷺ في أحاديث عديدة رواها أصحاب الصحاح والسنن . قال الله تعالى (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً) .

وورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : لما رجع سول الله ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام فقال : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه – أي نحن الملائكة لم نضع السلاح – اخرج اليهم ، فقال ﷺ الى أين ؟ فقال وأشار الى بني قريظة فخرج اليهم النبي ﷺ) .

والملائكة أرواح قائمة في أجسام نورانية ، وهي قادرة على التمثل بأمثال كريمة مختلفة باذن الله تعالى ، لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون ، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة ، حياتهم عبادة الله تعالى وطاعته وتسبيحه والتزام تنفيذ أوامر الله تعالى وأحكامه ، وليس لهم نفوس تحدثهم بالكفر أو العصيان . عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنهـــا قالت قال رسول الله ﷺ (خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم) . رواه مسلم .

ولقد كان مشركو قريش – يزعمون أن الملائكة بنات الله تعالى ، وان بعضاً من الجن تزوج ببعض من الملائكة ، فكذبهم الله تعالى كما قال سبحانه (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، لقد علمت الجنة إنهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون) .

وكذبهم في زعمهم – وهو زعم موافق لما عند بعض أهل الكتاب – أن الملائكة بنات فقال سبحانه (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم من علم إن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى – وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) .

لذا قرر علماء التوحيد أن من نسب الملائكة الى الأنوثة كفر لأنه كذب صريح القرآن ومن نسبهم الى الذكورة فسق لأنه نسب اليهم ما لم يأت به عن الله تعالى ورسوله ﷺ شيء .

وعلى هذا يقال من اعتقد في صور البنات والنساء الجميلات على أطرافها أجنحة : والتي تباع في الأسواق ويتبادل بها بعض المسلمين التهاني في الأفراح والعيدين — انها تشبه صور الملائكة كفر لظاهر نسبة الملائكة الى الأنوثة .

ومن اعتقد في صوت المرأة أنه ملائكي ، أو في صورة الممرضة أنها صورة ملاك الرحمة كفر كذلك لما ذكرنا (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

* ورد في القرآن الكريم وفي السنة الشريفة ما يدل على تمثل الملائكة الكرام عليهم السلام بالصور الكريمة . قال الله تعالى في شأن جبريل عليه السلام وتمثله في صورة إنسي لمريم رضي الله تعالى عنها حين نفخ في جيب صدر ثوبها وبشرها بعيسي عليه السلام (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) تشير رضي الله عنها الى أن المؤمن يخوف بالله تعالى فيخاف ، أما الكافر والفاسق فيخوف بالقوة والسلطان لأنه لا يخاف الله تعالى .

وثبت في حديث الايمان والاسلام والاحسان — وهو في الصحاح — أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر .

كما ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة ما يدل على صفاتهم وأعمالهم عليهم السلام وهي كثيرة منها انهم يعبدون الله تعالى ويذكرونه ، قال تعالى (له من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفتُرُون) ..

* يصلون ويصفون في صلاتهم ، وهكذا يفعل المسلمون ، قال الله تعالى

(وانا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون) .

* يخافون الله تعالى ويطيعون أوامره ، قال تعالى (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) . لا يُقْدمون على قول أو فعل حتى يكون الله تعالى هو الذي يأذن لهم بذلك ، قال تعالى (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) .

* يشفعون للمؤمنين في الآخرة شفاعة مقبولة باذن الله تعالى ، قال تعالى (ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) . وهو سبحانه راض عن المؤمنين .

* يدعون للمؤمنين بأن يغفر الله تعالى ذنوبهم ويقيهم الخطايا والسيئات، ويدخلهم الجنة مع أهليهم ، قال الله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك الفوز العظيم). غـــافر .

* يشهدون لله تعالى بالوحدانية وانه لا زوجة له سبحانه ولا ولد ، قال الله تعالى (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم) .

عدد الملائكة وليس يعلم أعداد الملائكة الا الله تعالى ، ومن قد علمه الله تعالى من الملائكة الكرام ، قال الله تعالى (وما يعلم جنود ربك الا هو وما هي الا ذكرى للبشر) .

وجنود الله تعالى ملائكة وغير ملائكة مثل الريح والماء .

وذكر الشيخ عبدالله سراج الدين في كتابه (الايمان بالملائكة) — الذي لم يجمع أنواع مثل ما فيه في كتاب فيما أعلم — أنواعاً من أعمال الملائكة تدل

– مع ما ذكرنا من وظائف الملائكة – على حكمة الله تعالى في خلق الملائكة .

١ – فمنهم الموكلون بقضايا الانسان التكوينية من تطوير النطفة في الأرحام ثم تصويرها ثم نفخ الروح في الجنين وكتابة أعماله التي سيعملها حتى موته .

ومنهم المعقبات الحفظة ، قال تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) أي يحفظونه لأمره سبحانه .

ومنهم الكرام الكاتبون ، ومنهم ملائكة موكلون بحضور مجالس العبادات والطاعات على اختلاف أنواعها .

ومنهم الموكلون برفع الأعمال الصالحة الى رب العزة سبحانه وتعالى عن مشابهة أحد من خلقه ، ومنهم الموكلون بسؤال القبر . ومنهم الموكلون ببشارات المؤمنين في كل عالم ينتقلون اليه .

ومنهم الموكلون بالتدابير الكونية باذن الله تعالى وأمره وتنفيذاً لمقتضى تدبيره . وذلك أن تدبير العوالم كلها العلوية والسفلية والشهودية والغيبية كل ذلك بتدبير الله تعالى العليم الحكيم المدبر له التدبير الذاتي المطلق .

* ومنهم الموكلون بحضور الجماعات يتعاقبون عليها في صلاتي الفجر والعصر ليشهدوا لمن يحضر هاتين الصلاتين خاصة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة النهار وصلاة العصر فيجتمعون في صلاة الفجر فتصعد ملائكة الليل وتثبت ملائكة النهار ، فيسألهم ربهم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون فاغفر لهم يوم الدين) . متفق عليه .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (إن العبد إذا جلس في مصلاه بعد الصلاة صلت عليه الملائكة وصلاتهم عليه اللهم اغفر له اللهم ارحمه ، وان جلس ينتظر الصلاة صلت عليه الملائكة وصلاتهم عليه اللهم اغفر له اللهم ارحمه) أخرجه الامام أحمد .

* ومنهم مَن تحف بأجنحتها طالب العلم وتظلله لرضاها بعلمه الذي يرفع به الجهل عن نفسه ويتعلم أحكام دينه ابتغاء مرضاة الله تعالى وفضله . عن صفوان بن عسال المرادي رضي الله تعالى عنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد متكىء على بُرد له أحمر ــ خطوطه محمرة ــ فقلت له يا رسول الله اني جئت أطلب العلم ، فقال (مرحباً بطالب العلم ان طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب) رواه أحمد والطبراني باسناد جيد واللفظ له ..

ومنهم من يرافق العبد المؤمن في دروب حياته ومسارب عيشه ، يخطر له البر والخيرات . مقابل ما يُخْطر له الشيطان من المعاصي والمنكرات . عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ان للشيطان لَمّةً يا ابن آدم وللملك لَمّةً فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد من ذلك فليعلم أنه من الله تعالى ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ، ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً) . رواه الترمذي وقال حسن غريب .

ورؤساء الملائكة الكرام أربعة هم : جبريل عليه السلام ، ميكائيل عليه السلام اسرافيل عليه السلام وملك الموت عليه السلام .

وهاك بعض وظائفهم عليهم السلام .

١ ــ جبريل عليه السلام :

وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بأنه الروح في قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر) . وبأنه الروح الأمين في قوله تعالى (نزل به الروح الأمين) .. وبأنه روح القدس في قوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) أي أيد الله تعالى عيسى بجبريل عليهما السلام .

ووظيفته العظمى عليه السلام أنه واسطة بين الله تعالى ورسله ، وهو الذي نزل بالوحي وسائر الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم . قال تعالى (نزل به الروح على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) .

ومن وظائفه عليه السلام تأييد الله تعالى به وبملائكة آخرين رسله من البشر عليهم الصلاة والسلام . قال تعالى (فان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) .

ومن وظائفه أن يأخذ بعقوبات الله تعالى مكذبي الرسل ومعانديهم ، فهو الذي صاح بثمود قوم صالح صيحة صُعقوا بها ، قال تعالى (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) أي ساقطين على وجوههم لاصقين بالتراب موتى .

وهو الذي كان على رأس الملائكة الذين قاتلوا مع المسلمين يوم بدر الكبرى ، فهو الذي يحببه الله تعالى المؤمنين ويبغّضُه الكافرين . عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال (ان الله تعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل فقال يا جبريل اني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في أهل السماء ان الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وان الله اذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال يا جبريل اني أبغض فلاناً فأبغضه فيبغضه أهل السماء ثم يوضع له البغضاء في الأرض) . رواه أحمد . ومن هنا ترى لماذا يبغض اليهود المغضوب عليهم جبريل عليه السلام ، وينسب اليه بعض أهل الضلال الخطأ في تبليغ الوحي معاذ الله تعالى .

ب — ميكائيل عليه السلام : هو أحد وزيري رسول الله ﷺ من أهل السماء ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ انه قال (ان لي وزيرين من أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض فوزيراي من أهل السماء جبريل وميكائيل ووزير اي من أهـل الأرض أبو بكر وعمر) رواه الترمذي والحاكم وقال الترمذي حسن غريب وصححه الحاكم .

ووظيفته العظمى عليه السلام القيام على النبات والمطر ، ينزله باذن الله حيث أمر الله تعالى وبمقدار ما أمر الله تعالى به . عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان النبي ﷺ قال من حديث طويل (قلت يا جبريل على أي شيء أنت ؟ — على أي شيء ولاك الله تعالى في جملة ما أمرك به — قال على الرياح والجنود . قلت على أي شيء ميكائيل ؟ قال على النبات والقطر) ذكره السيوطي في تفسيره الدر المنثور وقال : حديث حسن ، أي لغيره لاعتضاده بشواهد متعددة — .

وقد نزل مع جبريل عليه السلام يقاتلان إلى جانب رسول الله ﷺ يوم أحد . عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : (رأيت على يمين رسول الله ﷺ وعلى شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان كأشدّ ما ما يكون القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد) يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام . متفق عليه وانظر تاريخ ابن كثير / ٤ — ٢٧/ .

ج — **اسرافيل عليه السلام :** هو ملك عظيم الخشية لله تعالى ، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (ان الله خلق اسرافيل منذ يوم خلقه صافا قدميه لا يرفع بصره — أي من خشية الله تعالى — بينه وبين الرب تبارك وتعالى سبعون نوراً ما منها نور يدنو منه إلا احترق) قال في مشكاة المصابيح رواه الترمذي وصححه .

وهو الذي جاء رسول الله ﷺ بمقاليد الدنيا ومفاتيح خزائن الأرض ، يعرض على رسول الله ان يسير معه جبال تهامة زمرداً وياقوتا وذهبا وفضة ، فاختار ﷺ — ولنعم ما اختار فداه أمي وأبي ﷺ — أن يكون عبدا نبيا يجوع يوما فيصبر ويشبع يوما فيحمد الله تعالى .

وهو الذي يدعو الخلائق يوم القيامة بأمر الله تعالى فيخرجون من قبورهم ، قال تعالى (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون) .

وهو الذي ينادي الخلائق يوم القيامة ، قال تعالى (واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب) وهو الذي ينفخ في الصور – القرن – النفخة الاولى ليموت الخلق جميعا – الا ما شاء الله تعالى من الملائكة والحور العين – والأخرى ليبعث الموتى جميعا باذن الله تعالى ، قال الله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض الا ما شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) . الزمر .

و – **ملك الموت :** هو الملك الموكل بقبض أرواح من اذن الله تعالى بخروج روحه وذهاب حياته من الخلق جميعا إنسا وجنا ، وحيوانا وحشرة .

روي عن جابر بن زيد قال : ان ملك الموت كان يقبض الارواح بغير وجع فسبّه الناس فشكا إلى ربه فوضع الله تعالى الاوجاع ونُسي ملك الموت ، يقال مات فلان بوجع كذا وكذا . رواه أحمد المروزي وابن أبي الدنيا وابو الشيخ عن جابر المذكور . والله أعلم بصحته .

وللملك الموت في قبض الارواح معاونون من الملائكة ، قال تعالى (حتّى اذا جاء أحدهم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يفرطون) .

وقد جمع الله الخلائق كلها بين يديه يقبض أرواح الملايين في لحظة واحدة ، سئل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن نفسين اتفق موتهما في طرفة عين واحد بالمشرق وآخر بالمغرب كيف قدرة ملك الموت عليهما ؟ فقال ما قدرة ملك الموت على أهل المشارق والمغارب والظلمات والهواء والبحور الا كرجل بين يديه مائدة يتناول من أيها شاء [1] .

وقد ذكر المحدث الشيخ عبد الله الصديق الغماري في كتابه النافع النادر / الحجج والبينات في إثبات الكرامات / ان تسمية ملك الموت / عزرائيل / لم يرد في حديث مرفوع ، لكنه نقل عن أشعث بن سليم [2] .

---

(١) انظر شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للسيوطي رحمه الله تعالى ص ١٩ .
(٢) انظر ص ١٥٤ تعليقاً .

ملاحظة : (جل هذا البحث مأخوذ من مواضع وبتصرف من / الايمان بالملائكة) للشيخ عبد الله سراج الدين حفظه الله تعالى .

أثر الايمان بالملائكة :

ما أعظم كرامة المؤمن على الله تعالى وما أعظم لطف الله به ، فقد سخر الله الملائكة العظام لصالح أمره ، وجعل منهم ملائكة ينزلون بالوحي والهدى من الله تعالى لصالح أمر المؤمن كي يحيا على هدى من الله تعالى ونور .

جعل منهم ملائكة ترافق المؤمن تعده بالخير اذا أطاع الله تعالى وتصدقه أن أمر الله خير وثوابه حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور ، وسيلقى الجزاء الاوفى من مولاه الكريم .

وجعل منهم ملائكة يحضرون المؤمن عند احتضاره يبشرونه باقباله على رب كريم يقبل الحسنة ويضاعفها ويتجاوز عن السيئة ويمحوها ، وما يزالون معه حتى يُرى مقعده من الجنة ، فاذا دخل الجنة جاءه الملائكة مهنئين مبشرين بفضل الله تعالى واكرامه . قال الله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم — والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) .

ان انسانا يعلم هذا في حق الملائكة ليجد في قلبه دوافع تدفعه إلى الاستقامة على طاعة الله تعالى والمبادرة إلى طلب مرضاته على كل حال . لما يرى من انعام الله عليه .

وانه ليجد في نفسه خجلا وتمنعا عن معصية الله تعالى لما يرى من حضور الملائكة معه وعلمهم بأعماله وكتابه وذلك في صحيفة يقرؤها يوم القيامة .

انه ليقوى ايمانه بالله تعالى لما يبدو له من أشياء وأشياء تدل على عظمة الله تعالى في خلق جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة وجعله اياهم واسطة بينه وبين خلقه .

وانه لينشط إلى العبادة والطاعة لما يرى ان الملائكة ذوي القوة والعظمة يسبحون الله الليل والنهار لا يفتُرون . وانه ليعيش على طاعة الله تعالى دائما لا يسبق حكم الله تعالى بهوى أو غرض ولا متابعة للضالين ايثاراً للعاجلة على الآجلة ، فان الملائكة لا يسبقونه سبحانه بالقول وهم بأمره يعملون .

وانه ليحب الملائكة الكرام ويعرف فضلهم ويعتقد أنهم عباد الله المكرمون . وخاصة جبريل عليه السلام الذي يحب المؤمنين بحب الله تعالى ويدعو الملائكة الكرام إلى حبهم كذلك .

الفصل الثالث

الإيمان بالكتب المنزلة

قضت حكمة الله تعالى ان يكرم الانسان بالعقل ويزينه به ، ويجعله به أهلا لادراك الكثير من مصالح العيش وحكم الله تعالى في الايجاد والعطاء ، ويستزيد يوما فيوما في التعرف على حكم الله تعالى والانتفاع بنعمه سبحانه في الأرض .

لكن العقل محدود ... وادراكه كذلك محدود ، كما أن سمعه وبصره وقدرته وعمره محدود . وما كان لمن يبلغ طول مدّ بصره كذا أن يبصر ما بعد ذلك ، وما كان لمن يبلغ ادراك عقله كذا أن يتجاوز مقدار ذلك . ولا يعاب البصر ان لا يبصر فوق طاقته ، ولا العقل أن لا يدرك ما وراء حدوده ، لكن يعاب أن لا يسلم بما وراء حدوده . او أن يدعي ان ما وراء حدوده كالذي بين يديه يحكم لهما حكما واحدا ، ويزنهما بميزان واحد دون حجة وبرهان سوى الدعوى والتبجح .

وفوق ذلك فان العقل تشوبه الأهواء وتلعب به الاغراض وتتغلب عليه

الشهوات ، قد يطفىء نوره اغراض وتنحرف به مصالح ... وهو يحسب انه يحسن صنعا وانه لا يأتي أمراً مخالفا إدّا .

لذا فقد أنزل الله تعالى كتبا وصحفا على المصطفين من رسله ، وتلك الكتب والصحف عبارة عن أحكام الله تعالى ووصاياه وأوامره ونواهيه ، ومواعظه وارشاداته إلى العباد ، يعقلونها بعقولهم ويفهمونها بقلوبهم ، بها تتحرر العقول من الاهواء والشهوات والبدع والضلالات ، وتعلم ما لم تكن تعلم ، وتقوى هذه العقول حتى تنتصر على المصالح القريبة والاغراض الدنيئة .

ولقد أنعم الله تعالى بالهدى على الانسان الأول آدم عليه السلام من حين أهبطه إلى الأرض ليعمرها ويقوم بأمر الله تعالى وطاعته بها . قال الله تعالى فيما خاطب آدم عليه السلام : (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

فاذا زاغ بالانسان هدى ، او مال به عن الحق ضلال ، أو تغلبت عليه شهوة ، أو طمس فكره غرض دنيء او جهل شيئا ما يجب أن يعرفه لله تعالى ، او استبدّ به ميل في أمر من أمور الغيب وأحوال القيامة هرع إلى كتاب الله تعالى فاذا هو على الجادة ، واذا هو يسير على نور من الله تعالى وهداية .

قضت حكمة الله تعالى وارادته أن ينزل صحفا — وهي كتب قليلة الصفحات — إلى بعض من أرسله فأنزل على ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، (من تلك الصحف) وأنزل على موسى صحفا قبل أن ينزل عليه التوراة .

وقضت حكمته سبحانه أن ينزل كتبا أربعة على أربعة من رسله عليهم الصلاة والسلام .

فأنزل التوراة على موسى عليه السلام ، وأنزل الزبور على داود عليه السلام ، وأنزل الانجيل على عيسى عليه السلام ، وأنزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام .

قال الله تعالى (ان هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى — قل من أنزل التوراة الذي جاء به موسى — ولقد آتينا موسى الكتاب . — وآتينا داود زبورا — وآتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها — تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا .— وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب) .

وقضت حكمة الله تعالى أن تكون تلك الصحف والكتب لاجيال معينة ومن أقوام معينة في أوطان معينة ، لذا وكل أمر حفظ تلك الكتب والصحف إلى الذين استحفظوها من البشر فما رعوها حق رعايتها واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، فبدلوا الآيات وحرفوا الكلم عن مواضعه وحذفوا منها ما حذفوا ...

قال الله تعالى (انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . المائدة .

أما القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى لكل الأجيال من كل الأمم والأوطان إلى يوم القيامة . فقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن يتولى حفظه بنفسه ، لان وظيفة هذا الكتاب لا تنتهي الا بنهاية حياة البشر على الأرض ، فقال الله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) . فلقد أكد الله تعالى تنزيله القرآن بتوكيدات ثلاث — انّ وضمير الفصل والجملة الاسمية — وكذا أكد

حفظه للقرآن من التبديل والتضييع بتوكيدات ثلاث كذلك ـ ان ـ والجملة الاسمية ولام التوكيد المزحلقة ـ .

ولقد أثبت الله تعالى في القرآن الكريم أصول ما في الكتب والصحف السابقة من تقرير توحيد الله تعالى والايمان باليوم الآخر وطاعة الرسول فيما يأمرهم به ، والقيام بعبادة الله تعالى في الصلاة والزكاة والصيام والحج ومكارم الأخلاق من الصدق والعدل ، وأصول الحلال والحرام من البيع ، وأداء الحقوق لاصحابها وتحريم الربا والميسر والخمر والخنزير ، كما نقل أموراً مما أخفاها أهل الكتب أو بدلوها يدفع بذلك كل شبهة ويدحض كل حجة ، قال الله تعالى (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) أي رقيباً (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به اللهُ من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال الله تعالى لئلا يعتذروا فيزعموا ان الله ما أرسل اليهم رسولاً (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاء من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير) .

قال الله تعالى (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) .

من أركان الايمان ان نؤمن بصحف ابراهيم وموسى والتوراة والزبور والانجيل والقرآن لورود ذكرها في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ثم إنا نعتقد أن ما أكده القرآن الكريم مما في تلك الصحف والكتب، واكدته السنة الصحيحة من أخبار تلك الكتب والصحف ورسلها، هو الحق الذي أنزله الله تعالى ولا نزيد، وما ورد فيها مما يخالف ما في القرآن والسنة فذلك باطل لا شك فيه، وما سوى ذلك فلا نصدق به ولا نكذب كيلا نخبط في الآراء دون دليل ونسلك في دروب الظن دون مصباح، ونهجم على ما لم نؤمر به من الله تعالى دون حاجة، على حد قول القائل في علي عبد الرزاق الذي زعم ان الاسلام دين فقط لا نظام له ولا دولة، وتجاهل عيش المسلمين بالاسلام وحكمهم به في كثير من الأمور لأكثر من مائتي سنة.

يـــا علياً كـــن عليـــاً وتجنـــب كـــل غي
واتـــرك ما في كتـــابك فكتـــاب الله يكفِ

القرآن الكريم :

هو كتاب الله تعالى الذي أنزله على قلب رسوله ﷺ وأذنه بواسطة أمين الوحي ورسول الله إلى الرسل جبريل عليه وعليهم الصلاة والسلام، والمجموع بين دفتي المصحف والمنقول الينا تواتراً بالعدد الكثير عن العدد الكثير إلى رسول الله ﷺ على طريقة يستحيل فيها الاتفاق على الكذب، والمبدوء بالحمد لله رب العالمين والمختوم بقوله تعالى (من الجنة والناس) تحدى الله تعالى به الانس والجن، بل تحدى بسورة منه فصحاء الناس وعلماءهم في كل زمان ومكان، ودعاهم إلى الاجتماع على معارضة سورة فعجزوا، وما يزال التحدي قائماً وعجز الخلق عن قبول التحدي مستمراً اليوم وإلى يوم القيامة قال الله تعالى (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة).

هو الكتاب الذي لم تكد تسمع به طائفة من الجن حتى (قالوا انا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً .) هو الكتاب الذي يخرج الله من اتبعه من كل فتنة وينجيه من كل ظلمة ويقوده إلى الجنة (فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله وراء ظهره ساقه إلى النار ، هو الكتاب الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تشبع من ترداده الألسن ولا تملُّه القلوب ولا يخلق على كثرة الرد من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا اليه هُدي إلى صراط مستقيم) . [1]

* قرر الله تعالى فيه أمر توحيده سبحانه وصرف في هذا الأمر القول ونوّعه بما لا يدع مجالاً لعاقل أن يصرّ على الكفر بالله تعالى أو نسبة شريك إليه ، إلا إذا قضى الله عليه ان يختار العمى على الهدى ، والصمم على الرشد وغلق القلب عن الادراك والفهم .

* وقرر صدق رسوله ﷺ فيما بلغ من الاسلام عن ربه سبحانه بما لا يدع مجالاً لعاقل أن يشك في ان الكتاب من عند الله تعالى ، وان محمداً هو رسول الله حقاً ويقيناً .

* وقرر فيه وجوب طاعة الله سبحانه في العبادات التي أمر بفعلها من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد في سبيل الله ، بما لا يدع مجالاً لريبة أنها علامات الايمان بالله تعالى ، وشارات الاقرار بربوبيته سبحانه وملكه الأمر كله.

* وقرر فيه سبحانه نظام الحياة الجسدية والروحية ، الفردية والاجتماعية

---

(١) من حديث الترمذي عن علي رضي الله تعالى عنه موقوفاً عليه ، ومرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

في النفس والأسرة والمجتمع وعلاقات المسلمين بغير المسلمين بما لا يدع مجالاً للتردد في أن ذلك حقاً اختيار الحكيم العليم المالك لما هو — وحده — صالح لحياة الانسان في الحياة الدنيا من أجل ان يعيش في راحة وسلام ، وفي الحياة الآخرة من أجل ان يكرمه الله تعالى فيدخله دار السلام والرضوان .

* وقرر سبحانه العقوبات الرادعة لأهل الفساد عن مواقعته ، واصحاب النفوس المريضة عن اقتراف الجرائم بما شرع من أحكام زاجرة عادلة من حدود وتعازير مختلفة .

وقرر فيه سبحانه شروط قيام المجتمع المسلم السليم القوي المتين الذي يُرهب الله به العدو الظاهر والخفي ، وشروط بقاء المجتمع قوياً بعد قيامه إلى ما شاء الله تعالى بما لا يدع لشبهة من كافر أو ظنة من ضال أن يتهم كتاب الله تعالى بالنقص عن التمام ، والعيب عن الكمال ، وعدم الوفاء بحاجات الناس في كل زمان ومكان .

* هذا الى تلك الحلاوة العجيبة التي يجدها قارىء القرآن الكريم وسامعه عربياً كان أو أعجمياً فاهماً كان أو غير فاهم ، والى تلك الهيبة التي يشعر بها كل حس في حضرة القرآن الكريم وتلاوته والاحتجاج به كتابة أو كلاماً ، مثالاً يؤتى منه أو حكماً .

* وتلك الحجج الدامغة التي يلمسها القارىء أو السامع في افحام أهل الباطل ، أهل كتاب كانوا أو مشركين .

* وذلك التفاعل مع كتاب الله تعالى وشديد التأثر به في الجهاد حين يدعو الى الجهاد ، والرفق حين يدعو الى الرفق .

ولنقرأ معاً قول الله تعالى في بيان ثمرات الجهاد القريبة (قاتلوهم يعذبهم الله

بأيديكم ويخزكم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) . التوبة . وقوله سبحانه في بيان صورة من صور الرفق وحسن الخلق (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) . آل عمران .

أثر الايمان بالكتب السماوية :

كم يشعر هذا الانسان بكرامته على الله تعالى اذ لم يهبط أباه الأول من الجنة الى الأرض عقوبة زاجرة ولم يدعه الى الحاجة والضرورة تعلمه وتفتحه على حياة الأرض وما فيها من نفع وضر ؛ وانما أنزله الى الأرض ليعمرها ويخلف الله تعالى عليها في الدعوة للايمان به تعالى واقامة العدل بين الخلق ، وأنزل عليه الهدى من عنده لا يخاف اذا تمسك به حين يخاف أهل الضلال ولا يحزن على ما قدم من خير فانه يلقاه ، انه ليس وحيداً .. ليس مهملاً لا يبالى به .

* كم يشعر الانسان بعظيم فضل الله تعالى عليه اذ أنزل عليه على فترات وصايا وأحكاماً وارشادات وأوامر وفرائض وتكاليف لتوجه عقله وتهدي فكره وترشد فطرته وتسلك بعواطفه ومشاعره سبيل الخير والسعادة .

* وكم يقوى حب هذا الانسان لربه سبحانه أن تنزل سبحانه لرشد هذا الانسان — والله غني عن العالمين — كي يعيش عيشة الأبرار ويسعد سعادة الأخيار ، وهو يرى أن كل ما أرشده الله تعالى اليه هو الحق لا ريب فيه ، ينقاد اليه العقل ، وتقبله الفطرة ويستقيم عليه الفكر وتسعد به النفس والناس السعادة الحقة .

فليكن من ثمرات ايماننا بالكتب المنزلة : أن :

* يقوى ايماننا بالله تعالى وحبنا له سبحانه ، فنؤثر طاعته على طاعة سواه ، ونقدم أمره على كل أمر ونصحه على كل نصح لا نبتغي بكتاب الله تعالى بديلاً فهو وحده الحق (وماذا بعد الحق الا الضلال) . وهو وحده كل شيء وسواه ليس بشيء (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم) . أي القرآن الكريم .

* أن نقبل على القرآن الكريم نستزيد تلاوته وفهمه ، ونزداد به عملاً وتطبيقاً واليه دعوة ، وفي سبيل تقرير أحكامه جهاداً ونصرة لدين الله حتى يكون السلطان في الأرض لكتاب الله (ويكون الدين كله لله) .

الفصل الرابع

الإيمان بالرسل

عليهم الصلاة والسلام

قضت حكمة الله تعالى أن يكرم الانسان بالعقل ويزينه بالنظر والفكر كي يدرك بذلك كثيراً من مصالح العيش ومطالب الحياة ، ويستزيد يوماً فيوماً من المعارف وادراك المصالح .. لكنه لن يبلغ بعقله الكمال ولن يدرك الحق وحده ، فقد صبغه الله تعالى محدوداً في كل شيء ، لذا لم يتركه سبحانه الى عقله القاصر عن الكمال والحسير عن ادراك تمام المصالح ، فضلاً عما قد يميل به العقل من تأثير وينحرف من داعية شهوة .. وكم زين الشيطان ما هو باطل للعقل فظنه صواباً ، وكم مالت أهواء بالفكر فظن الانحراف هدى ..

فكانت نعمة الله تعالى أنه أنزل الصحف والكتب هداية للعقل وارشاداً للفكر وسلامة للجسم وموافقة للفطرة ووقوفاً بالانسان عند حدود الانسانية وايثاراً لصبغ الحياة بما يأمر الله تعالى به من الايمان به وطاعته .

وقد جعل الله تعالى حملة تلك الكتب أفضل الناس في أقوامهم ، وأشرفهم في أهليهم ، وهم رسل الله تعالى وأنبياؤه من البشر الى البشر .

* الرسول هو حر ذكر من بني آدم أوحى الله تعالى اليه بشريعة وأمره بتبليغها الى الناس سواء أنزل عليه كتاب مستقل أو دعا الى كتاب أنزل من قبل، لقد دعا عيسى عليه السلام الى التوراة زماناً ثم أنزل الله تعالى عليه الانجيل فدعا اليه .

* النبي هو ذكر من بني آدم أوحى الله تعالى اليه بشريعة وأمره بالعمل بها ولم يأمره بدعوة الناس اليها ، مثل كثير من أنبياء بني اسرائيل .

صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام :

قضت حكمة الله تعالى أن يربي أنبياءه ورسله منذ الطفولة حتى يبلغوا درجة النبوة وإلى أن يقبضهم اليه تربية مثلى ، لا يشوب عقائدهم شائبة من شرك أو الحاد ، ولا يخالط أخلاقهم فجور أو انحراف في السلوك . قال الله تعالى في شأن موسى عليه السلام (ولتصنع على عيني) . وقال في شأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين). وكان ذلك في طفولته بدليل قول الكافرين بعد (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) ، وقال تعالى في شأن عيسى عليه السلام (فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً) . وقال في شأن يحيى عليه السلام (وآتيناه الحكم صبياً) .

وروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال لرسول الله ﷺ (لقد طفت القبائل كلها فلم أر آدب منك فمن أدبك ؟) قال (أدبني ربي فأحسن تأديبي)[1]

(١) رواه العسكري في الأمثال وابن السمعاني في أدب الاملاء وثابت السرقسطي في الدلائل ، قال السخاوي وسنده ضعيف جداً وان اقتصر شيخنا — ابن حجر — على الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه ، لكن معناه صحيح ، كذا جزم ابن الأثير بحكايته في خطبة النهاية وغيرها . المقاصد الحسنة ص ٢٩ .

ولقد حفظ الله تعالى نبيه محمداً ﷺ من قصد الأصنام بالزيارة فضلاً عن عبادتها وتقديم النذور اليها ، بل حفظ أدبه من سماع غناء النساء ومشاهدة مجلس اللهو وهو ما يزال صغيراً يرعى الغنم خارج مكة على قراريط قليلة ، كما روى ذلك البيهقي وغيره [١] .

وايثار زيد بن حارثة المقام عنده عبداً على الانتقال مع أبيه ليعيش في كنفه حراً ، وقوله لأبيه حين لامه على اختيار العبودية على الحرية : يا أبت انه محمد ، هي قصة مشهورة ذكرها ابن حجر في الاصابة ، وغيره ، وكل ذلك قبل نبوته ﷺ .

وأجمع العقلاء على الثناء على الأنبياء والرسل طوال فترات حيواتهم قبل النبوة الى أن أكرمهم الله تعالى بها وأثناءها الى أن قبضهم الله سبحانه ، لما أنهم يدعون الناس الى الايمان بالله تعالى وطاعته ، والبعد عن الكفر به سبحانه ومعصيته ، ولو سبق من أحدهم كفر أومعصية لضعفت أهليتهم للدعوة ، وبالتالي ضعف اقبال الناس على دعوته .

قال الشيخ حسين الجسر رحمه الله تعالى (ولا تلتفت الى افتراءات اليهود على أنبياء الله تعالى ورسله ، فقد افتروا على الله تعالى حيناً أنه فقير .. ضعيف ، بخيل ، وغير ذلك ، فلا غرابة أن يفتروا على الرسل ، قاتلهم الله ولعنهم وغضب عليهم وألحق بهم أشد العذاب عاجلاً غير آجل ، آمين) اهـ [٢] .

واذا أكرمهم الله تعالى بالرسالة فقد وهب لهم صفات أربعاً ــ يستحيل عليهم أضدادها ــ : وهي الصدق ــ والأمانة والتبليغ والفطانة .

---

(١) انظر في بيان اكرام الله تعالى نبيه وحفظه في صغره وقبل نبوته رسالة/بشائر نور وإرهاصات نبوة / .

(٢) الحصون الحميدية .

١) **الصدق** : هو مطابقة الواقع بالقول أو الفعل . ذلك لأنهم يبلغون عن الله تعالى أحكامه وأوامره ونواهيه وهو السميع البصير ، فلا بد أن يصدقوا على كل حال والا أخذهم الله تعالى عند أول كذبة عليه معاذ الله ، قال تعالى (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) . وحين حزن رسول الله ﷺ لتكذيب قومه له — قال له الله تعالى : ان قومك لا يكذبونك في قول أو فعل لكنهم ينكرون ما جئتهم به من عند الله تعالى . قال تعالى (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

ولو أن انساناً قال لغيره بلغ فلاناً عني كذا وكذا فبلغه خلاف ما أمره به في حضوره فإنه سرعان ما يكذبه صاحب الأمر ويفضحه بكذبه بل ويعاقبه ان قدر على ذلك فأنى يترك الله تعالى من يكذب عليه معاذ الله وهو معه يسمع ويرى ، وهو أقرب اليه من حبل الوريد ، ولو كذبت الرسول للزم الكذب في خبره تعالى لتصديقه اياهم وتأييده لهم بالمعجزات التي يجريها على أيديهم ، فان تلك المعجزات نازلة منزلة (صدق عبدي فيما يبلغ عني) . وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله تعالى فيكون كذب الرسل محالاً كذلك والحمد لله .

ثم ان الكذب منقصة تدل على الجبن والضعف ، ذلك لأن الكاذب يكذب طمعاً في شيء أو خوفاً من شيء ، والمؤمن لا يرجو في الحق ولا يخاف فيه الا الله تعالى لعلمه الحق ان الله هو الضار النافع ، وفي الحديث الصحيح (آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان) . رواه البخاري وغيره .

ومن هنا نرى أنه ما عهد عن رسول الله ﷺ أنه كذب قط ، ولا اتهمه به ألدّ أعدائه أيام القتال والحرب ، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام ، وما

يروى عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام أنه كذب ثلاث كذبات فانما هي تورية وسيأتي بيانها باذن الله تعالى .

ثم ان الرسول قدوة في شؤون حياته كلها في البيت وخارجه ، في خلوته وجلوته في السوق والمسجد ، في السلم والحرب والرضا والغضب ، فكيف يتأتى للرسول أن يكذب ، والكذب رذيلة وهو من الكبائر ؟ قال الله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) الأنعام . وكما يجب للرسول الصدق يستحيل عليه ضده وهو الكذب ، معاذ الله تعالى .

٢) الأمانة :

الأمانة هنا موافقة الظاهر للباطن والقول للفعل ، ذلك لأن الرسل يأمرون الناس بالايمان بالله تعالى وطاعته فيجب أن يكونوا أسبق الناس الى ذلك ، وينهونهم عن الكفر به سبحانه ومعصيته فيجب أن يكونوا أبعد الناس عن ذلك .

وقد ذكر لنا رسول الله ﷺ عاقبة الخيانة السوءى للعلماء في الآخرة ، في حديثه الذي رواه أسامة رضي الله تعالى عنه ﷺ ونصه (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه ويدور كما يدور الحمار برحاه فتجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلان ما شأنك ؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنها كم عن المنكر وآتيه) .. متفق عليه .

وروى الحاكم وغيره عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال : قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب الى الله لعملناه فأنزل الله تعالى (سبح الله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) .

رواه الحاكم وغيره والترمذي وخلق كثير [1] .

قال الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام لقومه بعد أن دعاهم وأرشدهم (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب) .

وكما يجب على الرسول الأمانة يستحيل عليه ضدها وهي الخيانة ، أي مخالفة قوله فعله ، وذلك لأنه قدوة للبشر في إطاعة أمر الله تعالى وواسطتهم في تلقي أخباره التي يجب عليهم تصديقها ، فلو كان خائناً لكان أمر الله تعالى واقعاً على ارتكاب المنكرات وفعل المعاصي ، والله تعالى يقول (ان الله لا يأمر بالفحشاء – وينهى عن الفحشاء والمنكر) [2] . قال الشيخ حسين الجسر رحمه الله تعالى : الأمانة هي العصمة ومعناها حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمعصية ويستحيل عليهم ضد الأمانة وهي الخيانة ، فهم محفوظون ظاهراً وباطناً من الزنا وشرب الخمر والكذب وأمثال ذلك من المنهيات الظاهرة ، ومحفوظون باطناً من الحسد والكبر والرياء وأمثال ذلك من المنهيات الباطنة ، وما أوهم من النصوص الشرعية وقوع المعصية منهم فمؤول بتأويلات حسنة مذكورة في كتب التفاسير وشروح الأحاديث النبوية ، فعلى المكلف اذا اشتبه بشيء من تلك النصوص في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام أن يرجع في تأويله الى العلماء الأعلام ليفهم منهم تأويله ، ويكون اعتقاده موافقاً لاعتقاد أهل السنة والجماعة .

٣) التبليغ :

هو ايصال الرسول ﷺ الى الخلق جميع ما أمره الله تعالى بايصاله اليهم من أوامر ونواه ووصايا وأحكام وقصص وأخبار ، ولو كان فيها لوم

---

(١) تفسير الآلوسي / ٢٨ – ٨٣ / .

(٢) انظر اتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام ١١٤ .

يوجه الى الرسول من الله تعالى ، فيجب على الرسول أن يبلغ جميع ما أمر والا كان غاشاً في الرسالة ، مخفياً أوامر الله تعالى الى خلقه ، وتلك خيانة وحاشا للرسل خيانة الأمانة .

وترك التبليغ كتمان للعلم على حاجة الناس اليه ، وكتمان العلم عند السؤال وحاجة الناس اليه إثم ومعصية ، قال الله تعالى (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) البقرة . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) . رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي والحاكم .

قال الله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك فان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس والله لا يهدي القوم الكافرين) .

ولقد كان مما أنزل الله تعالى على رسوله محمد ﷺ آيات تعد لوماً وعتاباً في ظاهر الأمر لا حقيقة لأنه ﷺ اجتهد وما وافق حكم الله تعالى باجتهاده — والأصل أن المجتهد الذي اجتمعت له شروط الاجتهاد كحاكم المسلمين الذي يحكم بالاسلام اذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد ، هو أجر بذل الجهد في تحري الحق . قال الله تعالى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى — عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا —) ومثل هذا ما كان من استشارة رسول الله ﷺ كبار الصحابة عقب غزوة بدر الكبرى ماذا يفعل بالأسرى ، فكان رأي أبي بكر وكثير من الصحابة : ووافقهم عليه رسول الله ﷺ : أن تؤخذ فدية من الأسرى المشركين القادرين ، ليتقوى المسلمون بالمال ، ولعل الله تعالى أن يجعل من أولئك المشركين أو من أصلابهم من يؤمن بالله تعالى ويجاهد في سبيله ، وحتى اذا فعل رسول الله ﷺ ما انتهت اليه الشورى ، أنزل الله تعالى عليه (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم

لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب أليم) أي لولا سابق حكم الله تعالى أن لا جزاء قبل التكليف لكان يكون ذلك مخالفة منه ﷺ لأمر الله تعالى ، ومعاذ الله أن يفعل ، لذا قال الله تعالى بعد ذلك (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم) . ولو كان يجوز من النبي ﷺ أن يكتم بعض ما أمر بتبليغه لكتم ﷺ هذا الذي نزل في لومه ظاهراً ، ولو فعل ذلك لكان خائناً ، وذلك كما ذكرنا محال ، كما أن ضد التبليغ وهو الكتمان محال عليه ﷺ .

٤) الفطانة :

وهي الذكاء أو حدة الذكاء والتيقظ ، وذلك لأن الرسول مكلف بدعوة الخلق الى الايمان بالله تعالى وعبادته ونبذ ما سواه ، والى طاعة الرسول فيما جاء به من عند الله تعالى ، ولا ريب أن في المدعوين علماء ومفكرين وأذكياء نابغين وأصحاب لسن وأدعياء منطق وحجة . فلو لم يكن الرسول قادراً على ابطال شبه الكافرين واقامة الحجة عليهم لكان عاجزاً ضعيفاً وبالتالي يصبح الحق خفياً مغلوباً والباطل ظاهراً غالباً ، فلا تقوم بهذا على أحد حجة .

فتبطل حكمة ارسال الرسل ودعوة الخلق الى الايمان بالله .

ولقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم صوراً من المحاجة بين الرسول وقومه .. وكانت تنتهي تلك الصور باستهزاء الكافرين بالرسول عجزاً عن مواجهة الحجة بالحجة حيناً ، وبالتهديد والقتل حيناً آخر وطلب انزال العذاب عليهم معاندة وكبراً مرة ان لم يكونوا صادقين ، وايصال العذاب والقتل الى الرسل مرة أخرى ، قال الله تعالى في شأن نوح عليه السلام (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) .

ونقل المفسر الآلوسي في تفسيره سورة آل عمران المجادلة التي جرت بين رسول الله ﷺ وبين وفد نجران من النصارى ، من رواية ابن جرير عن

الربيع قال : ان النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى بن مريم ، وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان فقال لهم النبي ﷺ : (ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد الا وهو يشبه اباه ؟) قالوا بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وان عيسى قد أتى عليه الفناء ؟ قالوا بلى ، قال ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى ، قال فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا لا قال ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا لا ، قال ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا بلى ، قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غُذي كما يغذّى الصبي ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا بلى ، قال كيف يكون هذا كما زعمتم ؟ فعرفوا ، فأبوا الا جحوداً ، فأنزل الله تعالى (ألم الله لا اله الا هو الحي القيوم) الخ [1] .

وفي رواية ابن كثير أن رسول الله ﷺ بعد أن حاجّهم طلب منهم المباهلة وهي الملاعنة بأن تدعو كل طائفة بلعنة الله تعالى عليها ان كانت كاذبة ، قال نصارى نجران لذي الرأي فيهم — عبد المسيح — ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم وأنه الاستئصال منكم ان فعلتم ، فان أبيتم الا إلف دينكم — الاقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم — فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم ، فأتوا النبي ﷺ فقالوا يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا .. الخ .

---

(١) روح المعاني / ٣ — ٧٤ / .

قلت فأنزل الله تعالى الآيات من أول سورة آل عمران الى قوله تعالى (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين [1]) .

وفي كتاب الصديق الشاب الصالح الشيخ سعيد محمد ديب / سيرة الرسول ﷺ / نماذج من فطانة النبي ﷺ وحدة ذكائه في الميادين المختلفة . وقطعه بحجته كل شبهة ، فاغنمه فانه كتاب مفيد نافع . جزاه الله تعالى عن الاسلام وأهله خيراً .

ولم يثبت قط أن رسول الله ﷺ سقطت له حجة ، أو قام عليه كافر ببينة ، وذلك لأن الحق دائماً يعلو ولا يعلى عليه ، ثم قال الله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه فاذا هو زاهق) وبعض علماء التوحيد يذكرون صفة خامسة بعد الصفات الأربعة المذكورة ، وهي العصمة ويعنون بها الحفظ من الكفر والمعاصي على كل حال ، وهي داخلة في صفة الأمانة كما أسلفنا بيان معناها ، ذلك لأن مقابل العصمة عدم العصمة — وهي الخيانة ، والخيانة مستحيلة على الرسل عليهم الصلاة والسلام . والله أعلم .

ما يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام :

يجوز أن يقع على أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام كل ما لا يقدح في بنوتهم ، بأن يحقر من شأنهم ويهينهم ويحول بينهم وبين تبليغ دعوتهم الى الناس .

فهم يأكلون ويشربون وينامون بعيونهم — ولا تنام قلوبهم — وينكحون وينسلون ، هم بشر تضعف أجسامهم وتمرض أبدانهم ، يتعبون وتلحقهم الأمراض ، ويتألمون مثل سائر البشر وأكثر ليضاعف لهم الأجر ويكونوا

---

(١) تفسير ابن كثير / ١ — ٣٦٨ / .

قدوة في الصبر على البلاء ، ويضطهدون من الأعداء ويؤذون وقد يُقتلون .

لكن لا تجوز عليهم الأمراض المنفرة من الناس ، كالجذام والبرص والعاهات المعوقة من تبليغ الدعوة من الصمم والبكم والعمى .

وما ورد في / العرائس / قصص الأنبياء للثعلبي أن رسول الله عليه السلام ابتلي بمرض دوّد له لحمه .. فذلك من الكذب المشين ، فما أصيب أيوب عليه السلام الا بمرض أقعده عن الخروج الى الناس بعد ذهاب الولد وذهاب المال اختباراً من الله تعالى يرفع به درجته ، ويخيب عدوه ، ويجعله قدوة للمصاب في الصبر (انا وجدناه صابراً نعم العبد انه أواب) .

دعـوة الرسل

عليهم الصلاة والسلام

١ ـ يدعو الرسل عليهم الصلاة والسلام الى الايمان بالله تعالى وما جاء من عنده ، والصدق في ذلك مع الله تعالى ، قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون) .

٢ ـ يدعو الرسل الناس الى طاعة الله تعالى في اقام الصلاة وايتاء الزكاة وأداء سائر التكاليف والواجبات مع قصد وجه الله تعالى في جميع ذلك ، قال سبحانه (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) .

٣ ـ يدعون الناس الى مراقبة الله تعالى وتقواه على كل حال ، ولا ريب أن تقوى الله تعالى هي الزاد الموصل الى مرضاة الله تعالى ، قال سبحانه (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله) .

٤ ـ يدعون الناس الى طاعتهم هم ، والانقياد اليهم والاقتداء في كل شيء بهم ، قال سبحانه (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) .

٥ ـ يدعون الناس الى جعل الحاكمية في كل شيء لله تعالى باعتبار اقرارهم بربوبيته سبحانه ، ووجوب عبادتهم له ، قال سبحانه على لسان يوسف

عليه السلام (ان الحكمُ الا لله أمر أن لا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

٦ — يدعون الناس الى التفكير المستقل في أمر الدين الذي ورثوه عن الآباء — حتى لا ينساقوا وراء الشهوات ولا ينقادوا للتقاليد وهي مما تخالف العقل وتجافي الحق، وتباين دعوة الرسل — قال سبحانه (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون) .

٧ — يدعون الناس الى الايمان بالنبي الخاتم محمد ﷺ إن بعث فيهم ، وأن يتبعوه وينصروه ويكونوا على أعدائه معه، قال سبحانه (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين — واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) .

٨ — يدعون الناس الى الله تعالى مخلصين الدعوة الى الله سبحانه لا يبتغون من الناس أجراً ولا يقتضونهم نفقة ولا حفظ معيشة ، قال سبحانه (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري الا على الله) . وهذا عتبة يعرض على رسول الله ﷺ المال والجاه والسلطان على أن يترك دعوته .. فيجيبه ﷺ بفواتح سورة فصلت حتى يصل الى قوله (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) . فيضع الرجل يده على فم رسول الله ﷺ ويناشده الرحم أن يدع القراءة .

ولقد كان مما يؤكد هذا المعنى قوله ﷺ (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) [١] .

وسليمان عليه السلام الذي آتاه الله تعالى من الملك ما لا ينبغي لأحد من العالمين ، لكنه ما جمع مالاً ولم يبق لأهله منه شيء ..

٩ ــ ينذرون الكافرين من عذاب الله تعالى في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة ان هم أصروا على كفرهم حتى يأتيهم العذاب وهم على ذلك ، كما يبشرون المؤمنين بفضل الله تعالى واسعاده لهم في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة إن ثبتوا على الايمان حتى يأتيهم الموت وهم على ذلك .

وليس مثل التذكير بالآخرة حاضاً للمؤمن على الطاعة والثبات على ذلك ، وليس مثل التذكير بالآخرة زاجراً عن اقتراف المعاصي وارتكاب الموبقات فان الرقيب قوي ، والغاية قريبة والعذاب شديد . قال سبحانه (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ــ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذين كنا نعمل . ــ ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) .

وقال سبحانه (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون . ــ مثل الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسُقُوا ماء حميماً فقطع امعاءهم) .

وحدة دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام :

والرسل جميعاً اخوة أرسلهم إله واحد بدعوة واحدة هي : الايمان بالله تعالى وطاعته ، ثم كانت شرائع لرسل معينين بما يُصلح كل زمان وقوم ،

حتى جاءت الشريعة الأخيرة وهي الاسلام لكل زمان ولكل قوم ، ولكل مكان وصقع ، قال الله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

وانا لنجد في القرآن الكريم تسمية نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام بالمسلمين لأن معنى الاسلام هو الاستسلام والانقياد لله تعالى وأمره ، ولقد كانت شرائـــع أولئك المرسلين نازلة لاصلاح حياة بعض الناس في زمان محدود تخلف احداها الأخرى في تلك الحدود الضيقة من المسائل الفرعية دون القواعد والأصول .

قال الله سبحانه (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً .. ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها)...

وعلى هذا يقال ان دعوة الرسل واحدة في القواعد والأصول وهي ما يلي :

أ ـ الايمان بالله تعالى وما جاء من عند الله تعالى من الايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر ، قال الله تعالى (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ـ وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) .

ب ـ القيام بالعبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج ، قال سبحانه على لسان عيسى عليه السلام (قال إني عبد الله آتـــاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حياً) .

ج ـ التزام مكارم الأخلاق من الصدق والوفاء بالوعد ، والأمانة والحياء والعفة وبر الوالدين وأمثال ذلك . قال الله تعالى في شأن اسماعيل عليه السلام

(واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً) .
وقال في شأن يحيى عليه السلام (وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين) .

وعلى لسان لقمان رضي الله عنه يعظ ابنه (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) .

د – أصول الحلال والحرام ، فالقتل والظلم والسرقة والزنا واللواطة وخيانة الأمانة وأكل الربا وأمثال ذلك خبيث محرم في الشرائع كلها ، وطلب الحلال وحفظ حقوق الآخرين وصيانة دمائهم وأعراضهم والعدل والجهاد طيب مطلوب في الشرائع كلها ، قال الله تعالى (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مـا لا تعلمون – وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص – لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط – ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله . فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم بـه وذلك هو الفوز العظيم – وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل) ...

فلا يبقى بعد هذا خلاف بين شريعة وشريعة الا بمقدار ما قدر الله تعالى من الخير في ذلك لكل جيل وزمان ، حتى أتم النعمة وأكمل الدين ورضيه للبشر جميعاً ، وأعلن سبحانه أنه لا يقبل مع الشريعة الخاتمة شريعة أياً كانت تلك الشريعة ؛ فان الكمال والتمام مقدمان على ما سواهما [1] .

واذا رأينا بعدُ رأياً في شريعة ما ينسب الى الله تعالى ما لا يليق به وورد

---

(١) (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً – ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) .

نفيه عنه سبحانه في القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، فذلك دليل بطلان ذلك الرأي ، في نظر تلك الشريعة نفسها .. وقل مثل هذا في العبادات والأخلاق وأصول الحلال والحرام . ما كان الله سبحانه ليحلل الخمر لأمة ثم يحرمها على أخرى لأن أضرار الخمر معروفة ويكتشف العلم كل يوم من أضرارها جديداً .

ما كان الله سبحانه ليحلل التبرج والفسوق للمرأة في شريعة من الشرائع ثم يحرمها في أخرى فان حفظ الأعراض وصيانة الأنساب حق في كل زمان ومكان .

حكمة بعث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام :

١ — قد جعل الله تعالى فطرة الانسان هي فطرة الايمان بالله تعالى وتوحيده ، لكن الانسان قد تخدعه مظاهر أو تربية ، ضلالات وخرافات ، فيؤمن بمن لا يستحق الايمان به من انسان أو حيوان أو وهم أو مظهر من مظاهر الطبيعة ، أو أرض أو دم ، أو كوكب ونجم .

لذلك كان في حاجة دائمة وملحة الى رسول : يعرفه بالإله الحق الذي يجب أن يتوجه بالايمان والعبادة اليه وحده ، لا يعتقد الألوهية في غيره ولا يقدم العبادة لسواه ويصفه سبحانه بالصفات الكمالية اللائقة بالله تعالى ولا تكون تلك الصفات في كمالها لأحد سواه ، مثل كونه سبحانه الخالق الحكيم ، المحيي المميت ، الرازق المعطي المانع ، القادر على كل شيء القديم الباقي الفعال لما يريد سبحانه .

٢ — جعل الله تعالى فطرة الانسان فطرة اجتماعية ، لا يعيش منعزلاً ، بل لا يقدر على عيش الوحدة ، كما أنه محتاج الى المجتمع وفقير اليه في شؤون حياته ، ومطالب عيشه ، ومن هنا قالوا الانسان مدني بطبعه فقير الى غيره ، لكن الانسان العاقل قد تخدعه مظاهر ، وتغره أنانية وتتحكم فيه شهوات وأغراض ، فيظلم الناس ويسيء عشرتهم فيشقى ويشقى به المجتمع ، وتتفكك فيه أواصر المحبة وتنقطع روابط التعاون .

لذلك كان في حاجة دائمة وملحة الى رسول يعرفه بطرق العيش وأساليب المعاشرة لاخوانه من البشر فيعدل ولا يظلم ، ويحب ولا يبغض ، ينصح ولا يخون ، ويتعاون مع غيره على الخير لا على الشر ، يصدق ولا يخدع ، يقف عند حدود الله تعالى لا يتعداها لما في ذلك من ضرر محقق يحيق به وبغيره .

وأحر بمجتمع هذه حالته أن يصبح مجتمع الخير والسعادة في الحياة الدنيا ، ومجتمع رضوان الله تعالى في الدنيا والآخرة .

٣ — جعل الله تعالى الانسان محباً للمدح ، مائلاً الى حب تقديره وشكره على ما يأتي من خير ومعروف ، لكنه قد لا يجد تقدير المعروف من جميع أفراد المجتمع الذين يتعامل معهم ، .. فلربما ترك المعروف الى الأذى والاحسان الى الاساءة ، كما نرى في بعض من يقابل المعروف بالكنود والاحسان بالنكران .

لذلك كان الانسان في حاجة ملحة دائمة الى رسول يقول له : قدم الخير الى الناس واصنع المعروف وعاشر بالخُلق الكريم فلا يذهب العرف بين الله والناس ، ان الله تعالى لا يضيع عملاً حسناً بل يكافىء عليه . ان الاحسان يثمر عند الله تعالى احساناً ولو قابله أناس باساءة ونكران فيؤثر حينئذ مرضاة الله تعالى في أخلاقه ، ويرجو ثوابه في سلوكه ، ويرغب في فضل الله تعالى لا في مكافأة الناس .

فاذا أساء اليه مسيء بعدُ قابل اساءته باحسان ونكرانه بصلة ، واستمر على حسن خلقه ، فما عند الله تعالى من الثواب ثابت لا يضيع ولا يُنسى .

٤ — يرى الانسان أحياناً أوزاعاً من الناس تسيء ولا تحسن ، تكذب ولا تصدق تغش ولا تنصح ، تظلم ولا تعدل ، تسرق وتتظاهر بالأمانة ، تنتهك الأعراض وتتظاهر بالعفاف تظلم وتدعي العدالة ، تقتل وتدعي المحبة ، ومع

ذلك ترى اقبال الدنيا عليهم قائماً ، وسوق ريائهم رائجاً – يكرمهم الناس ولا يستحقون الا الاهانة ، يحبونهم وهم لا يستحقون الا المقت .. ولربما ظن هؤلاء وأولئك أن الأمر هكذا مستقيم ودائم .

لذا كان الانسان في حاجة ملحة ودائمة الى رسول يظهر للطرف الأول والثاني أن الله تعالى قد أعدّ يوماً هو يوم العدل الفاصل ، ليس فيه الا العدل الكامل ، يحاسب فيه الناس جميعاً على الدوافع والعزائم وعلى الأعمال والسلوك ، وهناك سيلقى كل جزاء ما قدمت يداه في الحياة الدنيا ان خيراً فخير وان شراً فشر .

أما الدنيا فعرض زائل ، سوق قامت فترة ثم نفقت ، كل الناس يغدو الى السوق ، فبائع نفسه لله تعالى فيعتقها من النار أو مائل مع الهوى فيوبقها بعذاب الله .

والناس حيث لا يعرفون خبايا القلوب ولا يطلعون على أحوال الآخرة يؤخذون بالمظاهر ويُخدعون بالصور فترة من الزمن تطول أو تقصر .

والرسول فيما يخبر عن حال الدنيا ومآلها يخبر عن الله الرؤوف الرحيم والخالق الحكيم ، الذي خلق هذا الانسان ويعلم ما يصلحه وما يضره ، ما توسوس به نفسه ويحدثه ضميره ، ويعزمه في خاطره (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

مما لا ريب فيه أن فطرة الانسان تقرر ضرورة وجود حياة بعد هذه الحياة ، تصفى فيها الحقوق على صدقها ، وتوفى كل نفس ما كسبت على حقيقتها ، وتختبر النوايا وتظهر الخبايا ويجلى كل مستور ، ثم .. فاما الى ثواب الله تعالى ورضوانه واما الى عذاب الله تعالى ومقته .

٥ – يرى الانسان نوعاً من الأطعمة والأشربة ، وأشكالاً من الطيور والحيوانات ، فلربما خدعته مظاهرها وغرته بهارجها ، فيطعمها ويشربها

فيكون في ذلك ضياع العقل وفساد الخلق وذهاب العافية ، وهيهات أن يدرك الانسان بالتجربة ما يضره مما ينفعه ويلاحظ ذلك على الدوام على قصر من العمر وكثرة الأعمال .

وعلام يجرب الضار وهو ثابت الضرر ؟

وما أحسن قول القائل : من جرب المجرب حلت عليه الندامة .

لذلك كان الانسان في حاجة ملحة ودائمة الى رسول يبين له ما يحل وما يحرم ، وما يضر وما ينفع عن علم ويقين ، كي ينتصح ذلك الانسان فيقف عند حدود ما ينفعه ولا يلقي بيده الى التهلكة .

٦) وقد يتشكى هذا الانسان غداً عند الله تعالى اذا قضى بعقابه على كفره وضلاله ، مدعياً أن الله تعالى ما أرسل اليه رسولاً يدعوه الى الايمان بالله وطاعته وينذره عاقبة الكفر به ومعصيته والخروج على حدوده . كما قال تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى — رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ..

٧) وهذا الانسان فيه تطلع الى حقيقة ما يرى ويسمع ويعقل ، وفي هذا مجال للوهم والخيال أن يدخل عليه ، ومظنة أن يلبس عليه الشيطان فيعبد كوكباً أو شمساً أو قمراً أو يعبد شجرة أو ماء أو حيواناً .

لذلك كان الانسان في حاجة ملحة ودائمة الى رسول يبين له أن ما سوى الله تعالى مخلوق لا يملك لنفسه نفعاً أو ضراً ، صحة أو رزقاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فأحرى أن لا يملك ذلك لسواه . فاذا فتح عيني بصيرته لنصح الرسول ، أخاص العبودية لله تعالى وغادر الشرك به فلا يدعو غير الله تعالى ولا يسأل أحداً سواه ، فان ما سواه سبحانه مخلوق يسري عليه ما شاء الله من نظام ولا يستطيع شيئاً الا أن يشاء الله ؛ قال تعالى (وان اعبدوني هذا صراط مستقيم) . والدعاء عبادة بل هي مخ العبادة .

٨ – ذكر الله تعالى الحياة الآخرة في القرآن الكريم ، ذكرها عقب الحياة الدنيا حيناً ، وبعد الموت حيناً ، وذكرها عقب النفخ في الصور للمرة الثانية حيث يبعث الله الخلائق كما قال سبحانه (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) .

وذكر الله تعالى في القرآن الكريم وذكر رسول الله ﷺ في الحديث الشريف أحوال الآخرة وأهوالها وشدائدها ، ما فيها من العجائب ، وما فيها من أنواع الكرب والفزع والضيق وشدة العذاب ودوام ذلك على أهلها الكفار أبد الآبدين .

كما ذكر سبحانه في القرآن الكريم وذكر الرسول ﷺ في الحديث الشريف أحوال الآخرة ومسراتها ، ويسرها ولطفها واقبال الله تعالى بكرمه وتجليه سبحانه بفضله وانعامه بالنعيم الذي لم تر عين مثله قط ، ولم تسمع أذن بمثله ولم يخطر مثله على قلب بشر ، ودوام ذلك على أهلها المؤمنين أبد الآبدين .

وهذا الانسان محدود الفكر والحياة ، محدود العلم والادراك ، لا يستطيع أن يستشف بعقله وسمعه وبصره ما يكون بعد هذه الحياة الدنيا ، ولا بد له من الايمان بذلك فان الله تعالى قد خلقه لعبادة الله تعالى ومعرفته ، ومعرفة ما يجب عليه ويحظر عليه وما يجوز له .

وأنى لعقل الانسان أن يدرك هذا كله أو بعضه القليل بنفسه ! ..

وما أشد الخسارة التي كانت ستكون للانسان لو قرر أن الحياة التي سيقبل عليها للأبد مجهولة لا يكاد يعرف عنها شيئاً .

لذا كانت حاجة الناس ملحة ودائمة الى رسول يعرف الانسان بغاية وجوده في هذه الحياة ، وما يجب عليه فيها من عقائد وأقوال وأفعال وسلوك ، وما هي الدار التي لا بد أن ينتقل اليها في يوم لا ريب فيه .. وما ثمة من ثواب لا يقدر قدره للمؤمنين وما ثمة من عقاب لا توصف شدته على الكافرين .

ولعمر الله ان أعظم دافع الى الايمـــان بالله تعالى وطاعته ، لهو ذكر الموت والآخرة وما يكون هناك !

لعمر الله ان أعظم زاجر عن الكفر بالله تعالى ومعصيته لهو ذكر الموت والآخرة .

ان الحياة الدنيا كلها في الآخرة كأنها ساعة من نهار .

وما مثل نعيم الحياة الدنيا وبؤسها أمام نعيم الآخرة أو عذابها الا مثل غمسة في الجنة أو النار ثم خروج منهما .

وانا لنجد سور القرآن الكريم وآياته التي نزلت أيام الدعوة الأولى ، كانت صواعق وشهباً على قلوب الكافرين لأنها تذكر الآخرة وما أعدّ الله تعالى فيها للكافرين .. فكانت الآيات تلك تزلزل القلوب وترجف الأفئدة ..

فكانوا يقبلون على الاسلام يدخلون فيه يشترون سعادة الدنيا والآخرة به ويكسبون رضوان الله تعالى فيه .

وما يزال التذكير بالآخرة والتخويف بأهوال القيامة وعجائبها ، أفضل طريق لتنبيه القلب وتحريكه ودفعه الى الايمان والطاعة .

ولن يزال الانسان يؤتى من قبل الخوف والرجاء أكثر مما يؤتى من قبل النظر والفكر ، ولن تزال عواطف الحب والبغض أكثر العواطف أثراً في عقل الانسان وسلوكه .

ومن لا يتأثر بمثل قوله تعالى (ويوم يُحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يفعلون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه تُرجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين) . فصلت / ٢٠ ٢٥ / .

عدد الأنبياء والرسل

عليهم الصلاة والسلام

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم عدداً من الأنبياء والرسل يبلغ الخمسة والعشرين رجلاً ، وأشار فيه كذلك الى أنه أرسل رسلاً آخرين لم يذكر لنا أسماءهم الشريفة .

لذا كان من الواجب الايمان بخمسة وعشرين نبياً ورسولاً تفصيلاً والايمان بآخرين اجمالاً ، قال الله تعالى (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) وقال (ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً) .

وقد بدأ الله تعالى الحياة البشرية على الأرض بهم ، فكل خير وبر ، وكل فضيلة ومعروف ، وكل حكمة وحسن خلق جاء بها رجل من الناس ، أو نسبت الى حكيم من الصين أو اليونان يغلب أن يكون مصدرها نبي من الأنبياء ، ما قص الله تعالى علينا خبره من الرسل الذين أرسلهم الى أوربا وأفريقيا والصين وغيرها من أرض الله تعالى . قال الله تعالى في شأن آدم وحواء واللعين ابليس : (قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وقد جمع بعضهم أسماء الرسل المذكورين بأسمائهم في القرآن الكريم ويجب الايمان بهم تفصيلاً في الأبيات التالية :

أسمـــاء رســل الله في القرآن — خمس وعشرون فخذ ببيان
هــم آدم ادريس نوح هــود — يونس الياس اليســع داود
اسحق ابراهيم لــوط موسى — ذو الكفل يحيى زكريا عيسى
شعيب ثم صــالح أيــوب — هارون ثم يوسف يعقوب
ثم سليمــــان واسماعيــــل — محمد ختمهــم الجليــــل

وجمع الله تعالى أسماء ثماني عشرة منهم في آيات متتابعة في سورة الأنعام فقال (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم . ووهبنا له اسحق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى والياس كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين) .

قال الشيخ عبد القاهر التميمي صاحب / الفرق بين الفرق / : اجمع أصحاب التواريخ من المسلمين أن أعداد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مائة ألف وأربعمائة وعشرون ألفاً كما وردت الأخبار الصحيحة أولهم أبونا آدم السلام [١] وآخرهم نبينا محمد ﷺ ، وأجمعوا على أن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر كعدد الذين جاوزوا مع طالوت النهر ولم يشربوا منه وثبتوا معه في قتال جالوت وكذلك كان عدد أصحاب بدر مع النبي ﷺ يوم بدر [٢] .

---

(١) انظر مستدرك الحاكم / ٢ ــ ٥٩٧ / .
(٢) أصول الدين له ص ١٥٨ .

ثم قال بعد كلام : واذا صح لنا أن الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر [1] قلنا ان خمسة منهم من أولي العزم المذكورين في القرآن الكريم وهم : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، وخمسة منهم من العرب وهم هود وصالح واسماعيل وشعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام [2] .

روى الحاكم وأحمد في مسنده وابن حبان عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو في المسجد فاغتنمت خلوته ، فقال لي يا أبا ذر ان للمسجد تحية ركعتين فركعتهما ، ثم قلت يا رسول الله انك أمرتني بالصلاة فما الصلاة ؟ قال خير موضوع ، فمن شاء أقل ومن شاء أكثر ، ثم ذكر الحديث الى أن قال : قلت كم النبيون ؟ قال مائة وأربعة وعشرون الف نبي ، قلت كم المرسلون منهم ؟ قال ثلاثمائة وثلاثة عشر . وذكر الحديث) . وتعقبه الذهبي بقولـه : السعدي — يحيى بن سعيد السعدي — ليس بثقة . وقال القرطبي : انه أصح حديث ورد عن عدد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

ملاحظة : كانت رسالة آدم عليه السلام الى المؤمنين وهم زوجته وأولاده ، أما رسالة نوح عليه السلام فكانت الى الكفار من قومه ، ومن هنا قال بعضهم ان نوحاً عليه الصلاة والسلام أول رسول ، لأنه أول رسول أرسل الى الكافرين. لكن الحق أن آدم عليه السلام هو أول نبي على الاطلاق . والله أعلم .

---

(١) روى الحاكم بسنده إلى أبي هريرة انه قال : سيد الأنبياء خمسة ومحمد صلى الله عليه وسلم سيد الخمسة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم ثم قال هذا حديث صحيح وان كان موقوفاً على أبي هريرة ، واقره الذهبي على صحته / المستدرك / ٢ — ٥٤٦ / .

(٢) أصول الدين ص ١٥٩ .

محمد صلى الله تعالى عليه وسلم

خاتم النبيين

١ ـ اقتضت حكمة الله تعالى ـ بعد بعثة العدد الكثير من الأنبياء والمرسلين، وتدرج العقل البشري في طريق الكمال ، وتقارب أقوام البشر في تجارات وهجرات وحروب ـ ، ان يكمل الاسلام ويتم الشرائع ، وان يختم النبوة . فكان أن ارسل سبحانه محمداً ﷺ بكمال الدين وتمام الشرائع ، وجعله خاتم النبيين . فكل من ادعى عيباً في الاسلام يكمله البشر ، أو نقصاً في الشريعة يتممها العقل ، أو زعم ان بعد محمد ﷺ نبياً أو رسولاً ، كان مفترياً كذاباً يخرج به عن الاسلام ان كان من أهله .

قال الله تعالى (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) . وقال سبحانه (ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم) .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله ﷺ قال (ان مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه واجمله الا موضع لبنة في زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فانا اللبنة وانا خاتم النبيين) . رواه البخاري .

وحين خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك لقتال الروم الذين قتلوا رجلاً من المسلمين ، وخلف علياً رضي الله تعالى عنه قال له : اتخلفني في الصبيان والنساء ؟ فقال له ﷺ (الا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي) . رواه البخاري ومسلم والنسائي .

بل لقد أكد رسول الله ﷺ ختم النبوة به وهو يحذر المسلمين من دعوات نبوات باطلة ستكون بعده ، كي يكون المسلمون على بصيرة من دينهم ، فجزاه الله تعالى خير ما جزى نبياً عن أمته ، وصدق الله تعالى إذ قال في وصفه (حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

وقد ظهرت دعوات نبوة بعده ﷺ ، فادعى مسيلمة الكذاب — ايامه ﷺ النبوة — وتبعه من تبعه ، وسجاح والاسود العنسي .. حتى جاء منذ قرنين دجال الهند غلام أحمد القادياني وسيكون آخر من يدعي النبوة كذباً وزوراً المسيح الدجال الذي يخرج في رقة من الدين وجهل باحكامه فيظهر الصلاح — ثم يدعي النبوة ثم يزعم انه رب العزة وهو اعور احدى العينين وعينه الأخرى كأنها عنبة طافية .

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله ﷺ قال (لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كل يزعم انه رسول الله) . رواه مسلم .

وعنه رضي الله عنه أنه ﷺ قال (سيكون في أمتي دجالون كذابون يأتونكم ببدع من الحديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فاياكم واياهم لا يفتنوكم) . رواه أحمد .

ولا شك ان مسيلمة الكذاب وسجاح والاسود قديماً ، وغلام أحمد القادياني ربيب الانكليز حديثاً من أولئك الدجالين الكذابين كما أخبر رسول

الله ﷺ ، فاياكم واياهم وأمثالهم انهم كذبة كفرة من اتبعهم قادوه إلى النار . معاذ الله [1] .

وقال ﷺ (ان لي أسماء انا محمد وأنا أحمد وانا الماحي يمحو الله بي الكفر وانا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي وانا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي) . متفق عليه .

٢ ـ ورسالته ﷺ إلى الناس كافة عامة ، لا يسع من سمع به أياً كان دينه وموطنه إلا أن يؤمن به ويتبعه . قال الله تعالى (قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض) ـ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) .

وعن جابر رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نُصرت بالرعب من مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهور فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة) . متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا يسمع بي رجل من هذه الأمة [1] يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار) . مسلم .

وجاء من أدلة التاريخ والواقع ما ايد دليل الشرع في ارساله ﷺ إلى الناس

---

(١) كانت دعوة غلام أحمد تعرف بالقاديانية ، وقد فضح كفرها وعمالتها للكفر : من كتاب كثيرين خاصة الندوي والمودودي ، ولقد غيرت اليوم عنوانها فتسمى الدعوة الأحمدية . وهي هي القاديانية الكافرة ، فاحذروها .

(٢) أمة الدعوة فقد ثبت انه صلى الله عليه وسلم ارسل إلى الناس كافة ، وأمة الاجابة هي الجماعة التي آمنت به ويسمون المسلمين .

كافة ، فقد دعا رسول الله ﷺ المشركين إلى الإسلام ، كما دعا اليهود والنصارى والمجوس جميعاً بلسانه وكتبه إلى الأمراء والحكام فآمن به من آمن كعبدالله بن سلام ومخيريق اليهوديين ، وكأصحمة النجاشي ملك الحبشة النصراني رضي الله تعالى عنهم .

٣ — وهو ﷺ سيد الخلق وأفضل الرسل عليهم الصلاة والسلام . قال الله تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) .

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله ﷺ قال (انا سيد ولد آدم يوم القيامة وأنا أول من ينشقّ عنه القبر وأنا أول شافع وأول مشفع) . رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر) . رواه أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه [1] .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان رسول الله ﷺ قال (أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح لي فادخلها ويدخلها معي فقراء المؤمنين ولا فخر) . رواه الترمذي والدارمي .

وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ قال (أنا أول الناس خروجاً اذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يئسوا لواء الحمد بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر) . رواه الترمذي .

---

(١) رتبة النبوة واحدة لا فرق فيها بين نبي ونبي وإنما يقع التفاضل بينهم بما منح الله تعالى بعضهم من نعم وفضائل ومزايا زادت على الأنبياء سواهم . والله أعلم .

٤ ــ له الشفاعة العظمى يوم القيامة ، وهي الشفاعة التي تشمل البشر أجمعين مؤمنين وكفاراً ، وهذه هي الشفاعة الخاصة به ﷺ من دون الملائكة والأنبياء والمرسلين صلى الله عليهم وسلم اجمعين ثم له ﷺ ست شفاعات غير هذه الشفاعة نوردها بإيجاز :

النوع الأول الشفاعة العامة هذه ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم عليه السلام ، فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا عند ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : قد غضب ربي اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانه قد نهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي [١] ، اذهبوا الى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح انك أول الرسل الى أهل الأرض وقد سماك الله عبداً شكوراً اشفع لنا عند ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول ان ربي عز وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانه قد كانت لي دعوة دعوتُ بها على قومي [٢]

---

(١) كان ذلك قبل نبوته سهواً وتأويلاً ، وما كان قصداً إلى المعصية ، قال تعالى (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً) . قصداً إلى المعصية . وقد خدعه ابليس بالقسم بالله ان الله ما نهاه عن الشجرة إلا لأن من أكل منها يصبح ملكاً أو يكون من الخالدين ، وقد لا يريد ذلك وما ظن أن أحداً يكذب ويقسم على الله كذباً . قال ابن عباس رضي الله عنه : ما ظن آدم ان أحداً يقسم بالله تعالى كذباً . والله أعلم .

(٢) هي قوله (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً) . بعد أن قال له ربه (لنه لن يؤمن من قومك الا من قد =

نفسي نفسي اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى ابراهيم ، فيأتون ابراهيم فيقولون يا ابراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا عند ربك ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، واني قد كذبت ثلاث كذبات [1] نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى موسى ، فيأتون موسى فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، واني قد قتلت نفساً لم اؤمر بقتلها [2] نفسي نفسي اذهبوا الى

= آمن) لقد آيسه الله تعالى من ايمان الكافرين من قومه لا ذرياتهم. ثم هو الأدب النبوي العظيم يرى في دعائه ذلك بأساً .. فيخاف .

(١) هي كذلك في الصورة ولم تكن كذبات في الحقيقة . لكنه أدب النبوة العظيم يرى في المخالفة البسيطة كبيرة وفي خلاف الأولى خروجاً عن الطاعة ، وذلك لاستحالة الكذب على الرسل عليهم الصلاة والسلام . وتلك الكلمات الثلاث هي : أ ــ قوله عليه السلام عن زوجته سارة ــ أمام ملك مصر الذي أرادها على المعصية فعصمها الله منه وأشفق أن يقتله ان عرف ان ابراهيم عليه السلام زوجها ــ انها أخته ، وهي أخته حقاً في الايمان ، قال تعالى : (انما المؤمنون أخوة) ب ــ قوله عليه السلام في يوم خروج مشركي قومه الى عيدهم وتخلفه عنهم لما أراد هدم الأصنام (اني سقيم) وقد كان سقيم القلب حزناً عليهم لكفرهم وضلالهم .

ج ــ قوله عليه السلام عن الأصنام التي هدمها وترك كبيراً لهم على عاتقه الفأس دون هدم وسأله قومه (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون) . فأنت ترى أنه عليه السلام ما نفى التهمة عن نفسه صراحة ، ولكن اتهم الصنم الذي على عاتقه آلة التكسير ليقول لهم بعد (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) .

فهي ليست كذبات حقيقة، لكنها مخالفة للظاهر المتبادر لأول وهلة من مقتضى الكلام لدى السامع والله أعلم .

(٢) ما كان عليه السلام قد أمر بقتل أهل الكفر بعد ، ومع أن فعله وقع سهواً دون قصد =

غيري ، اذهبوا الى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه [١] وكلمت الناس في المهد اشفع لنا الى ربك ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنباً [٢] نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى محمد ، فيأتون محمداً فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله تلك ما تقدم من ذنبك وما تأخر [٣] اشفع لنا الى ربك ألا ترى الى ما نحن فيه ، فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي عز وجل ، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول أمتي يا رب أمتي يا رب ، فيقال يا محمد ادخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء للناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال والذي نفسي بيده ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير ، أو كما بين مكة وبصرى) متفق عليه واللفظ للبخاري .

النوع الثاني والثالث من الشفاعة . شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت

= حين أراد فصل ذلك الاسرائيلي المقاتل للرجل القبطي فضرب القبطي على صدره ضربة يسيرة كان فيها موته ، لذا قال عليه السلام (هذا من عمل الشيطان) ويقيناً انه لا يؤاخذ العبد على السهو والنسيان عند الله تعالى ، لكن هي النبوة والرسالة وأدبها السامي .

(١) معنى كونه روحاً منه سبحانه انه تعالى خلقه دون توسط اجتماع رجل وزوجته ، والا فجميع الأرواح لله تعالى هو خالقها والمتصرف فيها بما يشاء . قال تعالى في شأن آدم عليه السلام (ونفخت فيه من روحي) .

(٢) في رواية لأحمد والنسائي (قال : عيسى — إني اتُّخذت إلهاً من دون الله) . وقال تعالى له عليه السلام او يقول له يوم القيامة (أأنت قلت للناس اتّخذوني وامي إلٓهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) .

(٣) المراد ما كان منه من فعل خلاف الأولى ، والاجتهاد الديني الذي لم يوافق حكم الله تعالى ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم من الذنب الصريح المقصود صغيره وكبيره ، والله أعلم .

حسناتهم وسيئاتهم — وهم مسلمون — فيشفع لهم ليدخلوا الجنة ، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم الى النار — لزيادة سيئاتهم على حسناتهم — أن لا يدخلوها .

النوع الرابع شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم .

النوع الخامس : شفاعته ﷺ في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب ، ويحسن أن يُستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن مِحْصَن حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب . والحديث مخرج في الصحيحين .

النوع السادس : شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم في تخفيف العذاب عمن استحقه كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه — والحديث في مسلم — ، وقال القرطبي في / التذكرة / بعد ذكر هذا النوع ، **فان قيل** قد قال الله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) **قيل له** : لا تنفعه في الخروج من النار ، كما تنفع عصاة الموحدين الذين يُخرجون منها ويدخلون الجنة .

النوع السابع شفاعته ﷺ أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة ، وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال (أنا أول مشفع في الجنة) [1] .

وسيأتي لحديث الشفاعة تتمة في الكلام على الايمان باليوم الآخر ان شاء الله تعالى .

٥ — له ﷺ الخصائص العظمى التي لم يشاركه فيها نبي ولا رسول ، مثل الاسراء والمعراج ، وانشقاق القمر ، وامداده بالملائكة في بدر وغيره ، ونصره بالرعب من مسيرة شهر ، واحلال الغنائم له ، وبعثه الى الناس كافة ،

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية .

ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ ، واكثار الطعام القليل حتى ليكفي الجيش الكبير ، وتسبيح الحصى في كفه حتى ليسمعه من في مجلسه ، واظهار دينه على الأديان كلها بالحجة والبرهان ، وحفظ كتابه من التبديل والتحريف مهما حاول ذلك الأعداء ، واكمال الدين له ، وختم النبوات به في الحياة الدنيا ، والشفاعة العظمى والمقام المحمود والحوض ودخوله أول الناس الجنة في الآخرة [1] .

٦) وجوب محبته ﷺ :

حبا الله تعالى رسوله محمداً ﷺ فوق ما حبا اخوانه من المرسلين ، وأنعم عليه بمكارم ومنح فاق بها سواه ، فكان أفضل الخلق وأشرفهم ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين .

ولقد أمر الله تعالى المؤمنين بمحبته ﷺ فوق ما يحبون أنفسهم وأموالهم وأهليهم .

والمحبة تعلق القلب بالمحبوب وطلبه وانصباب القلب اليه وصفو المودة بحب ما يحبه المحبوب وفعله وبغض ما يبغضه المحبوب وتركه .

حين زعم المشركون أنهم يحبون الله تعالى كذبهم الله في دعواهم فقال (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) .

وذكر الله تعالى وجوب تقديم محبته ﷺ على ما دونه من الأهل والمال والوطن ، قال تعالى « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم

---

(١) ألفت تآليف في خصائصه صلى الله عليه وسلم منها / الخصائص الكبرى / للسيوطي ، و / دلائل النبوة / للبيهقي ، و / دلائل النبوة / لأبي نعيم الاصبهاني ، و/ دلائل النبوة / لعبد القاهر البغدادي . ولابن كثير ، وسوى ذلك كثير .

وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) . أي لا يرشد الخارجين عن محبة الله ورسوله ، الى موافقة نفوسهم وهوى متابعاتها / القاري / .

عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ اليه من ولده ووالده والناس أجمعين) . رواه البخاري .

وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال للنبي ﷺ : لأنت أحبُّ اليّ من كل شيء الاّ نفسي التي بين جنبيّ ، فقال له النبي ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه) . قال عمر : والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب اليّ من نفسي التي بين جنبيّ ، فقال النبي ﷺ (الآن يا عمر) . رواه البخاري . أي في هذا الزمان قد استقمت ايماناً وكملت ايقاناً [1] . وعن أنس رضي الله عنه تعالى أن رجلاً – قيل هو عمر وقيل أبو ذر وقيل أبو موسى وقيل غيرهم – أتى النبي ﷺ فقال متى الساعة يا رسول الله ؟ قال (ما أعددتَ لها) ؟ قال (ما أعددتُ من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله قال (أنت مع من أحببت) . متفق عليه .

* سئل علي رضي الله تعالى عنه : كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ ؟ فقال : كان والله أحب الينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ .

---

(١) عمر رضي الله تعالى عنه كسائر الصحابة يتعلمون الاسلام أحكاماً بعد أحكام ، فلا يؤاخذ أحدهم على ما لم يكن نزل بعدُ من الأحكام وهذا الحب المقدم حب شرعي تكليفي وهو ممكن في نفسه ، واجب بايجاب الله تعالى له ، مثل حب الجهاد شرعاً ، وبغض الأنا شرعاً .

ولا ريب أن الطاعة الخالصة عنوان المحبة ، والمتابعة دليل المودة ، وعلى قدر محبته ﷺ تكون متابعة شريعته واقتفاء سنته والاكثار من الصلاة عليه ﷺ .

شبهة كيف يكون محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، وقد وردت نصوص من القرآن والسنة تدل على نزول رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان ؟

كشفها نزول عيسى عليه السلام الى الأرض آخر الزمان حق لا ريب فيه يكفر جاحده ، وقد جاءت حقاً نصوص تدل على حقية نزوله عليه السلام ؛ وأورد بعضها هنا تقريراً للأمر وتوكيداً .

١) عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة أحب من الدنيا وما فيها) ثم يقول أبو هريرة واقرؤوا إن شئتم (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) . رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد وابن ماجه .

٢) عن جابر رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين الى يوم القيامة قال فينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقول أميرهم تعال فصلِّ فيقول لا : ان بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله لهذه الأمة) . رواه مسلم .

٣) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه ﷺ قال (ليهبطن ابن مريم حكماً عدلاً واماماً مقسطاً وليسلكن فجاً حاجا معتمراً وليأتين قبري حتى يسلم عليّ ولأردنّ عليه) . يقول أبو هريرة ايْ بني أخي ان رأيتموه فقولوا أبو هريرة يقرئك السلام . رواه الحاكم وصححه كما في الدر المنثور .

قال الامام ابن حجر في شرح الحديث (حكماً عدلاً) والمعنى أنه عليه السلام ينزل حاكماً بهذه الشريعة فان هذه الشريعة باقية لا تنسخ ، بل يكون عيسى عليه السلام حاكماً من حكام هذه الأمة ، وللطبراني من حديث عبدالله ابن مغفل (ينزل عيسى بن مريم مصدقاً بمحمد على ملته) [١] .

وقال العلامة القرطبي في كتابه / التذكرة / [٢] ذهب قوم الى أن بنزول عيسى عليه السلام ترتفع التكاليف لئلا يكون رسولاً الى أهل ذلك الزمان يأمرهم عن الله وينهاهم ، وهذا مردود لقوله تعالى (وخاتم النبيين) وقوله عليه الصلاة والسلام (لا نبي بعدي) وغير ذلك من الأخبار .

واذا كان ذلك فلا يجوز أن يُتوهم أن عيسى عليه السلام ينزل نبياً بشريعة متجددة غير شريعة محمد نبينا ﷺ ، بل اذا نزل عليه السلام فانه يكون حينئذ من أتباع محمد ﷺ كما أخبر ﷺ حيث قال لعمر (لو كان موسى حياً ما وسعه الا اتباعي) [٣] . فعيسى عليه السلام انما ينزل مقرراً لهذه الشريعة المحمدية ومجدداً لها اذ هي آخر الشرائع ومحمد ﷺ آخر الرسل [٤] .

قلت ويؤيد حكم عيسى بهذه الشريعة صلاته عليه السلام خلف الامام المهدي غداة نزوله من السماء على المغارة الشرقية من مسجد دمشق ، قوله للمهدي — حين يقوم ليتأخر عن الامامة ليقتدي بعيسى عليه السلام — : لا ان بعضكم على بعض أمراء .

أما بعد ، فنزول عيسى عليه السلام من الحقائق الشرعية المقررة التي

---

(١) فتح الباري / ٦ — ٣٥٦ / .

(٢) مخطوط وهو جيد ، والمطبوع مختصره للعلامة عبد الوهاب الشعراني .

(٣) هو بعض حديث (امتهوكون أنتم لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي) . رواه أبو داود .

(٤) انظر تعليق الشيخ عبد الفتاح ابو غدة على (التصريح بما تواتر في نزول المسيح / للعلامة الكشميري ، نقله عن / عون المعبود على سنن أبي داود .

يكفر جاحدها معاذ الله ، فلا تغتر أيها القارىء بتشويش متحررين ، أو قاديانية أحمدية ضالين ، أو جهال مخدوعين ، يجعلون من الاسلام أحياناً موائد سخيةً يختارون منها ما يشاؤون أو شيئاً معروضاً مبذولاً يفهمون منه ما يشاؤون .

ودونك كتاب التصريح بما تواتر في نزول المسيح / للمحدث العظيم والفقيه الفخيم مولانا محمد أنور الكشميري ، وقد حققه وعلق عليه وأضاف اضافات نافعات شيخنا الفقيه المحدث الأديب عبد الفتاح أبو غدة ، بارك الله تعالى في عمره وعمله وزاده من فضله .

فقد جمع الشيخ الكشميري /٧٥/ حديثاً في رفع عيسى عليه السلام ونزوله ، وصفته وغير ذلك . وأضاف الشيخ /١٠/ عشرة أحاديث سكت عنها المؤلف ، وأضاف /٢٥/ أثراً من أقوال الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

والكتاب حقاً أجمع كتاب في بابه يجد به القلب الطمأنينة التامة في تقرير ضرورة نزول عيسى عليه السلام ، ووجوب الايمان بذلك ، ويجد به القارىء الباده دليل الاقناع بوقوع هذا الأمر الجليل : والله أعلم .

شبهة : لقد نشأ رسول الله ﷺ ودعا حتى قضى في جزيرة العرب ، ورسالته للبشر جميعاً ، فما حال من لم تبلغه رسالته ﷺ أيجب عليه الايمان بما لم يسمع به ، أيكون من أهل النار من كان حاله كذلك ؟ والاسلام لا تكليف فيه بما لا يطاق ؟

كشفها :

حقاً ان رسول الله ﷺ نشأ ودعا وانتقل الى رحمة الله تعالى في جزيرة العرب لكنه قد خرج بدعوته في حياته من جزيرة العرب ، حين دعا هرقل والمقوقس وكسرى وغيرهم من غير العرب الذين لم يكونوا يسكنون جزيرة العرب .

وكانت الفتوح الاسلامية التي جاءت فاتحة طريق بيان دعوة الاسلام قولاً وعيشاً وحكماً ، وقد وصلت تلك الفتوح والاسلامُ معها الى الهند والصين وأوروبا شمالاً ووسطاً وجنوباً ودخلت أفريقيا ، وما استعصت عليها أمة والحمد لله .

لقد وصلت دعوة الاسلام حقاً الى قاصي الأرض ودانيها ، شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ، ومع ذلك فان الناس الى الآن بالنسبة الى الاسلام طوائف ثلاث .

١) طائفة بلغها الاسلام على حقيقته ، وبلغها من صفات رسول الله ﷺ وأخلاقه واكرام الله تعالى له بالمعجزات والظهور على الأعداء .

هذه الطائفة ملزمة بالدخول في الاسلام أياً كان دينها ، والا عُدَّت كافرة ، فان ماتت على ذلك فهي في النار ، قال الله تعالى (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم) أي القرآن الكريم .

٢) طائفة بلغها الاسلام مشوهاً مذموماً ، وبلغها عن رسول الله ﷺ كل وصف قبيح ، في نفسه وسلوكه مع الناس — معاذ الله — ولا سبيل لتلك الطائفة الى تعرف الحق في أمر الاسلام ، ورسوله ﷺ .

هذه الطائفة يُرجى لها عدم الزامها بالدخول في الاسلام ، لكن تُلزم بالمقام على دينها السماوي الصحيح القائم على تنزيه الله تعالى من الجسمية والصاحبة والولـــد .

٣) طائفة لم يبلغها أمر الاسلام مطلقاً ، ولم تعلم عن رسول الله ﷺ شيئاً ، لانقطاعها عن العالم . هذه الطائفة لا تكلف قطعاً بالدخول في الاسلام ، لأنه يكون تكليفاً بما لا يطاق لانعدام التبليغ [١] .

---

(١) انظر فيصل التفرقة بين الايمان والزندقة للامام أبي حامد الغزالي . رحمه الله تعالى .

لكن .. كم هو خطير قصور دعاة المسلمين وكبير ، أن لا يخرجوا بهذا الاسلام الى أرض الله تعالى القريبة والبعيدة ليبشروا بالاسلام ، ويعرفوا الناس على رسول الاسلام ، ليهدوا الناس الى دين الله الحق وينيروا لهم السبيل في العيش به ، وليقيموا عليهم الحجة ، وليدفعوا عن أنفسهم المسؤولية عند الله تعالى يوم القيامة .

كم هو خطير وكبير قصور مسلمي العرب — ودعاتهم خاصة — في الدعوة الى الاسلام ، والله تعالى يقول لرسوله ﷺ وللعرب ان الاسلام مجدهم وفخرهم وانهم سيسألون عن قصورهم في أداء هذا الواجب قال تعالى (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون) .

أين دعاة الخير ينتشرون في عمار الأرض وخرابها ، مدنها وقراها ، يدعون الناس الى الله تعالى كما ينتشر دعاة الكنيسة .. بل ودعاة مبادىء الأرض ومتألهة الأرض ؟ !

ما أعظم قصور المسلمين والعرب منهم خاصة في أداء هذا الواجب ، وهم يبصرون ارساليات الأديان والمبادىء المختلفة تلتقي بالدعوة الى أديانها ومبادئها ، ليس فقط في بلادها وبلاد الوثنيين وعباد الأصنام بل حتى في بلاد المسلمين ، بل في بلاد يمثل فيها المسلمون نسبة الكل في المجتمع / مائة في المائة / مثل شنقيط والكويت والبحرين وقطر .. !

.. وفي علماء المسلمين من لا يكادون يدلون الناس على الله تعالى حتى بين أمثالهم من المسلمين وقد ران عليهم الجهل ، وتميل بهم الأهواء كل ميل وإنا لله وإنا إليه راجعون .

والله المستعان للعودة الى دينه والعمل على نصره ونشره بكل وسيلة شرعية .

والله الموفق الهادي ..

مُعْجِزَاتُ الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام

أصل معنى المعجزة : هو الأمر الذي يظهر عجز الآخرين عن الاتيان بمثله، وهي في علم التوحيد : الأمر الخارق للعادة يظهره الله تعالى على يد مدعي النبوة وفق دعواه تصديقاً له في دعوى النبوة ، وكأن الله تعالى حين يفعل ذلك لعبده يقول للخلق : صدق عبدي في كل ما يبلغ عني ، ودليل ذلك تأييدي له .

ويفعل الله تعالى ذلك له ، يقوي بـه أمره ، ويدفع كل شبهة في صدقه [1] .

---

(١) خوارق العادة قسمان : قسم هو اكرام من الله تعالى للمؤمن ، وأنواعه ثلاثة أ) المعجزة وقد عرفناها خاصة بالانبياء . ب) الكرامة : وهي الأمر الخارق للعادة يظهره الله تعالى على يد أحد الصالحين او لسانه تأييداً له ، ويشترط لها عدم ادعاء النبوة . مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب جاء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل ان يرتد إليه طرفه . ج ــ المعونة وهي الأمر الخارق للعادة يظهره الله على يد او لسان مسلم مستور الحال عوناً له . وقسم ثان هو ادلال من الله تعالى للكافر أو العاصي المصرّ ،

حكمة المعجزات :

قضت حكمة الله تعالى بتأييد رسله بخوارق للعادة – لا تعتمد على الأسباب المعتادة – يستحيل على البشر الاتيان بمثلها بطريق الأسباب المعتادة مهما تقدموا في العلم وتفننوا في المعرفة .

ليكون ذلك :

* توكيداً من الله تعالى وتأييداً للرسول في رسالته ، في أنه مرسل من عند الله تعالى حقاً وصدقاً .

* برهاناً على الشاك في رسالة الرسول ليدفع الشك باليقين من الخوارق الدالة على الصدق .

* ليكون حجة يقوى بها ايمان المؤمنين في صدق الرسول في دعوى الرسالـــة .

* ليكون بياناً للمؤمنين على أن الله تعالى يفعل ما يشاء .. وان نظام الكون يسري على الخلق ، أما الله تعالى فله أن يغير من نظام هذا الكون ويعدله أو بعضه ، ويخرقه لمناسبة بما يتفق وإرادته سبحانه (وربك يخلق ما يشـــاء ويختـــار) .

* ولتبقى المعجزات نبراساً يرثه الأبناء عن الآباء في أن الله تعالى رحيم بعباده ودود لهم ، يؤكد لهم – وهو الغني عن العالمين – صدق رسالة رسوله ، فيتشبثوا به وبالنور الذي أنزل معه .. ولو لم يروا الرسول .. ولم يروا المعجزات .

امكان المعجزة في ذاتها ووقوعها حقاً :

حين ينظر الانسان الى هذا الكون العظيم وما فيه من حكم ودلائل عظمة ولطف . حين ينظر العاقل الى السموات وعظمتها وإحكام بنائها وأسرارها ، والى جوّ السماء وما جعل الله تعالى فيه من نجوم وكواكب لا يأتي عليها عدّ البشر فضلاً عن علمهم بها جميعاً .

* حين ينظر الى الانسان وما جعل الله تعالى فيه من حكم ولطائف وعجائب وأسرار ، وحين ينظر الى الحيوان وكيف خلقه الله تعالى على صفة يواجه بها الاقليم الذي يعيش فيه ، وطريقة يعيش بها ، ويكسب رزقه .

وحين ينظر الى النبات وما جعل الله تعالى فيه من دلائل عظمته وحكمه ، من حين تلقى البذرة في الأرض فتنتفخ وتنفتح على نفسها ثم تأخذ طريقها — وهي الضعيفة — في مجاهل الأرض وظلماتها هبوطاً ، وتفلق التراب القوي فترفع رأسها إلى الأرض ارتفاعاً ، ثم تكبر وتكبر حتى تصبح الدوحة والشجرة المثمرة أو النجم [1] الذي يُطعم .

* وحين ينظر العاقل الى المعادن المختلفة الأشكال والألوان ، والمتعددة الجواهر والمنافع وهي تزداد يوماً فيوماً ظهوراً ومنافع وخدمات .

* هذه النظرات العاقلة وأمثالها تدل حقاً على عظمة الخالق سبحانه وبديع صنعه وعظيم علمه وشمول قدرته وارادته ، فاذا أراد الأمر العظيم قضاه في الوقت الوجيز (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة . — انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

ان الذي خلق هذا الكون وجعل فيه ما جعل من ملك وإنسان وجن وحيوان ونبات وجماد لا يُعجزه أن يُظهر الأمور الخارقة للعادة والخارجة عنها على يد المرسلين المصطفين من عباده .

---

(١) النبات الذي لا ساق له .

لكن بعضاً من الذين غشيت أعينهم وغلفت قلوبهم وصمت آذانهم ، لا يرون في الخلق عظمة وحكمة لما اعتادوا على دوام رؤية ذلك ، ولا يرون تغير ذلك لما اعتادوا على عدم تغيره ، ويجهلون قدر الله تعالى وعظمته ، لذا يرون فيما يخرج عن عادتهم من شفاء المريض بدعوة عيسى عليه السلام ، أو فلق البحر بضربة موسى عليه السلام ، أو نبع الماء من بين أصابع نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، يرون في ذلك مخالفة للعقل واستحاله في الواقع ، وما هي حقيقة الأمر الا أمور خارقة للعادة ـ لا للعقل لا تقوم على الأسباب العادية المعروفة للبشر ، وخوارق العادات بأسبابها العادية شيء نراه كل يوم .

أين كان استعمال الكهرباء في البيوت والمعامل منذ مائة عام ؟ أين كان استعمال اللاسلكي على بعد ألوف الأميال منذ مائة عام ؟ أين كان نقل القلوب من صدورها واستبدالها بقلوب غيرها منذ مائة عام ؟! ثم حين وجدت هذه .. وأمثالها ، لم يقل أحد انها مخالفة للعقل مستحيلة في الواقع .. لكن قالوا خوارق وصل الانسان اليها بالعلم والآلة ..

وهذه نماذج من المعجزات ورد ذكرها في كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه ، ومن كفر ببعضه فقد كفر به كله ، قال الله تعالى مخاطباً اليهود المغضوب عليهم (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) .

١) معجزة ابراهيم عليه الصلاة والسلام :

دعا براهيم عليه السلام قومه الى توحيد الله تعالى بالعبادة والقصد ، والامتثال لأمره وطاعته والانقياد لأحكامه ، فعارضوه ، وعادوه ، أراهم عليه السلام باطلهم فيما يعبدون من دون الله تعالى من كوكب وشمس وقمر ، لأنها تشرق وتغرب ، ولا يكون المعبود بحق ذلك الذي يجري عليه الإذهاب

والمجيء به ، وتجري عليه الحوادث ويسري عليه نظام لا خيرة له في الخروج عليـــه .

ولما أعجزهم عليه السلام بحجته وأصروا على باطلهم ، جاء الى أصنامهم التي يعبدونها من دون الله — مع ما عبدوا من كوكب وشمس وقمر — فحطمها .. وحاجّهم وحجّهم حين اعترضوا عليه في ذلك : أنها لا تدفع الضر عن نفسها فكيف عن غيرها فأنى تعبد من دون الله تعالى ؟!

وأقروا له بالحق ومضة برق اتجهوا أثناءها إلى لوم أنفسهم ، ثم نكسوا من جديد وعادوا الى باطل ما كانوا عليه .. ولما سُقط في أيديهم على باطلهم أمام حجته ، وعلى ضلالهم تجاه هدايته وخشوا على دعوة الباطل أن تزول (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) .

ألقوه عليه السلام في النار التي أوقدوها بما جمعوا من حطب كثير .. فجعلها الله تعالى برداً وسلاماً على خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، فلم تحرق الا قيوده وثيابه — لذا كان ابراهيم عليه السلام أول من يُكسى يوم القيامة —

بقي عليه السلام في تلك النار حتى خمدت .. ثم خرج — والكفار في عناد عجيب وجحود مستكبر — من بلده وهو يقول (اني ذاهب الى ربي سيهدين) .

لا يرى العقل في هذه المعجزة من نكر وبُطل ! انه يرى فيها فقط خُلف العادة لا خلف العقل وهذا إنسان اليوم يصنع ثياباً معينة يدخل لابسها النار ولا يحترق !

ويبقى الفرق بين المعجزة وجديد فعل الانسان : ان المعجزة تكون من الله تعالى دون اتخاذ الأسباب العادية . وجديد فعل الانسان يكون بأسباب العلم والمعرفة .. ويتكرر كلما تكررت تلك الأسباب .

قال الله تعالى :

وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) .

الأنبياء / ٥٦ — ٧٠ /

٢) معجزة موسى عليه السلام :

ودعا موسى عليه السلام فرعون الطاغية وقومه الى عبادة الله تعالى وحده ، وامتثال أمره ، والى رفع الحيف عن بني اسرائيل ، فعارضوه ، وقابلوا الحق الذي جاءهم به بالسحر والتخييل الباطل ليدحضوا به الحق .. فجعل الله تعالى من معجزة موسى عليه السلام قلب عصاه ثعباناً يلقف ما يأفكه سحرة فرعون من أحبال الزئبق التي ألقوها على الأرض المحماة فجعلت تتراقص وترتفع وتتربط بعامل الحرارة .. ولما سقط في أيدي السحرة على باطلهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، تابوا وأسلموا لله تعالى ، وكفروا بما كانوا به مشركين مع الله من قبل ، وقالوا لفرعون لما تهددهم بالقتل والصلب ، واتهمهم بموالاة موسى عليه السلام خيانة له (وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) .

لكن فرعون تمادى في غيه وكابر في عناده ؛ .. فدعا موسى عليه السلام على فرعون وقومه بما قد يبكتهم في كفرهم ، ويفتح عيونهم على الحق الذي يحاربونه ، وكان ما حكى الله تعالى في القرآن الكريم (وقالوا مهما تأتنا به من لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون) . الأعراف / ١٣١ ــ ١٣٥ / .

ولما أن أراد فرعون وجماعته البطش بموسى عليه السلام وقومه خرج عليه السلام بقومه ليلاً من مصر ، فاتبعهم فرعون وجنوده ، فلما دخل موسى عليه السلام وقومه الى البحر الأحمر التفت قومه الى الوراء فقالوا يا موسى انا لمدركون ، فقال لهم عليه السلام (كلا ان معي ربي سيهدين) الى ما ينجينا منهم ، فهداه الله تعالى الى ضرب البحر بعصاه فانفلق له من البحر اثنا عشر طريقاً يبساً آمناً فسلكوا فيه والبحر بجوارهم كالجبل قد منع الله تعالى موجه من الوقوع على تلك الطرق حتى وصلوا الطرف الآخر من البحر وخرجوا منه ، ولما رأى فرعون وقومه هذا الأمر الخارق خاضوا هم في البحر ، حتى اذا أصبحوا فيه أطبق عليهم البحر فغرقوا فيه جميعاً .. وأضحت جثثهم الكافرة طعام السمك ونجى الله تعالى جسد فرعون فألقى به البحر الى الشاطىء ليكون آية للناس على قدرة الله تعالى ، وأن الكافر مهما طغا وتعاظم فلا يدفع عذاب الله تعالى عنه جند ولا سلطان (وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) .

لا يرى العقل في هذه المعجزة من نكر وبطل ! انه يرى فيه خلاف العادة والخروج على المألوف ليس غير .

انه من الأمور المعقولة أن يكثر الله تعالى القمل والجراد والضفادع على قوم حتى يزحمهم في حياتهم : كالفئران المقدسة في الهند اليوم وهي تبلغ مليوني فأر ــ انه من الأمور المعقولة أن تصنع الحواجز المانعة من وصول

أمواج البحر الى اليابسة يتخذ منه ميناء أو خليج في البحر ، والواقع يدل على أن ظاهر الماء يجمد في مناطق وان الناس يسيرون على ظهره رجالاً وراكبين .

ويبقى الفرق الذي نذكره بين المعجزة وفعل البشر ان المعجزة أمر خارق للعادة يتم بدون الأسباب العادية المعروفة للبشر ، وان البشر لا يصلون الى فعل مثل ذلك الخارق بدون الأسباب المعروفة ، فلا يوصف بالمعجزة فعل البشر ، ولا يقال عن فرد أو جماعة انهم يصنعون المعجزات ، فان المعجزة صنع الله سبحانه لرسول على الطريقة التي ذكرنا .

٣) معجزة داود عليه السلام :

كان داود عليه السلام راعياً ــ فلما نشب القتال بين مؤمني بني اسرائيل الذين طلبوا القتال ــ وثبت قليلهم على طلبهم ــ وبين الظالم جالوت ، أمكن الله تعالى داود عليه السلام من جالوت فقتله وتولى الملك في قومه .

وكان من قوة الجسم أن الله تعالى ألان الحديد في يده ، وكان يثنيه كما يشاء حيث يصنع منه دروعاً للقتال .

وقد أكرمه الله تعالى بقوة ثالثة وهي قوة الصوت وحسنه ، الى حدّ أن كانت الجبال والطير تؤوِّب وتذكر الله تعالى معه اذا قرأ الزبور بصوته الندي الجميل ، والذي شبهه النبي ﷺ بالمزمار فيما مدح به قراءة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في تلاوته القرآن الكريم وقال له (لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود) . البخاري .

قال الله تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنّا له الحديد ان اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً اني بما تعملون بصير) سبأ ١٠ ــ ١١ . وقال (اصبر على ما يقولون واذكرنا عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) . ص /١٨ ــ ١٩/.

أنظر رعاك الله تعالى ! لقد أكرم الله تعالى داود عليه السلام بما يخالف العادة والواقع فقط وليس بما يخالف العقل والمنطق بحال .

ولا وجه لانكار تلك المعجزة الكريمة ، فانا لنرى انسان اليوم وقد علمه الله تعالى اذابة الحديد بواسطة أفران على درجات من الحرارة .

انا لنرى الحيوان — والابل خاصة — والطير — والبلبل خاصة — يطربها الصوت ويهزها حتى يقتلها أحياناً .

ويبقى الفرق الذي ذكرناه بين المعجزة .. وفعل البشر قائماً ،

٤) معجزة سليمان عليه السلام :

أكرم الله تعالى داود فرزقه ولداً هو سليمان عليهما السلام ، وجعله معه نبياً ، وآتاه الله تعالى العلم والحكمة ، ثم ورث أباه في الملك والحكم ، وعلمه الله تعالى لغة الطير ، وأسمعه كلامه ، وجعله هو قادراً على أن تسمع منه عليه السلام وتفهم عنه .

أكرمه الله تعالى بأن سخر له طائفة من الجن تعمل له الأعمال الثقيلة العسرة التي قد يعجز عنها البشر وأكرمه عليه السلام بمظاهر القوة وعناصرها ، فأتاح الله تعالى الريح تجري له رخاء لينة حيث يشاء ، تنطلق إلى مسيرة شهر ذهاباً ومثلها إياباً ، فكان عليه السلام يركب الريح ليصل الى عدوه فيهزمه باذن الله تعالى ، وأسال الله تعالى له عين القطر .

قال الله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس عُلمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون . حتى اذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك

التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) . النمل / ١٦ – ١٩ / .

وقال (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) . سبأ / ١٢ – ١٣ / .

يعلم الانسان أن للطير والحيوان لغات يتفاهمون بها من اشارات وأصوات وحركات ومناجاة فلا يمنع شيء عقلاً أن يعلم الله تعالى نبياً من أنبيائه ، وأن يجعل له من دقة السمع ما يسمع به صوت النملة وكلامها ، فهؤلاء مربو الطير والحيوان والذين يستعملونها في ألعابهم يعرفون من أصوات الطير والحيوان واشاراتهم دلائل ولغات .

اللهم ان العقل لا يرى استحالة ما أكرم الله تعالى به النبي سليمان عليه السلام من خوارق العادات ، التي ذكرناها ، لكنه يراها بعيدة عن العادة والواقع ، وهل المعجزة الا خرق العادة والواقع دون الأسباب العادية المعروفة .

٥) معجزة عيسى عليه السلام :

وأرسل الله تعالى عيسى عليه السلام الى قومه بني اسرائيل ، وقد قست قلوبهم وخرجوا عن أمر ربهم وعصوا رسله ، يدعوهم الى عبادة الله تعالى وحده ، وامتثال أمره سبحانه وحده ، وطاعته هو فيما يأمر به من ربه ، فآثر الضالون من بني اسرائيل ما هم عليه من انكار للتوحيد ، أو تشويه له ، في تشبيهه سبحانه بخلقه ونسبه – تعالى – الى النقص والضعف والمحاباة والظلم والبخل ، آثروا ذلك على ما أمرهم به عيسى عليه السلام .

وآثر من كان في فلسطين من الرومان ما هم عليه من عبادة الأوثان واشراكها مع الله تعالى في جلب النفع ودفع الضر (تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً) .

خلق الله تعالى عيسى عليه السلام من أم دون أب بواسطة نفخ جبريل عليه السلام في جيب صدرها بأمر الله تعالى ، فحملت به أمه رضي الله عنها مدة ثم وضعته صبياً كسائر الصبيان ، كل ذلك ليكون آية على قدرة الله ورحمته سبحانه بخلقـه .

وكبر عيسى عليه السلام فدعا قومه الى الله تعالى ، وأصر جل قومه على الكفر وعاندوا على الكبر فقضت حكمته أن يصنع الله له معجزات تكون للمؤمنين شارة صدق ، وتكون للكافرين منارة وهدى .

أمره الله سبحانه أن يصنع صورة طير من الطين وأن ينفخ فيها ففعل فكان طيراً باذن الله تعالى وأحيا له بعض من مات باذنه تعالى وأبرأ له الأكمه والأبرص من الناس ، ليكون آية على صدقه عليه السلام فيما يبلغ عن ربه .

قال الله تعالى (ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه [1] من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) . التحريم /١٣/ .

وقال تعالى (إذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . ورسولاً الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآيةمن ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموت باذن الله وأنبئكم بما تأكلون ومـا تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) . آل عمـران / ٤٦ ــ ٥٠ / .

عيسى عليه السلام رسول من البشر خلقه الله تعالى من أم دون أب ،

---

(١) نفخ جبريل عليه السلام في جيب صدرها بروح الحياة من عند الله تعالى . وارواح الخلق كلهم لله تعالى .

وعلى صورة نفخ الروح في جيب الصدر ، وليس هذا أمراً عجباً من الله تعالى الذي يفعل ما يشاء ! لا يسري عليه ما وضعه على عباده من نظم ورتب عليها من الأحكام ، بل ليس عجباً أن يخلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين دون أم أو أب .. ثم ينفخ فيه الروح فيكون بشراً سوياً .

وكل المخلوقات تخلق بأمر الله تعالى لكن معظمها بوسائط معروفة ، وقليلها بالأمر المباشر دون وسائط كآدم وحواء وعيسى عليهم السلام .

وكل المخلوقات تُخلق بأرواح من الله تعالى فان الأرواح كلها ملك لله تعالى ، قال الله تعالى (وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً منه) . أي ابتداء منه سبحانه ، وليس المراد أن السموات والأرض بعض من الله تعالى ، فيكون الكون كله هو الله كما زعم الملاحدة من أهل الحلول والاتحاد قديماً وحديثـاً .

تعالى الله وتقدس أن تكون له صاحبة أو يتخذ ولداً وما ينبغي ذلك لله سبحانه فان جميع ما في السموات والأرض من خلقه ، ولا يكون أن يخلق سبحانه بعضاً له أو مثلاً له ، معاذ الله .

قال الشيخ عبدالله سراج الدين : معنى كون عيسى عليه السلام (كلمة الله) أنه أثر كلمة الله تعالى التكوينية (كن) قال تعالى (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) . فالملقى على مريم عليها السلام أثر الكلمة وهو عيسى عليه السلام المخلوق لأنه حكم عليه أنه مُلقى ، فلو كان المراد أن عيسى نفس الصفة القائمة به سبحانه فكيف يُلقى على مريم ، إذ الصفة لا تفارق الموصوف الى غيره . اهـ [1] .

ومعنى كونه عليه السلام (روحاً) أن عيسى عليه السلام روح ابتداءُ خلقها من الله تعالى لا أنه بعض من الله سبحانه ، فمن للابتداء والصدور لا

(١) عوالم الآخرة ص ٧٦ .

التبعيض والتجزئة ، بل هذا مثل قوله تعالى (سخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً منه) أي ابتداء خلقه منه .

فمن فهم أن عيسى عليه السلام من الله تبعيضاً وتجزئة وجب عليه أن يحكم على العالم كله بأنه بعض من الله وجزء منه ، لأن هذا منه سبحانه ، وهذا منه سبحانه .

وعلى هذا فلا فرق بين عيسى عليه السلام وبين سائر الحيوانات ، لأنها على هذا كلها أبعاض من الله وأجزاء ، وهذا غاية الجنون ، وسبحان الله وتقدس عن شوائب النقص والحدوث ، ولا شك أن المراد بقوله (وروح منه) أنها صدرت ابتداء خلقها من الله ، وهـــذا نظير قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) فالمراد أن هذا الكتاب ابتداءً منه نزل علينا . اهـ [1] .

هذه معجزات أكرم الله تعالى بها نبيه عيسى عليه السلام لا ينكرها العقل ولا ينفيها بحال ، وما وجه انكار العقل في أن يجعل الله تعالى في يد عبده حيناً وباذنه بعض ما هو له سبحانه في كل حين ، ثم لا يكون ذلك الفعل في العبد حين يكون الا باذنه سبحانه وارادته .

وهذا الطب يتقدم اليوم الى ما كان يُرى مستحيلاً عادة منذ سنين قليلة ، وهذه أجهزة الارسال وآلات التصوير تصل اليوم الى ما وصلت من عجيب ، والناس لا ينكرون هذا ..

فليؤمنوا بما أكرم الله تعالى به عيسى عليه السلام دون تلك الوسائط المعروفة للبشر .

ولربما كانت معجزات عيسى عليه السلام مزلة أقدام ومزلقة أفهام

---

(١) عوالم الآخرة ٧٠ ـــ وانظر روح المعاني للآلوسي / ٦ ـــ ٢٥ / وما بعده فقد اطال في بيان الحق واجلائه في هذا الأمر ـــ والحمد لله .

الضعاف . فألّهوه عليه السلام ، لذا أخبرنا سبحانه انه سائله عليه السلام يوم القيامة أهو الذي دعا الناس الى عبادته هو وأمه مع الله تعالى ؟ فينفي ذلك طبعاً لأن ذلك ليس من حقه .

فليكن هذا الجواب منه عليه السلام دافعاً للآخرين أن يقولوا ببشريته وعبوديته لله سبحانه . قال الله تعالى (واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب ما قلت لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) . المائدة .

وقد جاء تصريح القرآن الكريم بكفر من زعم أن عيسى عليه السلام هو الله ، أو انه عليه السلام ثالث ثلاثة ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً) . قال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم .. لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من اله الاّ اله واحد) . المائدة .

وحين قصدوه عليه السلام بالكيد والقتل نجاه الله تعالى ورفعه الى السماء بجسده وروحه يحيا هناك حياة الملائكة الأبرار ، ثم يكون نزوله آخر الزمان — كما تقرر ذلك من قبل — .

وأي احالة في العقل أن يرفع الله تعالى رسوله الى السماء ، وها هو انسان اليوم يطمع أن يجعل بعض الكواكب مسالك له في المستقبل ، وها هو الانسان يكتفي عن الطعام بحبوب صغيرة تكفيه عن طعام الناس . ولقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن طعام المسلمين حين ظهور المسيح الدجال يكون التسبيح .

قال الله تعالى (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين [1] اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم

---

(١) اي قول اليهود المغضوب عليهم .

به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه ويقيناً بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزاً حكيماً . وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) . النساء / ١٥٧ – ١٥٨ / .

٦) معجزة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم :

لقد أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، مصدقاً بشريعته ما سلفه من الشرائع ، ومؤكداً بكتابه ما سبق من الكتب .

أرسله الله سبحانه الى الناس كافة ، وختم به الرسالات فلا نبي بعده ولا دين بعد دينه ، قال تعالى (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) .

ولقد أكرم الله تعالى هذا الرسول الخاتم بنوعي المعجزة الوقتية والباقية .

المعجزة الوقتية : هي التي تكون في فترة من الزمن ، وتذهب بذهاب تلك الفترة من الزمن . ومعجزات الرسل التي ذكرناها وأمثالها مما ورد في القرآن الكريم أو صحت به السنة جميعها معجزات وقتية .

المعجزة الباقية : هي المعجزة التي تكون في فترة لكنها تستمر لكل فترة ، لا يمحوها الزمان ولا يذهب بها الليل والنهار ، هذه المعجزة هي القرآن الكريم وحـــده .

ولقد عني رسول الله ﷺ بذكر هذه المعجزة حتى وكأنها المعجزة الوحيدة له حين قال (ما من الأنبياء نبي الا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله الي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة [1] .

---

(١) رواه البخاري ، والعجب ان نجد متحررين يزعمون بهذا الحديث ان الله تعالى لم =

يمكننا أن نقسم المعجزات الوقتية لنبينا محمد ﷺ الى سماوية وأرضية ، ونتوع الأرضية منها الى بشرية وحيوانية وجمادية .

ونحب أن نذكر هنا لكل منها مثالاً واحداً أو أكثر . والله المستعان .

أ ــ المعجزة السماوية ــ انشقاق القمر :

على ثماني سنوات من بدء دعوة رسول الله ﷺ ، وفي ليلة مقمرة .. نظر أبو جهل الى القمر في اكتماله ــ والرسول ﷺ قريب منه ــ فقال يا محمد : ان قدرت أن تشق لنا هذا القمر لنؤمنن لك . فسأله رسول الله ﷺ أن يصدقوا في هذا الطلب والوعد ، فقالوا صدقنا ، ان أنت فعلت ذلك لنؤمنن ، فسأل النبي ﷺ ربه ذلك ، فأعطاه اعذاراً من الله تعالى اليهم ، وتصديقاً لنبيه ﷺ في دعوى النبوة ، وإبلاغه الدين من الله تعالى ، فأصر المشركون على شركهم ، وقالوا انه سحر قوي أخذ عيونهم وعيون أمثالهم . وقد حكى الله تعالى ذلك ومقالتهم ، فقال (اقتربت الساعة وانشق القمر وان يروا آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر) .

روى الشيخان وابن جرير عن أنس رضي الله تعالى عنه أن أهل مكة سألوه عليه الصلاة والسلام آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما) . وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة على الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله ﷺ اشهدوا) .

ومن حديثه أيضاً : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة ، فقال رجل انتظروا ما يأتيكم به السفار فان محمداً

= يصنع لرسوله الخاتم معجزة سوى القرآن الكريم ، وينسون ما ذكر الله تعالى منها في القرآن الكريم فضلاً عما ورد في متواتر السنة ومشهورها .

لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فأخبروهم بذلك) . رواه أبو داود والطيالسي ، وفي رواية البيهقي (فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا رأيناه ، فأنزل الله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) .

أمر انشقاق القمر لرسول الله ﷺ أمر متواتر لا يمتري فيه مسلم . قال الامام السبكي في شرحه مختصر ابن الحاجب : الصحيح عندي أن انشقاق القمر منصوص عليه في القرآن الكريم مروي في الصحيحين وغيرها من طرق شتى بحيث لا يمترى في تواتره ا هـ [1] .

وقال الآلوسي رحمه الله تعالى : ثم ان القمر بعد انشقاقه لم يُفارق قطعتاه السماء بل بقيتا متباعدتين تباعداً ما لحظة ثم اتصلتا ، وما يذكره بعض القصاص من أنه دخل في جيب النبي ﷺ وخرج من كمه فباطل لا أصل له كما حكاه الشيخ بدر الدين الزركشي عن شيخه العماد بن كثير ، ولعنة الله على من وضعه . وما في خبر أبي نعيم الذي أخرجه من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه انشق القمر قمرين أحدهما على الصفا والآخر على المروة قدر ما بين العصر الى الليل ينظرون اليه ثم غاب لا يعول عليه ، كيف وقد تضمن ذلك الخبر أن الانشقاق وقع بطلب أحبار اليهود ، وأن القائل (هذا سحر مستمر) هم . وهو مخالف لما نطقت به الأخبار الصحيحة الكثيرة كما لا يخفى على المتتبع .

وقد شاع أن النبي ﷺ أشار الى القمر بسبابته الشريفة فانشق، ولم أره في خبر صحيح . والله أعلم . وقال بعد قليل : والحاصل أنه ليس للمنكر سوى الاستبعاد ، ولا يستطيع أن يأتي بدليل على الاستحالة ولو انشق ، والاستبعاد في هذه المقامات قريب من الجنون عند من له عقل سليم [2] . لأن الله تعالى هو الذي يأتي بالمعجزة وليس البشر ، والله تعالى مالك كل شيء ، فعال لما يريد (انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

---

(١) روح المعاني / ٢٧ ــ ٧٢ / باختصار .
(٢) المصدر نفسه / ٢٧ ــ ٧٥ .

ب – الاسراء والمعراج :

* كان من فجور كفار قريش واستهزائهم بالرسول ﷺ أن طلبوا منه آيات – ما يقصدون بطلبها الايمان به ﷺ بعد أن يجيبهم الى ما طلبوه ، ولكن يقصدون تعجيزاً أو سخرية – أن ينبع لهم الماء من الأرض ، وأن يرقى في السماء وأن ينزل منها بكتاب يقرؤونه يخبرهم الله تعالى فيه بصدقه ﷺ في نبوته ، فما بالاهم الرسول ولا سأل ربه فيهم شيئاً .

* وكان ﷺ قد فقد نصيريه من أهل الأرض ، خديجة رضي الله عنها أم أولاده وأحب نسائه اليه ، وأبا طالب عمه ، وقد سمى هذا العام عام الحزن لشدة ذلك على رسول الله ﷺ ، فضاقت به ﷺ حال الدعوة ، فخرج الى ثقيف في الطائف وليس معه الا زيد بن حارثة حيث أقام شهراً يدعو الى الله تعالى ، ويطلب من أهل الطائف حمايته حتى يبلغ دين الله تعالى الى الناس .

فقابلوه مقابلة سوء ، صفوا الأطفال والعبيد على جانبي طريق خروجه ﷺ من الطائف ليسبوه .. ويؤذوه ، ويرموه بالحجارة ، حتى دميت قدماه ﷺ .

ولما أراد دخول مكة المكرمة لم يمكن من دخولها الا في جوار مشرك .

فقضت حكمة الله تعالى وسابغ فضله ، أن يُسرى به ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة الى المسجد الأقصى بالقدس ، وأن يصلي ثمة ببعض الأنبياء والملائكة اماماً ، ثم ينصب له المصعد (المعراج) فيصعد الى السماوات العلى وما فوقها ، لكي يريه الله تعالى من آياته الكبرى .. ويأمره بالعبادة الكبرى وهي الصلاة في اليوم خمس مرات .

فكان ذلك خير عوض عما لقيه ﷺ من أذى وشعر به من حرمان بفقد زوجه وعمه ، وخير بيان لتكريم الله تعالى رسوله ﷺ ومكانته عنده ، وجواباً

على سؤال المشركين — سخرية وتعجيزاً — أن يرقى في السماء ، وأن يأتيهم بكتاب من عند الله يشهد بصدق نبوته .

قال الله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) .

لقد أرى الله تعالى رسوله ﷺ آيات عظيمات في رحلته العظيمة تلك من حين خرج من بيت أم هانىء في مكة حتى وصل سدرة المنتهى التي يغشاها من الأنوار والألوان ما لا يعلمه الا الله تعالى ، وثمة جنة المأوى تأوي اليها أرواح المؤمنـــين .

فلقد أرى الله تعالى رسوله ﷺ أقواماً يعذبون قبل أن تقوم الساعة لذنوب أذنبوها ، فأراه سوء عاقبة التغافل عن الصلاة حتى يخرج وقتها ، — فكيف عاقبة تاركها ؟ — أراه عقوبة أكلة الربا المعتدين على أموال اليتامى ، أراه عقوبة الزناة الدين يدعون ما حل لهم من الأزواج ويقعون في اعراض الناس معاذ الله .

وأراه غير ذلك، ليكون العاقل على حذر منها وتوقٍ لها ، كما أراه ﷺ حسن عاقبة المجاهدين في سبيل الله تعالى من أنهم يزرعون وسرعان ما يحصدون ، ليكون العاقل على رغبة في الجهاد ويعد له نفسه وقلبه وجسمه حتى اذا دعاه الامام الى الجهاد كان من المبادرين الى ذلك الباب العظيم من أبواب الجنة .

والراجح أن رؤية رسول الله ﷺ لأولئك كان تمثيلاً لبيان ما سيقع لهم في الحياة الآخرة ، فان الله قد بين في مواضع من القرآن الكريم أن ثواب المؤمنين في قبورهم ، وعقاب الكافرين في قبورهم انما هو عرض وبيان لمواطنهم في الآخرة ، قال الله تعالى في شأن أخنع الناس وأشد الكفار عذاباً في الآخرة وهو فرعون موسى وجماعته (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) .

عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار) . رواه ابن منده .

وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ لما مات أبو سلمة (اللهم افسح له في قبره ونور له فيه) رواه مسلم .

والراجح أن اجتماع رسول الله ﷺ ببعض الرسل في المسجد الأقصى وصلاته بهم ، واجتماعه ببعضهم في السموات كان تمثيلاً ، مثلت أرواحهم في أجساد هنا وهناك ، وقيل كان الاجتماع بأرواحهم وأجسادهم التي كانت لهم في الحياة الدنيا ، فان الله تعالى يحفظ أجسادهم فلا يصل اليها بلى ولا تحول إلى تراب . قال رسول الله ﷺ (خير أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا من الصلاة عليّ فان صلاتكم تبلغني) قالوا يا رسول الله كيف تبلغك صلاتنا وقد أرمت – يقولون بليت ؟ – فقال ﷺ (ان الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) رواه أبو داود .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (مررت ليلة أسري بي على موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره) . رواه مسلم والنسائي .

كانت رحلة الاسراء والمعراج في ليلة واحدة ، ورجح النووي أنها كانت في الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب في السنة الحادية عشرة للدعوة ونقل الاجماع عليه ، وعلى هذا كثير من العلماء قديماً وحديثاً ، وقد تلقاه المسلمون بالقبول . ولم يصح أن الاسراء والمعراج كانا في لحظة يسيرة حيث يضرب لذلك مثل لا يُعقل . وهو أن الرسول ﷺ حين انطلق به البراق من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى لمس نبتة فتحركت ، فما زالت في تحركها حتى عاد رسول الله ﷺ من رحلته تلك وما زالت النبتة في اضطرابها وتحركها .. !

ولا يصح ما ينسب الى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن له رسالة في

(الاسراء والمعراج) ، بل انها من وضع الزنادقة الذين يريدون تشويه الاسلام ، والحاقه بالأساطير ، ولقد نص السيوطي في (تدريب الراوي) على أن تلك الرسالة ليست لعبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وعلى ذلك فلا يقبل ما جاء في تلك الرسالة التي تطبع كثيراً باسم (معراج ابن عباس) وهي ملفقة عليه من وصف السموات أن احداها من ذهب وأخرى من فضة وثالثة من حديد وهكذا .

وما ورد التنصيص على مادة السموات في آية ولا حديث صحيح ، وورد وصف السموات أنها بنيت بقوة ، وان فيها طرقاً وان لها أبواباً وحرساً وأنها متطابقة بعضها فوق بعض ، الخ : ولا يصح ما نسب الى معاوية رضي الله تعالى عنه أن الاسراء والمعراج كانا مناماً ، لأن معاوية وقت الاسراء كان مشركاً ، ولأن مسند الخبر إليه لم يلتق به ، فابن اسحق راوي الخبر لم يلتق بمعاوية الذي توفي سنة ستين من الهجرة .

ولا يصح كذلك ما نسب الى عائشة رضي الله تعالى عنها أن جسد رسول الله ﷺ لم يغادر فراشه تلك الليلة ، فانها كانت عام الاسراء في السادسة من عمرها ، وابن اسحق راوي الخبر لم ينسب الخبر اليها وانما نسبه الى بعض آل أبي بكر لا الى عائشة ولا الى أبيها رضي الله تعالى عنهما .

لقد كان الاسراء والمعراج في ليلة واحدة ، بجسده وروحه ﷺ ، وقد أجمع العلماء على أن منكر وقوع الاسراء بالجسد والروح معاً كافر مرتد عن الاسلام ، لانكاره صريح القرآن في قوله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده) . وأجمعوا على أن منكر وقوع المعراج بالجسد والروح معابل بالروح فقط فاسق مبتدع لأنه أنكر ما أشار اليه القرآن ، وما صح من أحاديث مشهورة لم تبلغ حد التواتر .

الاسراء والمعراج بالروح والجسد خرق للعادة وليس مخالفة للعقل : فهذا

إنسان اليوم يدفع صاروخاً يطير بسرعة خمسين الف ميل في الساعة بطريقه الى القمر ، وهذه الطائرة تطير بسرعة سبعة آلاف كم في الساعة ، وهي من صنع البشر ؟ !

فلا يعجز الله تعالى أن يسري برسوله ويعرج به في ليلة واحدة مسافات ومسافات دون الوسائط المعروفة للبشر ، فانه على كل شيء قدير (انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

٢ ــ معجزات أرضية :

أ ــ الحيوان : أخرج الطيالسي وابن سعد وابن أبي شيبة والبيهقي وأبو نعيم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي مُعَيْط بمكة ، فأتى عليّ رسول الله ﷺ وأبو بكر قد فرا من المشركين ، فقالا يا غلام عندك لبن تسقينا ؟ قلت اني مؤتمن فقالا هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد ؟ قلت نعم ، فأتيتهما بها فاعتقلها أبو بكر وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فمسحه ودعا ، فحفل الضرع ، فأتاه أبو بكر بصخرة مقعرة فحلب فيها ثم شرب هو وأبو بكر وسقاني . ثم قال للضرع اقلص فقلص كما كـــان .

* أخرج البخاري في التاريخ والبيهقي وأبو نعيم عن اهبان بن أوس قال : انه كان في غنم له فشدّ الذئب على شاة منها ــ هجم عليها ليفترسها ــ فصاح عليه ، فأقعى ــ أي الذئب على ذنبه قال فخاطبني فقال : من لها يوم تشغل عنها أتنزع مني رزقاً رزقنيه الله ؟ قلت : والله ما رأيت شيئاً أعجب من هذا ؟ قال وتعجب ورسول الله ﷺ بين هذه النخلات يحدث الناس بأنباء من قد سبق ، وأنباء ما يكون وهو يدعو الى الله والى عبادته ، فأتى اهبان النبي ﷺ فأخبره فأسلم . رضي الله عنه .

ب – خضوع الشجرة [1] روى مسلم من حديث جابر الطويل وفيه قال (ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فلم ير شيئاً يستتر به ، فاذا بشجرتين بشاطىء الوادي ، فانطلق رسول الله ﷺ الى احداهما فأخذ بغصن من أغصانها ، فقال انقادي اليّ باذن الله ، فانقادت حتى إذا كان بالمنصف – وسط الطريق بينهما – قال (التئما عليّ باذن الله فالتأمتا عليه) .

* حنين الجذع . كان رسول الله ﷺ اذا خطب في الناس قام يستند الى جذع من جذوع المسجد النبوي ، فلما كان السنة السابعة أو الثامنة للهجرة وكثُر المسلمون ، اقترح سعد بن عبادة عليه ﷺ اتخاذ منبر يقوم عليه ويرتفع اذا خطب في الناس فوافق ﷺ ، فكان ما رواه البخاري وغيره عن جابر رضي الله تعالى عنه قال (كان جذع يقوم اليه النبي ﷺ فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار – الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر ، فاذا حمل عليها حنت تحت الثقل – حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت) . وما رواه أنس رضي الله عنه قال :

كان رسول الله ﷺ يقوم الى جذع فلما اتخذ المنبر وقعد عليه خار الجذع كخوار الثور حتى ارتج المسجد بخواره ، فنزل اليه رسول الله ﷺ فالتزمه فسكت ، فقال (والذي نفسي بيده لو لم التزمه لما زال هكذا إلى يوم القيامة) حزناً على رسول الله ﷺ رواه الدارمي والترمذي وأبو يعلى والبيهقي وأبو نُعَـيم .

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالى اذا روى هذا الحديث يقول : يا عباد الله الخشبة تحنّ الى رسول الله ﷺ شوقاً اليه لمكانه فأنتم أحق أن تشتاقوا الى لقائه [2] .

---

(١) اخبرنا الله تعالى ان كل شيء خلقه سبحانه من حجر وشجر وجماد وحيوان يسبح الله تعالى ، قال تعالى (وان من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) . وأنى للانسان ان يفقه ذلك وهو لا يفقه أكثر لغات البشر اخوانه .

(٢) انظر الخصائص الكبرى للامام السيوطي . / ٢ – ٣١٨ / وما بعد .

قال السهيلي في الروض الأنف : حديث خوار الجذع وحنينه منقولان بالتواتر ، لكثرة من شاهد خواره من الخلق وكلهم نقل ذلك أو سمعه من غيره فلم ينكره أحد .

ج — الجماد ١ — تسبيح الطعام : تسبيح الحصى في كفه ﷺ . كان مما أكرم الله تعالى به نبيه ﷺ تقريراً لنبوته واظهاراً لحجته وتقوية ليقين من آمن به ﷺ : تسبيح الحصى في كفه ﷺ وتسليم الحجر عليه . روى البخاري وغيره من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه (كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل — أي في حال أكلنا مع رسول الله ﷺ) .

وفي رواية الترمذي (كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه) وروى البيهقي في دلائل النبوة عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال : كنت أتتبع خلواته ﷺ فرأيته يوماً خالياً فاغتنمت خلوته وجئته حتى جلست اليه ، فجاء أبو بكر رضي الله عنه فسلم ثم جلس عن يمين رسول الله ﷺ ، ثم جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسلم فجلس عن يمين أبي بكر رضي الله عنه ، ثم جاء عثمان رضي الله عنه فسلم وجلس عن يمين عمر ، وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات ، فأخذهن ووضعهن في كفة فسبحن ، حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل . ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فوضعهن في يد أبي بكر فسبحن حتى سمعت لها حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن ، حتى سمعت لها حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسمعت لها حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ، فقال رسول الله ﷺ (هذه خلافة النبوة) [1] .

---

(١) كان علي رضي الله عنه غائباً عن ذلك المجلس الكريم فلم يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحصيات في يده ، وفي لفظة (خلافة النبوة) اشارة — والله اعلم — إلى أن عليا لا تمتد خلافته استقلالاً كاسلافه الثلاثة . انظر نسيم الرياض في شرح الشفاء للقاضي عياض للشيخ أحمد شهاب الدين الخفاجي / ٣ — ٦٦ / .

٢ ـ نبع الماء من بين اصابعه ﷺ :

أكرم الله تعالى موسى عليه السلام حين استسقاه قومه وكانوا ظماء فسأل ربه فأوحى اليه أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشر عيناً . بعدد الأسباط الذين كانوا معه عليه السلام ، وأكرم الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بما هو أظهر في الكرامة والاعجاز ، وذلك بنبع الماء النمير من بين أصابعه ﷺ عيوناً . وقد وقع هذا الأمر مراراً ، وقع في بواط ـ وكانت قبل بدر ـ وفي الحديبية وتبوك وقباء والزوراء والقاحة ـ موضع بين مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ

قال جابر رضي الله تعالى عنه : عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ بها ، ثم أقبل الناس نحوه فقال رسول الله ﷺ ما لكم ؟ قالوا يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب ، الا ما في ركوتك . قال : فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من أصابعه كأمثال العيون ، قال فشربنا وتوضأنا ، فقلت لجابر كم كنتم يومئذ ؟ قال لو كنا مائة الف لكفانا كنا خمس عشرة مائة [1] .

د ـ حفظه ﷺ من الأعداء :

قضت حكمة الله تعالى أن يَحفظ نبيه ﷺ من القتل على كثرة المحاولات ، وعلى احتيال أصحابها لذلك ، ووجود الفرص المواتية .. لكن الله سلم .

أخرج الترمذي والحاكم والبيهقي وأبو نعيم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية (والله يعصمك من

---

(١) انظر الروايات العديدة في نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم في كتاب / الخصائص الكبرى / ٢ ـ ٢١٤ .

الناس) فأخرج رأسه من القبة فقال لهم (أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله) .

١ – أخرج أحمد والطبراني وأبو نعيم عن جعدة رضي الله عنها قالت : شهدت النبي ﷺ وأُوتي برجل فقيل هذا أراد أن يقتلك ، فقال رسول الله ﷺ (لن تُراع لو أردت لم تسلط عليّ) .

٢ – وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو جهل هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم ؟ – يقول الخبيث يصلي مستعلناً صلاته بينكم – فقيل نعم فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته ، فما فجأهم منه الا وهو ينكفىء على عقبيه . فقال ﷺ (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً) .

وأنزل الله تعالى (كلا إن الانسان ليطغى ان رآه استغنى) الى آخر السورة .

٣ – أخرج ابن أبي شيبة وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت (تبت يدا أبي لهب وتب) جاءت امرأة أبي لهب – أم جميل أروى بنت حرب أخت أبي سفيان – ماتت وزوجها على الشرك – فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله : لو تنحيت عنها فانها امرأة بذيئة اللسان ، قال : سيحال بيني وبينها ، فلم تره فقالت يا أبا بكر هجانا صاحبك ؟ قال والله ما ينطق الشعر ولا يقوله ، قالت انك لمصدق فاندفعت راجعة ، فقال أبو بكر يا رسول الله ما رأتك ؟ قال كان بيني وبينها ملك يسترني بجناحه حتى ذهبتْ .

المعجزة الباقية الخالدة (القرآن الكريم) .

القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الخالد المحفوظ على وجه الدهر من عبث العابثين وكيد الكافرين ومحاولات افساد المفسدين من الملاحدة والكافرين .

والقرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذي أنزله الله تعالى على قلب رسوله محمد ﷺ الشريف وأذنه بواسطة جبريل عليه الصلاة والسلام في خلال ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً ، والمجموع بين دفتي المصحف والمنقول الينا تواتراً ، تحدى الله تعالى به الانس والجن على أن يأتوا بمثل أقصر سورة من مثلـــه فعجزوا ، وما يزال التحدي به قائماً ولن يزال عجز البشر مستمراً ، قال الله تعالى (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعـــوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) .

وما أحسن وصف الأديب الفذ في الأدب والعربية والدين مصطفى صادق الرافعي للقرآن الكريم كتاب الهداية الأعظم وكتاب العربية الأفضل . قال رحمه الله تعالى : ألفاظ اذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة واذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها ، وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها ، ومتى وعدت من كرم الله تعالى جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب ، وان أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب ، ومعاني بيناهي عذبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ونور تبصر به في مرآة الايمان وجه الأمان ، وبينا هي ترف تبدي الحياة على زهرة الضمير ، وتخلق أوراقها من معاني العبرة معنى العبير ، وتهب عليها بانفاس الرحمة فتنم بسر هذا العالم الصغير ، ثم بينا هي تساقط من الأفواه تساقط الدموع من الأجفان ، وتدع القلب من الخشوع كأنه جنازة ينوح عليها اللسان وتمثل للذنب حقيقة الانسانية حتى يظن انه وصف آخر من الانسان ، اذا هي بعد ذلك اطباق السماء السحاب وقد انهارت قواعده والتمعت ناره وقصفت

في الجو رواعده ، واذا هي السماء وقد أخذت على الأرض ذنبها واستأذنت في صدفة الفزع ربها ، فكادت ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ، وانما هي بعد ذلك زجرة واحدة ، فاذا الخلق طعام الفناء واذا الأرض مائدة [1] .

أسماء القرآن الكريم :

عدد الامام بدر الدين الزركشي في كتابه (البرهان) أسماء القرآن الكريم فبلغت ثمانية وأربعين اسماً نجتزىء بعضها هنا : ولا شك أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، وأي كتاب أشرف من القرآن الكريم ؟ اللهم نشهد انه لا أشرف منه من كتاب .

فمن أسمائه :

أ ـ الروح : فالقرآن الكريم روح الحياة السعيدة المسعدة المرباة ، الموجهة الى عزة النفس والناس ، وعزة المؤمن به والشدة على الكفار ، تلك الحياة الموصلة الى مرضاة الله تعالى وجناته الخالدة والنعيم المقيم في الدار الآخرة .

هو كروح الجسد فيه الحياة البشرية على الأرض الى حين ، والقرآن روح الحياة المؤمنة في الجنة أبد الآبدين . قال الله تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان) .

ب ـ النور : فالقرآن الكريم هو نور القلب والبصيرة يستضيء المؤمن به فيحيى على نور وبرهان في تهذيب النفس وصيانة الحق وحفظ الجسم واقامة الحياة على نور مشرق لا مكان فيه لحيرة أو ظلام . أترى الأعمى يبصر طريقه ويتوقى عثرته ويعرف مواضع خطوه وهو أعمى، وأحر بأعمى القلب أن يعيش في ظلام وحيرة ، قال الله تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين .. جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) .

---

(١) تاريخ آداب العرب / ٢ ـ ٩ / .

ج ـ **الذكر** : فالقرآن الكريم راحة القلب وزكاة النفس وسعادة العقل وكمال السلوك ، وللذكر ثمراته من طمأنينة القلب وراحته ، وأنسه بالله وتروحه به ، وتذكر أوامره ونواهيه وحكمه وأحكامه . فما أحرى الآخذ بذكر الله تعالى أن يحيا حياة طيبة سعيدة وما أحرى المعرض عن ذكر الله تعالى أن يحيا حياة ضيق وقلق وفساد وضيعة ، قال الله تعالى (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون .. ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) .

يالله ما أعظم القرآن الكريم وما أصدق بيانه !! وها نحن نرى العالم على ازدياد الكفر فيه يزداد فيه القلق والحيرة والضيق والاضطراب والشقاء ، يكثر فيه الفساد والقتل والخلاف والعداء ، تتكاثر الجرائم ويقل الأمن على النفس والعرض والمال والأرض والحق . وعلى ازدياد المعارف في العالم ووفرة الكتب والمجلات ، وتكاثر دور العلم بعيداً عن القرآن تكثر الجريمة ويعمق ويتسع الخلاف بين البشر ، وذلك كله جزاء الاعراض عن القرآن وأحكامه وما في الآخرة من العذاب أشد وأنكى الا من تاب الى الله وأناب .

د ـ **الهدى** (الهادي الى الطريق المستقيم) . فالقرآن الكريم هو الدليل والبرهان في طريق الانسان المتشعبة في شعب الحياة ، هو الحق والصدق في طريق الانسان على اختلاف الغرائز والمصالح في هذه الحياة ، هو الحجة والصواب على تعدد المسارب المغلقة المهلكة القاطعة عن الغاية ، هو الطريق الوحيد الموصل الى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، قال الله تعالى (ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) . وما أكثر الجواد والأزقة ، وما أكثر الدعاة على تلك الجواد والأزقة ، يغرون .. يخدعون بالكفر واتباع الأهواء وهم .. يدعون الى النار .

وقد ذكر الله تعالى القرآن الكريم بأنه يخرج متبعيه من الظلمات الى النور .

لقد جمع الظلمة ليدل على كثرة ألوان الكفر ومضلات السلوك ، وأفرد النور ليدل على أن الاسلام واحد لا تعدد فيه ، قال الله تعالى (.. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور) .

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت يا رسول الله : انا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم ، قلت وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال نعم وفيه دَخَن ، قلت وما دخنه ؟ قال قول يهدون بغير هدىي تعرف منهم وتنكر) قات فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : (نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم اليها قذفوه فيها) قلت صفهم لنا قال (هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا) قلتُ فما تأمرني ان أدركني ذلك ؟! قال (تلزم جماعة المسلمين وامامهم) قلت فان لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال (فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) . رواه البخاري ومسلم والترمذي .

هـ ــ **حبل الله المتين** : فالقرآن الكريم هو السبب الموصل الى الله تعالى ، هو الوسيلة التي ان أمسك بها عبد موفق كان منتهى أمره الى الجنة . هو الكتاب الذي اذا تمسك به جماعة متفرقة تتحد ، أو متباعدة فتتقارب ، أو متعادية فتتحاب ، أو جاهلة فتتعلم ، أو جماعة ضعيفة فتقوى ، أو مظلومة فتنتصر ، أو جماعة فقيرة فتغنى ، أو ذليلة فتعز ، أو جماعة لا هدف لها فتعيش لأعظم هدف . اذا تمسك به جماعة قد ضلت فتهتدي ، أو جماعة هالكة فتنجو ، أو شقية فتسعد في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفى حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) .. آل عمران .

و ــ **الشفاء** : فالقرآن الكريم شفاء للقلوب من الكفر والالحاد ، شفاء

للأفكار من الأمراض والشبهات ، هو شفاء لما في الصدور من الحقد والحسد والبغضاء .

وما أكثر أمراض القلوب وما أشد اساءتها الى الناس ! وما أخطر أمراض العقول وضررها في الناس ! انها سبب الشرك والالحاد وسوء الظن برب العباد ، سبب الاحن والعداوات والوقوع في الجرائم والموبقات من سرقة الأموال والأعراض وقتل الأنفس وانتهاك الحرمات .

قال الله تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) . سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : (كان خلقه القرآن يحل حلاله ويحرم حرامه) .

ز — **كتاب مبين** : فالقرآن الكريم هو الكتاب المبين لكل شيء يحتاج اليه البشر ، والمظهر لأمر الله تعالى ونهيه في كل شيء ، ما ترك الله تعالى صغيرة ولا كبيرة مما يحتاج اليه البشر الا بينه فيه أو أشار اليه في حق لا يعروه باطل ، وصدق لا يعتوره كذب . والأيام على مرورها تدل على أمور وأمور هي في القرآن لها مواعيد لظهورها على الخلق ، فالناس بالقرآن الكريم في غنى ، وهدى لا ضلال معه . قال الله تعالى (وأنزلنا اليك الكتاب تبياناً لكل شيء — وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) . أي القرآن الكريم هو الحق .. — (ما فرطنا في الكتاب من شيء) ..

موضوعات القرآن الكريم :

أنزل الله تعالى القرآن الكريم روحاً ونوراً وهدى للناس ، فيه بيان كل شيء لا تفريط فيه ولا تقصير في جميع ما يتعلق بحياة الخلق وسلوكهم ، والكون ونشأته ونظامه ، علمه من علمه وجهله من جهله .

وبسبيل بيان هذا الأمر نجتزىء من موضوعات القرآن الكريم ما يعدّ قواعد فيها وأصولاً . منها :

١) العقائد :

متمثلة في الدعوة الى الايمان بالله تعالى وتوحيده سبحانه وتسميته بما سمى به نفسه ووصفه جل جلاله بما وصف به نفسه ، وتلوين الخطاب وتصريف القول في بيان أن الأمر له وحده ، وان ما يُعبد دونه سبحانه (لا يملكون لأنفسهم — فضلاً عن سواهم — ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً) . إن ما عُبد من دون الله تعالى ما خلق شيئاً في السماء ولا في الأرض ولا شرك له مع الله تعالى في شيء ، ما يُعبد من دونه سبحانه ليس لهم أيد يبطشون بها ولا أرجل يمشون بها ولا قلوب يعيشون بها ولا أفكار يعملون بها (ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) . فهو يعبدون العدم .

وتصديقه سبحانه فيما أخبر به من خلق الملائكة وإنزال الكتب وارسال الرسل واقامة القيامة ومحاسبة الخلق على أعمالهم في الحياة الدنيا يوم القيامة ، وتقديره سبحانه الأشياء بما شاء لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ؛ قال الله تعالى (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم — آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) .

٢) العبادات :

متمثلة في أركان الاسلام الخمسة المذكورة في حديث مسلم الطويل وفيه : (الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلاً) .

ومثلها في الوفاء باليمين والنذر ، ونوافل الصلاة والصيام والصدقة ، بل

والعادات اذا فعلت بغية التقرب الى الله تعالى مثل الطعام والشراب والسير في الأرض للاعتبار والنظر ، قال الله تعالى (هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ــ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ــ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . ــ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

٣) المعاملات :

متمثلة في البيع والوكالة والكفالة والاجارة وسائر العقود ، سواء كانت على عوض أو دونه ، وفق قواعد ونصوص وردت في القرآن الكريم أو السنة الشريفة ، أو أجمع عليها أهل الاجماع أو نظر فيها أهل الاجتهاد والنظر من خلال القرآن والسنة .

ونشير الى أن أطول آية في القرآن الكريم هي آية تنظيم عقد الدين في المعاملات المالية . قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ــ وأحل الله البيع وحرم الربا ــ يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين) .

والمعاملات في الاسلام تمتاز عن المعاملات في قوانين البشر ، بأن الجانب الأخلاقي يواكب المعاملات ــ وسائر التصرفات ــ في الاسلام فلا غش في البيع لأن الله تعالى حرم ذلك ، ولا ربا فيه لأن الله تعالى حرم ذلك ، ولا متاجرة بالخمور والمخدرات واليانصيب لأن الشريعة قد حظرت ذلك ، وهكذا . ولعمر الله ما تملك قوانين البشر شيئاً من هذا التنظيم والتهذيب ، لذا نجد سوء المعاملات والغش والكذب والربا والاستغلال والتجارة بالمحظور في الأعراض والخمور والمخدرات ترتفع تصاعدياً كلما ضعف الايمان في القلوب .. رغم ازدياد العلم وتنوع الثقافة وسكنى الناس ناطحات السحاب

ووصولهم الى القمر . لأن الانسان لا يرقى به زمان ولا مكان ، وانما يرقى به تربية وتوجيه .

ويل للإنسان الكافر الصّاعد الى جو السماء في مركبة .. ثم هو يتعثر في مشيه على الأرض !.

٤) الأخلاق :

متمثلة في الصدق وأداء الأمانة والحياء وحفظ حقوق الآخرين ، والعدل والاحسان والرفق بالخلق ، والكرم وحسن المعاشرة للأهل والناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولا ريب أن البضاعة الرائجة بين الناس هي الأخلاق ، لذا يصادق الانسان بها الغريب ويترك القريب ، يصافح البعيد ويهجر الأهل ، ولعل هذا هو الذي دفع الحسن البصري رحمه الله تعالى ليقول (الدين المعاملة) .

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين — خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين — ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظم لعلكم تذكرون — يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود — ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به) .

والأخلاق في الاسلام ليست أعرافاً قانونية ولا عادات موروثة ولا تقاليد منقولة ، ولا منافع عاجلة ولا معاملة بالمثل ، انها مثل العبادات والمعاملات مرتبطة بالعقيدة برباط وثيق ، موصولة بالايمان بسبب متين .

لذا فان المؤمن حين يصدق يصدق لأن الله تعالى أمر بالصدق لا لأن الصدق نافع منج ، وحين يؤدي الأمانة يؤديها لأن الله تعالى أمر بذلك لا خوفاً من الفضيحة والعقوبة العاجلة ، ولا حرصاً على حسن السمعة بين الناس ، وهكذا .

وهو حين يبتعد عن الفواحش والمنكرات لا يبتعد عنها خوفاً من الناس أو خشية على مصلحته ، وانما خوفاً من الله رب العالمين الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، ويعلم السر كما يعلم العلانية على حد سواء .

وما أجمل قول أديب الاسلام مصطفى صادق الرافعي : لو سئلت ان ألخص الاسلام في حكمة لقلت انه ثبات الأخلاق . وقوله : ليس كالمسلم في الخلق أحد .. ليس خلق اليوم بل خلق الأبد .

٥) القصص :

متمثلة في قصص الأنبياء والمرسلين مبتدئاً بآدم عليه السلام ومنتهياً بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وفي قصص الصالحين من أهل الكهف والأخدود ، وفي قصص أهل الكفر والعناد ، مبتدئاً بابليس ومنتهياً بكفار قريش ، ومثل الأخ الكافر في سورة الكهف وقصة أصحاب الجنة والبستان) من سورة القلم .

وهي قصص صدق كلها [١] والغرض منها التعليم ، واعطاء القدوة الحسنة ، والتحذير من الأسوة السيئة واعطاء العبرة وتثبيت المؤمن في حقه على ظاهر ضعفه ، ودحر الكافر في باطله على ظاهر قوته .

وما تزال القصص القرآنية في حاجة الى عرض يناسب كل عصر ، وأن تستخرج منها الدروس والعظات المناسبة لكل قوم ومكان ، وان تأثير القصة في الانسان يكاد يكون أعظم من أي نوع من أنواع الأساليب .

قال الله تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون — ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك — فاصبر

---

(١) من قال في قصص القرآن الكريم انها تمثيل حالات — ومخترعاتٌ غير واقعة — فقد كذب ظاهر القرآن الكريم وهو كافر حلال الدم .

كما صبر أولو العزم من الرسل ــ ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ــ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد) .

٦) مجادلة أهل الكفر والالحاد :

سواء كان ذلك مع أهل الكتاب الذين أمر الله تعالى بمجادلتهم بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم ، أو كان مع عباد الأصنام ومتخذي الأوثان آلهة مع الله تعالى أو دونه سبحانه ، أو كان ذلك مع أهل الالحاد منكري البعث والحساب والجنة والنار .

كل ذلك بعبارات قصيرة ، رصينة ، قوية ، مكينة لا سبيل لدفعها أو درء ما فيها من حقائق وبراهين فضلاً عن ابطال ما جاءت به من أمثلة ونماذج .

ولم تزل الكلمة الطيبة ولن تزال ضرورية في حياة كل دعوة ، وأولئك الذين يريدون من الاسلام أن لا يجادل ، ومن دعاة الاسلام أن يسكتوا ــ اذ ليس الوقت وقت جدال بالحق ــ هم قوم قد استزلهم الشيطان ، ويريدون به غير الحق ، وغير الظهور على الدين كله .

ولنقرأ معاً قول الرسول ﷺ للحبر اليهودي مالك بن الصيف : أنشدك الله تعالى الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله تعالى يبغض الحبر السمين فأنت الحبر السمين قد سمنت من مالك الذي يطعمك اليهود ، فضحك القوم ، فغضب فالتفت الى عمر رضي الله تعالى عنه فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء [1] . فقال تعالى (قل من أنزل التوراة الذي جاء به موسى تجعلونه

---

(١) روح المعاني للآلوسي / ٧ ــ ٢١٩ / .

قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً) ...

ولنقرأ قوله تعالى في مجادلة عباد الأصنام (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره . — ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) .

وقوله سبحانه في مجادلة الملاحدة منكري البعث (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ! أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ). (أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) .

والمجادلة أقسام ثلاثة :

١) فتكون واجبة : وهي مجادلة أهل الكفر والالحاد بما يقنع المخالف أو يسكته (وجادهم بالتي هي أحسن) . ٢) وتكون كفراً : وهي مجادلة الانسان في أوامر الله تعالى وأحكامه بالنكر والرد (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا .) . ٣) وتكون مكروهة ، وهي مجادلة المسلم أخاه ومماراته في مسائل فرعية بعد عرض ما عنده من دليل في أدب وحسن خلق ، قال رسول الله ﷺ (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً) .

ونشير الى أن القرآن الكريم حين يذكر شبهات أهل الكفر والالحاد يذكرها موجزة ويدرج أثناءها ما يبطلها ، فلا نجد في القرآن الكريم اطالة في عرض شبهات الباطل وتنسيقاً لها كما قد يعرضها أصحابها أبداً . فلنكن من هذه هذه الملاحظة على ذُكر ونحن نرد في كتب التوحيد والتاريخ والاجتماع وعلم النفس على ضلال الضالين .

جاء أبي بن خلف الى رسول الله ﷺ ومعه عظم بال يفتته فنفخ فتات

العظم على وجه النبي ﷺ ثم قال يا محمد أترى ربك يحيي هذا بعد ما رمّ وبلي ؟ فقال ﷺ نعم ويبعثك ويدخلك النار . وأنزل الله تعالى خواتيم سورة يس (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

ألا ترى كيف هدم ضلاله وهو يعرض ضلاله بقوله تعالى (ونسي خلقـــه) .

وقال تعالى (وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) . ألا ترى كيف هدم ضلالهم وهو يعرض ضلالهم بقوله تعالى (وما لهم بذلك من علم) ..

٧) الجهاد في سبيل الله تعالى :

قضت حكمة الله تعالى أن يجعل الدنيا دار صراع وتنازع بين الحق والباطل والهدى والضلال .

وقضت حكمته سبحانه أن يجعلها دار ابتلاء واختبار ، قد يعطي فيها الكافر المحارب لله تعالى ولدينه الحق القوة والسلطان وكثرة الجند ووفرة المال فيغتر بذلك ويظن أنه في باطله على شيء من الحق ، ويكون منه أن يناصب الحق العداء ، ويرفع في وجه الحق سيف الباطل ، ويقاتل من يؤمن بالله تعالى ويحول بين الناس وبين ما يختارون من الايمان والعيش به في الحياة الدنيا .

فكان أن شرع الله تعالى الجهاد في سبيله ، وجعله عبادة يقوم بها المسلمون القادرون ابتغاء رضوان الله تعالى واعلاء لشأن دينه ونصرة لأحكام شريعته ، ورفعاً لرايته حتى يكون له الحكم في الأرض ، ودفعاً للفتنة عن المسلمين في أي مكان من الأرض .

وقد جاء فرض الجهاد على مراحل ، فكان أول أمره في السنة الأولى من الهجرة جهاداً للدفاع ورد العدو ، قال سبحانه (أذن للذين يقاتلون بأنهم

ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله) ..

ثم كان جهاد الأدنين من الجماعات الكافرة التي تقف في طريق نشر الاسلام وتنفيذ أحكامه ، قال سبحانه (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) .

ثم كان جهاد الجماعات التي ترفض الخضوع لحكم الله تعالى في بلادها وتصد الناس عن الاسلام وتريدها فتنة وتضطهد المؤمنين وتتربص بهم الدوائر في كل حين ، قال سبحانه (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة .— قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون — وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) .

ونشير الى أن الاسلام لا يقاتل لاكراه الناس على الدخول في الاسلام ، فان الدين قناعة ، والقوة لا تأتي بالقناعة ، والسيف لا سلطان له على حب القلب . قال تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي — أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

هذا النوع الأخير من الجهاد هو الذي استقر عليه أمر الاسلام منذ أيام رسول الله ﷺ ، وعليه انتقل الى الرفيق الأعلى ، فكان سنة الجهاد جهاد الكافرين في كل مكان على قدر امكانات المسلمين في كل زمان ومكان وعلى هذا الأساس انطلق المسلمون من الصحابة والتابعين فقاتلوا مشركي العرب ، ثم المجاورين من فارس والروم ثم الأبعدين من مصر والمغرب ، وانساحوا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ففتحوا الهند والأندلس ، وبلاداً من شمال أوربا وشرقها وجنوبها .

وما أكثر الآيات الداعية الى الجهاد في القرآن الكريم . ولنقرأ معاً قول الله تعالى (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً . ـ يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل الا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير) .

وفي بيان حكمة نصر الله تعالى دينه بالمسلمين نقرأ قوله سبحانه (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء) .

ان الجهاد في الاسلام هو لتحكيم الاسلام في الأرض ، والقضاء على المفاسد والفتن ، وحفظ حرمات وحريات الاسلام وسائر الأديان السماوية ، لا تُبتغى فيه مصالح فردية ولا جماعية ولا يقصد به استعباد الشعوب ولا استغلال خيرات البلاد ، ولا التوسع في الأرض أو استعلاء شعب على شعب .

ومتى كان الجهاد لغير الله تعالى ضاع أجر صاحبه ولو أبلى فيه كل بلاء ، وقصة قزمان ـ التي رواها البخاري وأحمد ـ مشهورة في بيان بطلان أجر من جاهد لغير الله تعالى .

سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال ﷺ (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) . رواه البخاري .

٨) خلق هذا الكون :

كل ما يقول الناس عن نشأة الكون ومادته وابتداء الحياة فيه وكيفية ذلك ، ونظام السموات والأفلاك ، وعمر الأرض وابتداء الحياة العامة فيها والحياة

الانسانية خاصة ، وكيف تنتهي فيها الحياة ، كل ذلك ظنون وأوهام ، نظرية تبطل نظرية ، ورأي ينقض رأياً ، ذلك لأنهم لم يشهدوا نشأة الكون وقيامه ، ولم يعاينوا خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ، فهم يرجمون بالغيب .

وأنى لهم أن يعلموا الغيوب الا من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ والا بمقدار ما يعلمهم منها اللهُ سبحانه .

(قل انكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العلـيم —

وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم — أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي — ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المصلين عضداً — هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً — اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت واذا القبور بعثرت — هو الذي سخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً منه — وبدأ خلق الانسان من طين) .

في آيات عديدةأخرى .

وما أكلّ نظر من يجعل من نظريات علماء التقويم والفلك .. والاجتماع قواعد يقينية ، يريد أن يعارض كتاب الله تعالى بها ويضاده .

وقد لا يفضله نظراً من يحاول تأويل آيات القرآن الكريم تبعاً لظنون

وأوهام من أولئك العلماء ــ حتى اذا ظهر بطلان النظريات تلك ، وبان سقوط أوهام أولئك عادوا يبحثون عن جديد .. !

الا ان كتاب الله تعالى حجة الله على العباد ولا حجة لأحد على كتاب الله تعالى (قل فلله الحجة البالغة) . فان الله هو الخالق ، وعلم العباد من علمه سبحانه ، والكتاب من عنده فكيف يكون في كتابه سبحانه سوى الحق . قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد) . والضمير في أنه الحق يعود إلى القرآن الكريم .

اعجاز القرآن الكريم :

معنى اعجاز القرآن الكريم اثباته عجز الجن والأنس عن الاتيان بمثله ، ولقد تحدى الله تبارك وتعالى الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أولاً ، ثم تحداهم على أن يأتوا بمثل عشر سور مفتريات ثانياً ثم تحداهم على أن يأتوا بمثل سورة من مثله أخيراً فعجزوا ..

ولقد أخذ بلغاء المشركين وحكماؤهم بالقرآن الكريم وبيانه ، فلم يحاول أحد منهم أن يعارض القرآن الكريم في شيء ، مع شدة حاجتهم الى ذلك في سبيل تقرير كفرهم ، ومغالبة حجة الله تعالى عليهم ، وهم أهل اللسان والبيان ، قد لانت لهم اللغة وانساق اليهم بيانها ، خضعت لهم مقاليد اللغة وانفتحت مغاليق البلاغة .

وما أظن أن مثل المعري وابن المقفع والمتنبي حاولوا شيئاً من معارضة القرآن الكريم ، ولو أنهم فعلوا ذلك لكان يكون ذلك منهم جنوناً لمعرفتهم برتبة القرآن العظيم .

أما مسيلمة الكذاب فالكلام الذي افتراه على الله تعالى قد فضحه حتى بين قومه ، أما افتراء غلام أحمد القادياني أو البهاء ميرزا حسين كلاماً ركيكاً في

الألفاظ والمعاني ونسبة ذلك الى الله تعالى فلا غرابة في ذلك ، لجهلهما باللغة العربية ، فهما لا يعرفان بيان القرآن ، ثم ان افتراءهما قد ألقي على بشر غير عرب ، وجهال لا يكادون يعرفون تلاوة القرآن .

ومن العجيب أن يزعم محمد فريد وجدي أن اعجاز القرآن هو في المعاني والأحكام لا في الأسلوب والبيان مع المعاني والأحكام . ولعله لم يُسبق الى هذا الزعم البارد من أحد يعرف العربية والقرآن .

ان التحدي بالقرآن قام في زمان رسول الله ﷺ وما يزال قائماً ، فالى أولئك الذين يزعمون أن القرآن من وضع البشر نداء الله تعالى وتحديه في قوله (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) .

ولنستعرض معاً بعض وجوه اعجاز القرآن الكريم ، فانه ما يكون من أحد أن يحصي وجوه اعجاز القرآن ويستوعبها ، لأن معجزاته لا تنتهي ، وللناس فيه كل يوم آية (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) .

أ ـ حلاوته على التكرار :

فكلما قرأ الانسان القرآن الكريم ازداد به تعلقاً وله حباً لا يملّ منه على التكرار ولا يسأم على الترداد ، ولقد وصفه رسول الله ﷺ بذلك في قوله (ولا يخلق على كثرة الرد) [1] .

ولقد حدثنا العلماء بأسانيدهم الى عثمان بن عفان وتميم الداري رضي الله

---

(١) رواه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً على علي رضي الله تعالى عنه .

تعالى عنهما أنهما كانا يقومان الليل كله بالقرآن الكريم فيختمانه فيه ، ليس مرة ولا يوماً .. وحدثونا بأسانيدهم عن تابعين وأتباعهم مثل الامام أبي حنيفة والامام الشافعي مثل ذلك ، (فكأن أحدهم ليس في الأرض أو ليس من أهل الأرض) [1] .

وإنا لنرى المولعين بكتاب الله تعالى في أيامنا هذه لا يكادون يختمون القرآن حتى يبدؤوه من جديد ، لا يكادون يجدون فراغاً من عمل حتى يقبلوا على كتاب الله تعالى يتلونه حفظاً ونظراً ، يجدون كتاب الله أحسن الحديث وأجمله ، وأغلى كلام وأحبه . ولن نجد كتاباً سوى القرآن الكريم يزداد تعلق القلب به على كثرة تكراره ، ونجد عكس هذا في غير القرآن الكريم فانه إذا قرىء مرات ــ مهما كان عظيماً ــ ملته النفس وسئم منه القلب وآثر عليه سواه .

ب ــ وفاؤه بحاجات البشر :

ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة تفي بحاجات البشر في كل عصر ومصر ، وفاء لا نظفر به في تشريع أو دين آخر ، ويتجلى لنا هذا اذا استعرضنا المقاصد النبيلة التي يرمي اليها القرآن أي في هدايته ، والتي نعرض عليك من تفاصيلها ما يلي :

أولاً : اصلاح العقائد عن طريق ارشاد الخلق الى حقائق المبدأ والمعاد وما بينهما تحت عنوان الايمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

ثانياً : اصلاح العبادات عن طريق ارشاد الخلق الى ما يزكي النفوس ويغذي الأرواح ويقوم الارادة ، ويفيد الفرد والمجموع منها .

---

(١) انظر تاريخ آداب العرب لاديب العربية مصطفى صادق الرافعي / ٢ ــ ٢٣٢ / .

ثالثاً : اصلاح الأخلاق عن طريق ارشاد الخلق الى فضائلها وتنفيرهم من رذائلها ...

رابعاً : اصلاح الاجتماع عن طريق ارشاد الخلق الى توحيد صفوفهم ومحو العصبيات وازالة الفوارق التي تباعد بينهم ...

خامساً : اصلاح السياسة أو الحكم الدولي عن طريق تقرير العدل المطلق والمساواة بين الناس ...

سادساً : الاصلاح المالي عن طريق الدعوة الى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع .

سابعاً : الاصلاح النسائي عن طريق حماية المرأة واحترامها .

ثامناً : الاصلاح الحربي عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الانسانية في مبدئها وغايتها .

تاسعاً : مجانبة الاسترقاق في المستقبل وتحرير الرقيق الموجود بطرق شتى منها الترغيب العظيم في تحرير الرقاب .

عاشراً : تحرير العقول والأفكار ومنع الاكراه والاضطهاد [1] .

لقد ذكر الامام السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن أوجهاً لاعجاز القرآن الكريم ، وذكر الشيخ الزرقاني أوجهاً لاعجاز القرآن الكريم ، وذكر الرافعي في تاريخ آداب العرب أوجهاً لاعجاز القرآن الكريم ، وجميع تلك الوجوه تصب في حقيقة واحدة هي : أن اعجاز القرآن الكريم حق مقرر ثابت على مرور الأيام ، وان وجوه إعجازه تزداد كمية وكيفية على مرور الأيام كذلك .

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ عبد العظيم الزرقاني .

ج ـ عدم التناقض والاختلاف بين معانيه :

نزل القرآن الكريم على أذن رسول الله ﷺ وقلبه الشريف في ثلاث وعشرين سنة تقريباً ، وتناول موضوعات عديدة وأفكاراً كثيرة ، ومع ذلك فان القرآن الكريم كله على حد واحد من البيان العالي والاعجاز البليغ ، وذلك محال أن يكون من البشر الذين يختلف بيانهم وتنوع أساليبهم على مرور الأيام واختلاف الموضوعات والحالات .

كما أن الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم لا يعارض بعضها بعضاً ، وما يُتوهم من خلاف ذلك فهو وهم وليس شيئاً سوى الوهم .

لقد أصدر بعض الملاحدة من سنين كراسة سموها الكراسة الرمادية كرسوها ضد الاسلام والقرآن خاصـــة ، ونسبوا الى القرآن تعارضاً ، جاء فيها :

أ ـ ان القرآن الكريم يقول حيناً في آدم (خلقه من تراب) وحيناً (من طين لازب) وآخر (من صلصال) والحق أنه لا خلاف ، فمادة خلق آدم عليه السلام التراب ثم عجن فصار طيناً عليها كانت صورته ثم ترك الطين ييبس فكان صلصالاً .

ب ـ قال القرآن الكريم حيناً (رب المشرق والمغرب) وحيناً (رب المشرقين ورب المغربين) . وحيناً (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) .

والحق أنه لا خلاف فجهة المشرق وجهة المغرب واحدة ، ومشرق الصيف ومشرق الشتاء يختلفان ، وكذلك مغرباهما ، فهما مشرقان للصيف وللشتاء ومغربان لهما كذلك ، ومشارق كل يوم ومغاربه تختلف في كل يوم شيئاً من الاختلاف فهي مشارق كثيرة ومغارب كثيرة .

لا يجوز ترجمة القرآن الكريم :

١) لأن بيان الناس أعجز من أن يستطيع ترجمة القرآن الكريم مع محافظته على اعجازه العظيم ، ووفاء ألفاظ الترجمة بمثل ألفاظ القرآن الكريم وهيهات . وأين هي اللغة التي تتسع لما تتسع له اللغة العربية من صور ومعان ، وتقبل من اختلاف الأساليب وتغير المعاني ما تقبله لغة العرب .

وأين هي الألفاظ التي تجمع معاني عديدة مثل الألفاظ المشتركة في اللغة العربية كالعين التي تطلق على الباصرة ، ونبع الماء ، والجاسوس ، والذات ، والذهب والفضة ..

٢) لأن النبي ﷺ دعا هرقل والنجاشي والمقوقس وكسرى وغيرهم الى الاسلام ، وكتب اليهم آية من القرآن الكريم بالعربية ، ولم يترجمها مع الحاجة — في ظن الناس الى ذلك — ورسول الله ﷺ قدوة كل من يدعو الى الله تعالى .

٣) لأن الله تعالى وصف القرآن الكريم بأنه عربي (انا أنزلناه قرآناً عربياً) فلو ترجم الى غير العربية فلن يبقى قرآناً عربياً ، بل يصبح فارسياً ورومياً وتركياً وغير ذلك معاذ الله .

٤) لأن الله تعالى أمر بقراءة القرآن الكريم في الصلاة ومترجم القرآن لا يسمى قرآناً ، فلا تصح صلاة بقراءة هذه الترجمة ، فما فائدة هذه الترجمة اذن ؟

٥) لأنه يُظن أن مترجم القرآن قد أتى بمثله ، وذلك تكذيب شنيع للقرآن الكريم ، قال تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى اليّ) .

فمن ذا — بعد فصيح العرب محمد ﷺ — يزعم أنه يأتي ببديل القرآن الكريم ليفضح بين الخلائق ؟

ونصوص أئمة المذاهب الأربعة مذكورة مقررة في تحريم ترجمة القرآن الكريم للأسباب التي ذكرنا وغيرها .

وبعد هذا نقول : فلنفهم كتاب الله تعالى حق فهمه، ولنكتب في فهومنا منه وتفسيرنا له الكتب المختلفة ، ولنترجم — في حدود ضيقة جداً — تلك التفاسير الى اللغات المختلفة ، لأننا حريصون على أن يقرأ المسلمون أصول الاسلام بالعربية لغة المسلمين في كل مكان .

ولنؤلف للمسلمين وغير المسلمين الكتب التي تحسن عرض الاسلام على ما هو في حقيقته ، ولننشر ذلك بمختلف اللغات ، فذلك يعدّ خيراً كبيراً في بيان الاسلام للناس .

ولنعش مع ذلك نحن المسلمين بالاسلام وللاسلام ، فذلك أفضل بيان لحقيقة الاسلام وأغراض الاسلام .

آثار الايمان بالانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام :

بعد هذا العرض للرسل ورسالاتهم وصفاتهم ودعواتهم ومعجزاتهم والحكمة من بعثتهم ؛ نذكر صوراً من آثار الايمان بهم عليهم الصلاة والسلام .

١) الاهتداء إلى القدوة الكاملة :

ما يزال هذا الانسان يبحث وينقب ، ويتحرى ويتعرف على الفاضل والأفضل من الناس ، وعلى الصفات الكريمة والمزايا الحميدة في الناس .

ما يزال هذا الانسان يحب أن يتصف بالفضل والصفات الكريمة والمزايا الحميدة وأن يثني عليه بين الناس .

يهوى الثنـــاء مبرز ومقصر حب الثنـــاء طبيعة الانسان

ورسل الله تعالى هم البشر المعصومون من الشرك والكفر ، من سوء الفعال والسلوك ، معصومون من التأثر بالعواطف الى حد يخرج بهم عن حـدود الأخلاق .

الرسل وهم هم القدوة الكاملة ، لأنهم مكملون في كل شيء ، وسواهم لا بد أن يخطئوا أحياناً ويميلوا عن الحق أحياناً ! البشر سواهم عرضة لأن يضلوا ضلالاً بعيداً .

ونقرأ سير عظماء العالم ! فنجد الغيوم السوداء في سماء أخلاقهم ، ونجد العكر في صفو سلوكهم بل نجد الظلام في ضياء حياتهم . ولا بُعد — ولا عجب ، فالانسان موضع صراع بين الحق والباطل ومحط تجاذب بين داعي الخير والشر .

ولا يمنع الخير الكثير الذي يكون من الصالح أن ينتصر الشر فيه ولو لماماً .

مـن ذا الذي مـا ساء قط ومن لـه الحسنى فقـط .

قال رسول الله ﷺ (كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) .

قال الله تعالى لنبيه محمد في شأن الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام أجمعين (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) .

وقال سبحانه لكافة الناس في شأن محمد ﷺ (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) .

٢) الاهتداء إلى العلم الصحيح :

ما يزال هذا الانسان راغباً في المعرفة حريصاً على العلم ، خاصة ما كان منه بعيداً عن ادراك الحواس وخارجاً عن حدود العقل ، وانا لنقرأ القصص الخيالية والمغرقة في الخيال والمستورة عن الادراك المضروب عليها من الغيب بستار ونقبل عليها ، ونرى كيف يقبل الناس عليها بعواطفهم وقلوبهم ،

يستزيدون العجائب ويستكثرون الخيالات . وكم وكم حاول هذا الانسان أن يستشف الغيب وأن يعرف المجهول ممتطياً ظهر الخيال المجنح الطائر [1] ! ..

رسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام يروون في هذا الانسان هذا الظمأ ويلبون تلك الرغبة ، يقصون على الانسان من أخبار النفس والقلب والروح ، والموت والقبر والبعث والحشر والجمع وأهوال القيامة ، وميزان الأعمال هناك .. والمرور على الصراط الدقيق ، وكيف يساقط منها المجرمون الى النار ، وبئس المصير ليكونوا حطباً للنار .

وكيف يمر عليها المؤمنون سعداء يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم حتى يردوا أحواض الأنبياء ، ثم يدخلون الجنة حيث يجدون نعيماً ما أبصرت مثله عين ولا سمعت به أذن ولا خطر على قلب بشر ...

ويقصون على الانسان معارف في صفات الله تعالى وأفعاله ، وأخبار السموات وسكانها من الملائكة .. الخ . هؤلاء الرسل بهذه القصص الغريبة لا يدغدغون العواطف بالكذب ، ولا يهيمون بالعقول في أودية الأحلام ، بل يقررون حقائق لا يعرض لها مبالغة فضلاً عن كذبة وفرية ، وان كانت أغرب من الخيال ، ويسردون وقائع حقة وان كانت لا تخطر من البشر ببال .

٣) الاهتداء إلى الهدف الحق من الحياة :

ما يزال هذا الانسان محباً معرفة الطريق الذي يسلكه في حياته ، والعيش الذي يعيشه ، ما يزال هذا الانسان راغباً في أن تتفتح له أبعاد الشيء الذي يريده ، وغاياته .

---

(١) لكن المبالغة في هذا الأمر هي المصيبة ، خاصة إذا كان الخيال معارضاً مجانباً للواقع ، وأكثر مجلات الأطفال في بلادنا تحتوي أحياناً على هذا الخيال السخيف السمج الذي تنفر منه حتى طباع الأطفال ، دعك ما يكون له من آثار سوء على الأخلاق .

ما يزال هذا الانسان حريصاً على أن يعرف نتيجة كل شيء قبل أن يأتيه ، وعلى قدر ما تتضح له معالم الطريق الذي يسلكه ، ويتعرف على غايته ، ويتبين له ما بعده من أثر ، وعلى قدر ما يتضح له هذا تكون استقامته على طريق واحد ، ويتجمع هدفه في سلوك واحد . وليس مثل الرسل عليهم الصلاة والسلام أحد اتضحت له معالم الطريق وظهرت له أهدافه ، وبانت له غايته . لذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام القدوة العظمى في التزام الطريق والحرص عليه والدعوة اليه دون مبالاة بمغريات تأخذ يميناً ويساراً ، أو مخاوف تعرض يميناً ويساراً .

وما عُرف عن رسول الله ﷺ خاصة – وباقي الرسل كذلك – انه غيرته الأيام ، أو انحرفت به عن الطريق العواطفُ والرغبات ، والمخـــاوف والعقبات أو نواحي الضعف في البشر .

فقد ثبت ﷺ على دعوته متحملاً السخرية والأذى ومحاولات القتل والحصار والتضييق في العيش وتفرق الأصحاب وتَعْذيبهم ، – ثبت على دعوته مترفعاً على المال والجاه والسلطان والراحة وتأثير النساء ، ثبت مستهدفاً أمراً واحداً لا يتعداه حتى قبضه الله تعالى ألا وهو رضوان الله تعالى .

قال تعالى (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

واويل من لا يبين له الطريق ! ولا تتضح له معالمه وأبعاده وغايته ! انه يحيا كريشة ضعيفة في مهب الرياح تميل به هكذا وهكذا حتى ترمي به في وادي الهلاك والخسار الأبدي ، قلق النفس مشتت الفكر مبلبل الخاطر مزدوج السلوك ، في غضب الله تعالى ومقته .

قال الله تعالى (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون – ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً . – ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) .

ملاحظة :

قال الامام أبو القاسم بن عساكر : اعلم يا أخي وفقني الله واياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته ، ان لحوم العلماء مسمومة وعادة الله في هتك أستار منتقصهم معلومة ، وان من أطلق لسانه في العلماء في الثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)[١] .

فاذا كان هذا التهديد على انتقاص العلماء العاملين والفقهاء المخلصين ، فكيف يكون وبال من ينتقص رسل الله تعالى وأنبياءه بشبهات وترهات ما أنزل الله بها من سلطان .

ولا شك أن الخوض في الأنبياء والمرسلين فسوق وضلالة ، أو كفر معاذ الله تعالى ، ثلمة في العقيدة وظلمة في ضياء الايمان ومساس بالعقيدة وانهيار لبناء الايمان الذي لا يقبل إلا به العبادات والأعمال .

فقد نبه خدمة حديث رسول الله ﷺ على أن منتقص الصحابة زنديق لعين لأن الصحابة هم الذين حملوا رسالة رسول الله ﷺ إلى الناس .

فماذا يكون قول العلماء فيمن ينتقص رسل الله تعالى الذين تلقوا الرسالات من الله تعالى ؟

لا شك أن لقب الفسوق بل الكفر يلازم من يرى ذلك حتى يتوب الى الله تعالى توبة نصوحاً .

ونذكر القارىء الكريم أن من الصفات الواجبة للرسل العصمة وهي ترك مقارفة الذنوب وقربان المعاصي – لذا أقول : اذا رأيت في رد تلك الشبهات

---

(١) مقدمة المجموع للامام النووي / ١ – ٤٠ / .

والمفتريات ما لا يملأ قلبك قناعة فذلك لنقص في عارض الأمر لا في صاحبه ، وقصور في الكاتب لقلة المصادر أو ضيق المجال أو قصد الايجاز .

أما هم عليهم الصلاة والسلام فهم رسل الله ذروة البشرية ، وخيرة الله من خلقه ، وصفوته منهم ، ولولا خشية الاطالة ولولا حذر الملالة لأوردت لك بعض شبهات المبطلين وترهاتهم وأجوبتها بما هو مقنع لكل طالب حق [1] .

---

(١) انظر عصمة الأنبياء للامام الرازي .. وكتب التفسير عند ذكر قصص الأنبياء في مواضعها من سور القرآن الكريم .

الفصل الخامس

الإيمان باليوم الآخر

قضت حكمة الله تعالى أن يحيى الناس على هدى وبصيرة ، وبذلك قضى على التساؤلات الفلسفية القديمة والحديثة ، من أين جئنا ؟ الى أين نسير ؟ من خلقنا ؟ ماذا يراد بنا ؟ ماذا بعد هذه الحياة الخ ؟

قضى بذلك على تلك التساؤلات التي قضى بها جهال حياتهم في تحري الأجوبة لها من خلال خيالاتهم وأوهامهم ويسمون ذلك فلسفة ، ولو خبطوا خبط عشواء وجانبوا كل عقل وحكمة .

قال الله تعالى (الله خالق كل شيء — منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى — وما خلقتُ الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون — وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور — فريق في الجنة وفريق في السعير) .

وكان مما أخبر الله تعالى به في كتابه وذكره رسوله محمد ﷺ في سنته من أركان الايمان : الايمان باليوم الآخر ، يوم الجزاء الوافي التام بعد هذه الحياة الدنيـــا .

وقد رأيت قبل الكلام على اليوم الآخر وما فيه ، أن أعرج قليلاً على ذكر بعض ما ذكر رسول الله ﷺ من علامات الساعة ودلائل اقترابها الصغرى منها والكبرى ، لنحذر في أعمالنا وسلوكنا من المخالفة ، ونزداد تعظيماً لأمر ربنا الذي يقدم لنا النذير تلو النذير بقرب قيام الساعة ووجوب احداث التوبة على كل حال ، واحسان العمل والاقبال على الله تعالى ، ونزداد تصديقاً لرسولنا محمد ﷺ حين نرى وقوع بعض ما أخبر بأنه سيقع ، وذلك دليل على وقوع باقي ما أخبر به حين يأذن الله تعالى بوقوع ذلك .

أشراط الساعة وعلاماتها الصغرى :

١ — أولى هذه العلامات بعثة النبي ﷺ وانشقاق القمر ، قال تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) . وقال ﷺ (بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى) . رواه مسلم .

٢ — ومنها وقوع الظلم والفساد من بعض حكام المسلمين على شعوبهم ، وخروج النساء الى الطريق كاسيات كأنهن عاريات لضيق ثيابهن أو رقتها وقصرها ، قال رسول الله ﷺ (صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كاسنمة البخت المائلة [1] لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) . رواه مسلم .

٣ — ومنها تضييع الأمانة بتوسيد أمور الجماعة الى غير الأكفاء ، وفي حديث البخاري أن رسول الله ﷺ قال للذي سأله عن علامات الساعة (.. اذا

---

(١) مائلات : عن الحق والصراط المستقيم . مميلات : أي لغيرهن من الرجال والنساء إلى ما هن فيه . البخت : نوع من الإبل ، وهي الخراسانية وأسنمتها مائلة وليست في مستوى ظهورها . فشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤوس هؤلاء النساء في ميلها بأسنمة البخت .

ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال يا رسول الله وكيف اضاعتها ؟ فقال (اذا وسد الأمر الى غير أهله) أي أسند الأمر الى غير مستحقيه .

٤) ومنها تقارب الزمان بقلة البركة في الأوقات ، ونقص العلم الشرعي الذي يدعو الى العمل ، والبخلُ في الخير وظهور الفتن والمفاسد وكثرة القتل في الناس . قال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ (يتقارب الزمان وينقص العلم ويُلقى الشح وتظهر الفتن ويكثر الهرج ، قالوا يا رسول الله ما هو ؟ أي الهرج ؟ قال القتل) . رواه البخاري .

٥) ومنها ترك الانتفاع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظهور الفاحشة في كبار الناس وفشو العلم في أراذل الناس فيأكلون به الدنيا ، وكثرة المال في أيدي الشباب والأولاد ، عن أنس رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله متى ندع الائتمار بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال (اذا ظهر فيكم ما ظهر في بني اسرائيل : اذا كانت الفاحشة في كباركم والعلم في رذالكم والمال في صغاركم) رذالكم — أرذأ الناس وأخسهم وأحقرهم .

٦ — ومنها تداعي أعداء المسلمين وتعاونهم في سبيل القضاء على الإسلام وأهله ، ومحاولتهم الآن الاستيلاء على قلوبهم بعد أن أحاطوا بهم بعد القرن السادس عشر — أي أن دخلوا بيوتهم ثم كان منهم من أخرج ومنهم من لا يزال جاثماً بفساده وكفره على بلاد المسلمين وخيراتهم ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة منكم وليقذفن في صدوركم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت) .

٧ — فشوّ الفواحش والمنكرات من الزنا وشرب الخمر ولعب الميسر وكثرة النساء عن الرجال في العدد عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال

رسول الله ﷺ (ان من أشراط الساعة أن يقل العلم — أي العلم الشرعي النافع — ويكثر الجهل — أي بالدين ، — والزنا وشرب الخمر ويقل الرجال وتكثر النساء — حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد) . متفق عليه .

٨ — ومنها فساد الأخلاق وسقوط القيم بأن يكذب الصادق ويصدق الكذوب ويتكلم في أمر الجماعة وشؤون الدولة من لا قيمة له بين الناس . عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (قبل الساعة سنون خداعة يكذب فيها الصادق ويصدق فيها الكذوب ويخوّن فيها الأمين ويؤتمن فيها الخائن وينطق فيها الرويبضة) قال شريح وينطق في أمر العامة وولاية أمورهم الرويبضة — هو الفويسق يتكلم في أمر العامة[1] . رواه أحمد .

٩ — ومنها ظهور متنبئين يدعون النبوة ويزعمون كذباً ان الله تعالى أرسلهم بشرائع بعد النبي الخاتم ﷺ وشريعته الخاتمة . عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي) رواه مسلم .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال (لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثان ، وانه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

١٠ — ومنها ظهور المفاسد وضياع الحقوق ، وانطلاق الناس في الملاهي وانغماسهم في الشهوات ، وظلم الحكام وانفلات حبل الأمن ، وزهد الآباء في الأولاد ، أو فساد الأولاد وغيظ آبائهم بذلك .

روى البيهقي في كتابه (البعث والنشور) بسنده الى المبارك بن فضالة

---

(١) في القاموس المحيط : الرويضة : تصغير الرابضة وهو الرجل التافه أي الحقير . ينطق في أمر العامة ، وهذا تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للكلمة : ج ٣ ص ٣٤٣ .

عن الحسن قال : خرجت في طلب العلم فقدمت الكوفة فاذا أنا بعبدالله بن مسعود فقلت : يا أبا عبد الرحمن : هل للساعة من عَلَم تعرف به ؟ فقال سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : (من اشراط الساعة أن يكون الولد غيضاً – قليلاً – والمطر قيظاً وتفيض الأشرار فيضاً ، ويصدق الكاذب ويؤتمن الخائن ويخوّن الأمين ويسود كل قبيلة منافقوها وكل سوق تجارها ، وتزخرف المحاريب وتخرب القلوب ، ويكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء ويخرب عمران الدنيا ، ويعمر خرابها وتظهر الفتنة وأكل الربا . وتظهر المعازف والكور وشرب الخمور ويكثر الشرط والغازون) ثم قال البيهقي : هذا إسناد فيه ضعف الا أن ألفاظه قد رويت بأسانيد أخر كثيرة متفرقة .

١١ – ومنها دخول الفتن والمصائب على المسلمين في بيوتهم ، وكثرة المال في أيديهم مع ترك شكر الله تعالى وكثرة الموت في زلازل وأمراض ، واجتماع الصليبيين على المسلمين ظلماً وغدراً . روى أحمد بسنده إلى معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ست من أشراط الساعة موتي وفتح بيت المقدس وموت يأخذ الناس كعقاص الغنم[١] . وفتنة يدخل خرابها بيت كل مسلم وأن يعطى الرجال الف دينار فيسخطها ، وأن يغدر الروم فيسيرون بثمانين بنداً – راية – تحت كل بند اثنا عشر ألفاً) .

وروى الترمذي بسنده الى أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (اذا اتخذ الفيء دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وتُعلم لغير الدين ، وأطاع الرجل امرأته وعقّ أمه ، وأدنى صديقه وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات في المساجد ، وساد في القبيلة فاسقهم وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأُكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات – الإماء المغنيات – والمعازف وشُربت الخمور ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فارتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً ، وآيات تتابع كنظام قطع سلكه فتتابع) .

---

(١) وباء يقع في الماشية فيقتلها .

١٢ — ومنها ظهور المسلمين بقيادة عيسى عليه السلام — أو قبله — على اليهود وابادتهم . روى البخاري وغيره أنه ﷺ قال (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى إن اليهودي ليختبيء وراء الحجر أو الشجر فيقول الحجر والشجر يا عبدالله يا مسلم : هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله) .

أشراط الساعة وعلاماتها الكبرى :

العلامات الكبرى التي تسبق قيام الساعة هي عشر علامات ، اذا جاءت علامة منها تتابعت بقيتها حتى اذا كان آخرها — وهي طلوع الشمس من مغربها — أغلق باب التوبة ، ويومذاك لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً ..

روى مسلم بسنده إلى حذيفة بن السيد الغفاري رضي الله عنه قال (طلع رسول الله ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال : (ما تذكرون) ؟ قالوا نذكر الساعة ، قال إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : فذكر الدخان ، والدجال والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب . وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم — وفي رواية — (نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس الى المحشر) .

وروى مسلم بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال (ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض) .

أ — الدخان :

ورد ذكر الدخان الذي هو من علامات الساعة الكبرى في القرآن الكريم ،

قال الله تعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم) .

وقد اختلفت أقوال العلماء في الدخان هذا على أقوال ثلاثة : **الأول** : ان الدخان من أشراط الساعة وانه لم يجىء بعد ، وهذا هو القول الراجح , وانه يمكث في الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض ، وهو من آثار جهنم يوم القيامة . أخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً (أول الآيات الدجال ونزول عيسى ونار تخرج من قعر عدن أبْيَن تسوق الناس الى المحشر تقيل معهم اذا قالوا والدخان) قال حذيفة يا رسول الله ما الدخان ؟ فتلا رسول الله ﷺ (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) وقال (يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره) . فالدخان على ظاهره ، والمعنى : فارتقب يوم ظهور الدخان [1] .

الثاني ان الدخان هو ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبي ﷺ كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً ، قاله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ، وقد كشفه الله تعالى عنهم .

روى البخاري بسنده الى عبدالله بن مسعود ، رضي الله عنه قال (انما كان هذا لأن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسبع سنين كسني يوسف عليه السلام ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله تعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) .

قال فأتي رسول الله ﷺ فقيل له يا رسول الله : استسق لمضر فانها قد هلكت ، قال لمضر انك لجريء فاستسقى فسقوا ، فنزلت (انكم عائدون) .* وهذا انما هو من تفسيره وقد جاء النص عن رسول الله ﷺ بخلافه . قال

---

(١) انظر روح المعاني للآلوسي / ٢٥ — ١١٨ .

القرطبي وقد روي عن ابن مسعود انهما دخانان . قال مجاهد كان ابن مسعود (رضي الله عنه) يقول هما دخانان قد مضى أحدهما والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض .

الثالث : ان الدخان كان يوم فتح مكة لما حجبت السماء الغبرة كما نقل ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو كناية عما أصاب أهل مكة ذلك اليوم من الخوف والذل ونحوهما [1] والله أعلم .

٢ ـ الدجال :

الدجال هو الكذاب المفتري على الله تعالى ، وقد سبق ذكر أنه سيكون في هذه الأمة دجالون كذابون ثلاثون يزعم كل أنه مرسل من عند الله تعالى مثل مسيلمة ، وسجاح وغلام أحمد القادياني وعلي بن محمد الفارسي .

والدجال المراد في العلامات الكبرى هو الكذاب الأكبر الذي يخرج على الناس في رقة من الدين وبُعد عنه يزعم أنه مهدي وصالح ، ويكون بدء ظهوره من أصبهان وينصره من أهلها سبعون ألف يهودي عليهم الأسلحة والتيجان ، وكذلك ينصره سبعون ألفاً من التتار وخلق من أهل خراسان ، فيظهر أولاً في صورة ملك من الملوك الجبابرة ثم يدعي النبوة ثم يدعي الربوبية فيتبعه على ذلك الجهلة من بني آدم والطغام من الرعاع ، ويخالفه ويردّ عليه من هداه الله تعالى من عباده الصالحين وحزب الله المتقين ، ويسيح في الأرض فيأخذ البلاد بلداً بلداً وحصناً حصناً حتى لا يبقى عليه بلد لا يدخله سوى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فان الله تعالى يحميهما منه بالملائكة .

وقد بين رسول الله ﷺ صفته وانه : واسع الجبهة ، سقط الشعر من قبل وجهه ، وانه مطموس عينه اليسرى والأخرى كأنها عنبة طافية ، مكتوب بين

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود / ٤ ـ ١٩٣ / .

عينيه ك ف ر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب ، وتكون قلوب المؤمنين يومئذ مثل قلوب الصحابة حين أخبرهم رسول الله ﷺ خبره أو خيراً . كما في الترمذي .

وأخبر ﷺ عن أعماله ، انه يبقى في الأرض أربعين يوماً : يوماً كسنة ويوماً كشهر ويوماً كجمعة وسائر أيامه كأيام الناس، وان الله تعالى يخلق على يديه خوارق استدراجاً وفتنة ، مثل ان تمطر السماء بأمره ، وأن تخرج الأرض كنوزها بطلبه ، فيفتتن به الناس الا المؤمنين فانهم يزدادون هدى على هداهم ، ويضيق الأمر عليهم به لعنه الله تعالى .

في ذلك الأثناء يكون نزول عيسى السلام على المغارة الشرقية من مسجد بني أمية عند اقامة صلاة الصبح ، ويصلي خلف المهدي مع المسلمين ، فتجتمع كلمة المسلمين عليه عليه السلام فيسير بهم عليه السلام قاصداً الدجال وقد توجه الى بيت المقدس ليفتحها ، فيبلغه خروج عيسى عليه السلام اليه فيهرب من القدس قاصداً اللد فيدركه عليه السلام هناك عند باب اللد فيقتله بحربته وهو داخل اليها ، فيكون هناك وفاته [1] . والحمد لله .

وخبر الدجال متواتر جاءت به السنة الصحيحة ، اتفق على أحاديث منها البخاري ومسلم وانفرد كل منهما بأحاديث ، وجاء كذلك في كتب السنن والمستدركات . فلا شك في ظهوره لعنه الله تعالى وعيثه في الأرض الفساد حتى يأذن الله تعالى بهلاكه .

وقد حذر الأنبياء أقوامهم منه ، وحذر منه النبي ﷺ وأخبر انه أعظم فتنة يفتن بها البشر ، ولقد كان من دعائه ﷺ في الصلاة (اللهم اني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال) . رواه مسلم .

* وقد جمع ابن كثير في كتابه / الملاحم والفتن / والكشميري في كتابه

---

(١) انظر كتاب / الملاحم والفتن / لابن كثير / ١ – ١٢٩ / .

/ التصريح بما تواتر في نزول المسيح / وغيرهما ، أحاديث كثيرة في تقرير خروج ذلك اللعين وصفته وفتنته ونهايته .

* عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما من نبي الا قد أنذر أمته الأعور الكذاب ألا انه أعور وان ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه ك ف ر) . متفق عليه .

* عن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال (ان الدجال يخرج وان معه ماءً وناراً فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق ، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد وعذب فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فانه ماء عذب طيب [1]) . متفق عليه .

وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما بين آدم الى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال) رواه مسلم .

٣ — الدابة :

ورد في القرآن الكريم ذكر الدابة وخروجها قبل يوم القيامة تكلم الناس بلغة فصحى ، قال الله تعالى (واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم) . قال ابن عباس رضي الله عنهما تكلمهم وتخرجهم — بمعنى تكتب على جبين الكافر (كافر) وعلى جبين المؤمن (مؤمن) [2] .

ويكون خروجها حين يترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [3] ، ويرق الدين ، ويتأخر الزمان ، وذلك في أخريات أيام عيسى عليه السلام .

---

(١) قال القاري : والمعنى ان الله يجعل ناره ماء بارداً عذباً على من كذبه ، والقاه فيها كما جعل نار نمروذ برداً وسلاماً على ابراهيم عليه الصلاة والسلام انظر مرقاة المفاتيح له / ٥ — ١٩٢ / .

(٢) روي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عمر اخرجه ابن مردويه .

(٣) انظر كتاب / الفتن والملاحم لابن كثير / ١ — ١٢٩ / .

وقد أخبر رسول الله ﷺ أنها تخرج ثلاث خرجات يكون ثالثها آخرها ، وفيها يكون عملها ، قال أبو داود الطيالسي : وذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال (لها ثلاث خرجات في الدهر ، فتخرج خرجة من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية – يعني مكة – ثم تكمن زماناً طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيعلو ذكرها في أهل البادية ويدخل ذكرها القرية – يعني مكة – قال رسول الله ﷺ : بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها – المسجد الحرام – لم يرعهم الا وهي ترنو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب ، فارفض الناس منها شتى ومعاً ، وثبت عصابة من المؤمنين وعرفوا انهم لم يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم [1] حتى جعلتها كالكوكب الدري ، وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب ، حتى ان الرجل ليتعوذ منها في الصلاة – يعني يدخل في الصلاة يحتمي ويتظاهر بالصلاح كما يفعل الدجال حين يدركه عيسى عليه السلام يدخل في صلاة الظهر قبل دخول وقت الظهر – فتأتيه من خلفه ، فتقول يا فلان الآن تصلي ؟ فيقبل عليها فتسمه [2] في وجهه ، ثم تنطلق ، ويشترك الناس في الأموال ، في الأمصار يعرف المؤمن الكافر ، حتى ان المؤمن ليقول : يا كافر اقضي حقي ، وحتى ان الكافر ليقول يا مؤمن اقضي حقي) . قال ابن كثير هكذا رواه مرفوعاً من هذا الوجه ، بهذا السياق وفيه غرابة .

وقد ذكر رسول الله ﷺ صفة الدابة وانها عظيمة ، لها ذنب ووبر وقوائم ، أخرج ابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (وتخرج دابة الأرض من جياد فيبلغ صدرها الركن – ركن الكعبة – ولم يخرج بعدُ ذنبها ، وهي دابة ذات وبر وقوائم ؛ ويكون خروجها بعد طلوع الشمس من مغربها ، وذلك حين لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً) وحينذاك تنتهي فتنة ابليس لعنه الله لأنه

---

(١) تفعل ذلك بالخاتم كما رواه أحمد .

(٢) تخطم أنف الكافر بالعصا – كما رواه أحمد . انظر الفتن والملاحم / ١ – ١٦٢ / .

قد ختم على القلوب بالايمان والكفر فلا تبديل . وأخرج الحاكم في المستدرك وأبو نعيم وابن حماد في الفتن عن ابن مسعود رضي الله عنه أنها اذا خرجت تقتل ابليس عليه اللعنة — وهو ساجد وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها .

٤ — طلوع الشمس من مغربها :

الشمس آية من آيات الله تعالى جعل الله تعالى لها نظاماً في سيرها تنتهي فيه الى مستقر ومنتهى ، قدر الله تعالى لها ذلك ، وما كان لها أن تحيد عنه أو تميـــل .

وقد قضت حكمة الله تعالى — قبل قيام الساعة ايذاناً بانتهاء فرص الاختيار في الحياة الدنيا — أن تغرب الشمس يوماً على عادتها ويظلم الكون ويستمر ذلك وقتاً حتى يطول الليل على العبّاد ، ثم تؤمر بالعودة من جهة المغرب حتى تتوسط كبد السماء — لا تشرق من مشرقها — ثم تستمر في سيرها لمستقرها تشرق وتغرب كعادتها ، وذلك ايذان بغلق باب التوبة (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً) .

روى البخاري بسنده الى أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل ، فمن أحدث ايماناً وتوبة يومئذ لم تقبل منه حتى يكون مؤمناً أو تائباً قبل ذلك) .

وروى أحمد بسنده الى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (ان الهجرة خصلتان احداهما يهجر السيئات والأخرى يهاجر الى الله ورسوله ولا تنقطع — الهجرة — ما تقبلت التوبة ولن تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب ، فاذا طلعت طُبع على كل قلب بما فيه وكُفي الناس العمل) .

٥ ـ نزول عيسى عليه السلام :

عيسى بن مريم عليه السلام رسول من أولي العزم من الرسل ، خلقه الله تعالى من أم دون أب ، وجعله وأمه آية للناس . دعا قومه بني اسرائيل الى الله تعالى على هدى وبصيرة ، وكان كتابه التوراة أولاً ، ثم أنزل الله تعالى عليه الانجيل ، يحلل الله تعالى فيه بعض ما كان محرماً في التوراة مثل صيد السمك يوم السبت ، وأتى بآيات من عند الله تعالى وباذنه تظهر صدقه وتفلج حجته ، لكن المعاندين من بني اسرائيل والرومان ـ الذين كانوا يحتلون فلسطين آنذاك ـ كفروا به وعادوه وأرادوا به الأذى ، وكان عليه السلام ينتقل من مكان الى آخر داعياً الى الله تعالى يحذر الكافرين ويبشر المؤمنين ..

حتى اذا بلغ أولئك الكفار أنه عليه السلام قد نزل مكان كذا ، جاؤوا اليه يريدون قتله ، وكان يتقدمهم رجل آمن به عليه السلام حيناً ثم باع دينه بعرض من الدنيا قليل فجزاه الله تعالى سوء نيته وفعله سوءاً فألقى شبه عيسى عليه السلام عليه ، فلما خرج على قومه ليخبرهم بوجود عيسى عليه السلام في ذلك المكان .. أخذوه هو ، وقتلوه وصلبوه .

أما عيسى عليه السلام ، فرفعه الله تعالى الى السماء الثانية فهو فيها الآن (١) وقد رآه نبينا ﷺ ليلة أسري به الى السماء ، وهو باق ثمة حتى يأذن الله تعالى بنزوله الى الأرض ، فينزل اليها حكماً عدلاً بشريعة محمد ﷺ ، يقيم الله به العدل ، ويرفع الكفر ، ويؤمن به نبياً من كان يراه من قبل إلهاً ، ومن كان ينسبه الى الكفر معاذ الله (١) .

ونزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان من الأخبار المتواترة التي يجب على كل مؤمن الايمان بها ولا يسعه انكارها ، ولا تأويلها بما يخرج بها عن حقيقتها .

---

(١) قال تعالى (واذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ـ قابضك من الدنيا فإن التوفي هو القبض ـ ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ـ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان=

ورد في نزوله عليه السلام وما يتعلق بعمله في الأرض بعد نزوله اثنان وسبعون حديثاً ما بين متفق عليه بين البخاري ومسلم وغيرهما ، ومنفرد به البخاري ، ومنفرد به مسلم أو غيرهما [١] . ووردت الاشارة اليه في ثلاث آيات .

وسيكون نزوله عليه السلام على المغارة البيضاء الشرقية من مسجد بني أمية وقد أقيمت الصلاة لفرض الصبح ، فحين يراه المهدي يذهب ليستأخر ، فيقدمه عيسى عليه السلام قائلاً : ان الصلاة قد أقيمت لك ، فيصلي بالناس المهدي ، ويقتدي به عيسى عليه السلام .

ويكون نزوله عليه السلام على قوة من المسلمين أهل الشام الذين جمعهم الله تعالى على المهدي — الذين يغزون القسطنطينية — فتفتح لهم فيخبرون بخروج الدجال ومحاصرته المسلمين في القدس الشريف ، فينطلق عيسى عليه السلام ومن معه من المسلمين الى بيت المقدس ، فحين يسمع به الدجال يهرب من القدس حتى يصل الى / اللد / وعيسى عليه السلام في أثره فيدركه عند باب / اللد / وقد قام يصلي الظهر قبل دخول وقت الظهر — ينافق لعيسى عليه السلام — فيضربه عيسى عليه السلام برمحه ضربة يقتله بها ، ويذوب بها كما يذوب الملح في الماء ، فيخلص الناس من بلاء عظيم بل أعظم بلاء وفتنة يصيب الناس .

= الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ، وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً .) .

(١) رسالة الشيخ محمد أنور الكشميري التي نظمها الشيخ محمد شفيع مفتي باكستان وحققها وخرجها وأضاف إليها أحاديث ونصوصا الشيخ عبد الفتاح ابو غدة بعنوان / التصريح بما تواتر في نزول المسيح / وهي أكثر من مائتي صفحة ، فيها بيان لهذا الأمر الصحيح الذي أنكره منحرفون ، وبعض المتحررين أو أولوه تأويلاً باطلاً ، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً فانظرها فهي رسالة عظيمة الفائدة .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية – لا يقبلها من كافر – ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، ثم يقول أبو هريرة فاقرؤوا إن شئتم (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) الآية .

وروى مسلم بسنده الى أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (والله لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلامى – النوق الشابة – فلا يُسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعونّ – أي الناس – الى المال فلا يقبله أحد) .

وفي رواية للبخاري ومسلم (كيف أنتم اذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) أي المهدي رضي الله عنه .

* وروى أحمد وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (.. وانه نازل فاذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع الى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصران كأنّ رأسه يقطر وان لم يصبه بلل فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس الى الاسلام ويهلك الله تعالى في زمانه الملل الا الاسلام ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال ، ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الابل والنمار – جمع نمر – مع البقر ، والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى) [1] *

ثم يحج عليه السلام ويزور النبي ﷺ ، وهناك في طيبة الخير يموت ، فيصلي عليه المسلمون ، ويدفن في الحجرة النبوية الطاهرة . روى ابن الجوزي

---

(١) وإذا توفي عليه السلام قل الخير وآذن الله بظهور الفساد وازدياده حتى ينسى الناس الايمان ، فيكون قيام الساعة على شرار الخلق .

في كتاب الوفاء بسنده أن رسول الله ﷺ قال في شأن عيسى عليه السلام (.. ثم يموت فيدفن معي في قبري فأقوم أنا وعيسى بن مريم في قبر واحد بين أبي بكر وعمر) . وذكر مثله الامام الشعراني في مختصر تذكرة الامام القرطبي ، وهو كتاب متداول مطبوع .

٦ – خروج يأجوج ومأجوج :

وفي زمان عيسى عليه السلام يكون خروج يأجوج ومأجوج الى الناس وهم من كل حدب ينسلون ويأجوج ومأجوج قبيلتان من أولاد يافث بن نوح عليه السلام ، فهم من البشر ، وليسوا – كما جاء في روايات كاذبة – صغار القامات جداً لهم آذان كبيرة يفترشونها لنومهم ، أو طوالاً عمالقة ، ولكنهم كثرة مكثرة كأن ليس لهم عدو معلوم ، يخرجون من بلادهم فيسيرون في الأرض ، يأكلون – لكثرتهم – ما يقابلهم من طعام ونبات ، ويشربون – لكثرتهم – ما يمرون عليه في طريقهم من ماء ، حتى انهم يشربون بحيرة طبريا ، فيدعونها أرضاً ليس بها ماء .

قال العلامة اسماعيل بن كثير : وهم من ذرية نوح عليه السلام من سلالة يافث أي – الترك – وقد كانوا يعيثون في الأرض فساداً يؤذون أهلها ، فحصرهم ذو القرنين في مكانهم داخل السد حتى يأذن الله بخروجهم على الناس ، فيكون من أمرهم ما ذكر في الأحاديث ، وهم يشبهون الناس كأبناء جنسهم من الترك الغشم – أي الأعجام الذين لا يفهمون شيئاً – المغول المخرزمة عيونهم المخروزة – الضيقة – الذلف أنوفهم – صغارها وغلاظها

---

(١) ورد في هذه الرواية انه عليه السلام يمكث اربعين سنة ، وفي رواية مسلم انه يبقى سبع سنين ، وقد جمع العلماء بين الروايتين انه عليه السلام يبقى في الأرض بعد نزوله سبع سنين ، وقد كانت سنه حين رفع إلى السماء ثلاثاً وثلاثين سنة ، فذلك تمام الأربعين . والله أعلم .

واستواء أطرافها — الصهب شعورهم — أي الشقر شعورهم وحمرها — أو على أشكالهم وألوانهم كذلك .

ومن زعم أن منهم الطويل الذي هو كالنخلة السحوق — الطويلة — أو أطول ، ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقير ومنهم من له أذنان يتغطى بأحدهما ويتوطى الأخرى — يجعلها وطاء وفراشاً — فقد تكلف ما لا علم له به وقال ما لا دليل عليه . روى ابن حيان في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيهم (ان يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم من صلبه ألف من الذرية) .

خروج يأجوج ومأجوج متواتر ، ثبت ذلك بالقرآن الكريم ، وجاءت به الأحاديث الصحيحة . قال الله تعالى (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) . الأنبياء .

وقال سبحانه (حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ، قالوا يا ذا القربين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً قال ما مكّني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً . آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى اذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليك قطراً فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ، قال هذا من فضل ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً . وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً) . الكهف .

وروى البخاري ومسلم بسنديهما الى أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها : ان رسول الله ﷺ نام عندها ثم استيقظ محمراً وجهه وهو يقول : لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج

ومأجوج مثل هذه — وحلق بين اصبعيه ، وفي رواية وعقد سبعين أو تسعين — قالت قلت يا رسول الله : انهلك وفينا الصالحون ! قال نعم اذا كثر الخبث) .

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن كيفية خروجهم فقال فيما رواه عنه أحمد (ان يأجوج مأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون له كأشد ما كان ، حتى اذا بلغت مدتهم وأرادا لله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم اغدوا فستحفرونه غداً ان شاء الله ويستثني ، فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فيتنسفون المياه — يشربونها — ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع اليهم وعليها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفاً — دود يخرج في أنوف الإبل والغنم — في أقفائهم فيقتلهم بها ، قال ﷺ (والذي نفسي بيده ان دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم) . ورواه ابن ماجه بلفظ فيه خلاف يسير .

وروى أحمد بسنده الى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون الى الناس كما قال الله تعالى (وهم من كل حدب ينسلون) فيغشون الناس وينحاز الناس عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون اليهم مواشيهم ، فيشربون مياه الأرض حتى ان بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبساً ، حتى ان من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان ههنا مرة ماء ، حتى اذا لم يبق من الناس أحد الا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء ، قال ثم يهز أحدهم حربته حتى يرمي بها إلى السماء فترجع اليه مختضبة دما — للبلاء والفتنة — فبينما هم على ذلك اذ بعث الله دوداً في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه فيصبحون موتى لا

يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون ألارجل يشتري لنا نفسه فينظر ما فعل العدو ؟ قال فيتجرد رجل منهم محتسباً ــ أي نفسه ــ قد أوطنها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض : فينادي يا معشر المسلمين الا ابشروا إن الله تعالى قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم يسرحون مواشيهم فما يكون لها رعى إلا لحومهم فتشكر منه ــ تسمن ــ كأحسن ما شكرت من شيء من النبات أصابته قط) .

وروى مسلم بسنده الى النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : بعد ذكر قتل الدجال عند باب اللد .. فبينما هم على ذلك اذ أوحى الله الى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام أني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان ــ لا قدرة ــ لك بقتلهم ، فحرز عبادي الى الطور فيبعث الله يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله تعالى (من كل حدب ينسلون) فيرغب عيسى وأصحابه الى الله عز وجل فيرسل الله عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون موتى كنفس واحدة ، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً الا ملأه زهمهم ــ رائحتهم الكريهة ــ ونتنهم ــ جيفهم ــ فيرغب عيسى وأصحابه الى الله عز وجل فيرسل طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله) . وذلك البحر .

وقد رجم بعض العلماء بالغيب في تعيين موضع السد الذي حبس خلفه يأجوج ومأجوج ، فمن قائل انهم في منتهى الشمال حيث لا يستطيع أحد غيرهم السكنى فيه وهم في زاوية من ذلك .

ومن قائل انهم وراء سد باب الأبواب ، وقائل انهم وراء سد الصين العظيم والكل ظن ، والله أعلم .

والحق أن يأجوج ومأجوج مقيمان بموضع من الأرض لا نعلمه ، وقد

منعوا من الخروج الى البشر بسور عظيم متين ، وكم في الأرض من جهات مجهولة [1] .

ولعله قد حال بيننا وبين ذلك الموضع مياه عظيمة ، أو جبال عالية ؛ ودعوى استقراء سائر البراري والبحار والجبال دعوى غير مسلمة .

وبعد أن أخبر الصادق المصدوق محمد ﷺ بوجود هذين السدين وما يتبعهما — طبقاً للقرآن الكريم — يلزمنا الإيمان بذلك كسائر ما أخبر به من الممكنات الغريبة .

والالتفات الى كلام المنكرين ناشىءٌ من قلة الدين .

٧ ، ٨ ، ٩ — الخسوف الثلاثة .

خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب .

قال ابن الملك قد وُجد الخسف في مواضع ولكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف الثلاثة قدر زائد على ما وُجد كأن يكون أعظم مكاناً وقدراً [2] .

قال الشيخ محمد شمس الحق : وقد وقع بعضها في زمن النبي ﷺ فيما ذكره ابن وهب .

وذكر أبو الفرج بن الجوزي أنه وقع بعراق العجم زلازل وخسوفات هلك بسببها خلق كثير . قال الامام القرطبي وقد وقع ذلك عندنا بشرق الأندلس فيما سمعناه من بعض مشايخنا [3] .

---

(١) اذا شئت استعراض الأقوال والأحوال ليأجوج ومأجوج فارجع إلى رسالة / سد ذي القرنين / للشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح / ٥ — ١٨٧ / .

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود / ٤ — ١٩٤ / .

١٠ — النار :

نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم ، وفي رواية نار تخرج من قعرة عدن ترحّل الناس ، قال النووي : ومعناه من أقصى قعر أرض عدن . وعدن مدينة معروفة مشهورة باليمن . قال الماوردي : سميت عدناً من العدون وهو الاقامة لأن تُبّعاً كان يحبس فيها أصحاب الجرائم . وهذه النار الخارجة من قعر من عدن واليمن هي الحاشرة للناس ، وليست هي النار التي وردت في قوله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى) مسلم .

قال النووي : فان هذه النار ليست متعلقة بالحشر بل هي آية من أشراط الساعة مستقلة . وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة وكانت ناراً عظيمة جداً من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة وتواتر العلم بها عند جميع أهل الشام وسائر البلدان ، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة [١] . وتلك النار تسوق أي تطرد الناس الى المحشر أي المجمع والموقف . قيل المراد من المحشر أرض الشام اذ صح في الخبر أن الحشر يكون في أرض الشام ، لكن الظاهر أن المراد أن يكون مبتدؤه منها أو تجعل واسعة تسع خلق العالم [٢] والله أعلم .

وقال شمس الحق وقد قيل ان أول الآيات الدخان ثم خروج الدجال ثم نزول عيسى عليه السلام ثم خروج يأجوج ومأجوج ثم خروج الدابة ثم طلوع الشمس من مغربها فان الكفار يسلمون في زمن عيسى عليه السلام حتى تكون الدعوة واحدة ولو كانت الشمس طلعت من مغربها قبل خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام لم يكن الايمان مقبولاً من الكفار . يشير الى قوله

---

(١) النووي على مسلم بهامش القسطلاني / ١٠ — ٣٥٥ .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري / ٥ — ١٨٨ / .

تعالى (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً) [١] وقال رسول الله ﷺ (ثلاث اذا خرجن لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض) . رواه مسلم .

قال صاحب فتح الودود : والأقرب في مثله التوقف والتفويض الى عالمه ، سبحانه .

قال الطيبي بعد سرد حديث رسول الله ﷺ (ان أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها) .. الحديث : فان قيل طلوع الشمس ليس أول الآيات لأن الدخان والدجال قبله . قلنا الآيات اما امارات لقرب قيام الساعة واما امارات دالة على وجود قيام الساعة وحصولها ، ومن الأول الدخان وخروج الدابة ونحوهما ، ومن الثاني ما نحن فيه من طلوع الشمس من مغربها والرجفة وخروج النار وطردها الناس الى المحشر . وانما سمي أولاً لأنه مبتدأ القسم الثاني . ويؤيده حديث أبي هريرة بعده (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها) ا هـ . [٢] والله أعلم .

القيامة الصغرى ــ الموت :

قال أنس رضي الله تعالى عنه : من مات فقد قامت قيامته .

لا بد لكل نفس مخلوقة من الموت في الأجل الذي قدره الله تعالى لها ، قال الله تعالى (كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) .

---

(١) عون المعبود / ٤ ــ ١٩٣ / .

(٢) مرقاة المفاتيح / ٥ ــ ١٨٨ / .

وقال كعب بن زهير :

كل ابن أنثى وان طالت سلامتــه   يوماً على آلة حدباء محمول .

جعل الله تعالى الموت غاية كل انسان ، قال الله تعالى (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور – . وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) .

وهكذا جـــاء بيان القرآن الكريم جواباً صريحـــاً على أسئلة الفلسفة الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) المسكينة ، التي تدور بعقول أصحابها في متاهات خيالات ، وأودية أوهام – بعيدة عما تكفل الله تعالى ببيان الحق فيه – ما نحن ؟ من أين جئنا ؟ كيف جئنا ؟ ما عملنا ؟ لماذا جئنا ؟ الى أين نسير ؟ ما النهاية ؟ – ثم لا تصل الى شيء لأنها لا تسلك طريق النور ولا تتبع ارشاد الهادي سبحانه .

نحن بشر خلق الله تعالى أصلنا الأول آدم عليه السلام من تراب عجنه بالماء فصار طيناً وصورة ، ثم تركه حتى يبس الطين فكان صلصالاً ونفخ الله تعالى فيه من روحه وخلقه بأمره ، ثم خلق من نفسه عليه السلام زوجه حواء ، ثم توالد الخلق منهما ومن كل الآباء والأمهات الى أن أصبحوا يعدون الآن أكثر من ثلاثة آلاف مليون انسان .

هكذا ابتدأت الحياة الانسانية وهكذا جئنا الى الحياة الدنيا . أما عملنا في هذه الحياة فطاعة الله تعالى ، والوقوف عند حدود أمره ونهيه لمن أراد النجاة والفلاح .

لقد خلقنا الله تعالى ليختبرنا أينا أحسن عملاً ويكافئنا على أعمالنا ان خيراً فخيراً وان شراً فشرا ، وان مردنا الى الله تعالى – وان القرار والنهاية في دار الجزاء : وانها لجنة أبداً أو النار أبداً .

فما هو الموت ؟ الموت انطفاء شعلة الحياة في القلب والجسم . الموت

انتهاء فرصة العمل الجليل والحقير . الموت خروج عن الحياة الدنيا وما فيها من إطاعات . وأماني وأهواء ، الموت فراق الأهل والولد والماء والناس والجاه ، الموت انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولته بينهما ، وتبدل حال وانتقال من دار الى دار . الموت أول مرحلة من مراحل الحياة الآخرة .

ولما في الحياة من فرص العمل التي لا تعوض ، وغنائم الخير التي لا تفوّت ، لما جعل الله تعالى الحياة مزرعة يزرع الانسان فيها ما يحصد غداً ، وسوقاً يتاجر فيها العاقل فيجني جناه غداً ، لمثل ذلك كان حراماً على المؤمن أن يتمنى الموت ويطلبه ويدعو على نفسه به ، فضلاً عن أن يبادر اليه بيده — الا اذا خاف الفتنة فيحق له بذلك أن يطلب الموت ويدعو به كما كان من مريم عليها السلام حين جاءت قومها بعيسى عليه السلام وخشيت تهمة الناس ، روى البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا يتمنين أحدكم الموت اما محسناً فلعله أن يزداد واما مسيئاً فلعله أن يستعتب) . وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فان كان لا بد متمنياً فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيراً لي) .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعُ به قبل أن يأتيه انه اذا مات أحدكم انقطع عمله وانه لا يزيد المؤمن عمره الا خيراً) .

وحكى الله تعالى في القرآن الكريم من قول مريم رضي الله عنها حين حملت بعيسى عليه السلام وجاءها المخاض وخافت تهمة الناس والفتنة (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) .

وروى مالك بسنده الى عمر رضي الله عنه أنه قال : (اللهم قد ضعفت

قوتي وكبر سني وانتشرت رعيتي فاقبضني اليك غير مضيع ولا مقصر) .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأبها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً) .

لكن هذا الموت ليس فناء ونهاية ! انه عرض موقت ، فان الانسان مخلوق للأبد .

كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يقول : انما خلقتم للأبد والبقاء ولكنكم تُنقلون من دار الى دار . رواه الطبراني والحاكم في المستدرك عنـــــه .

وما أحسن قول ابن القيم :

فحيَّ على جنات عدن فانها   منازلك الأولى وفيها المخيم .

وكان رسول الله ﷺ يعدّ الموت هدية للمؤمن وتحفة ، لما أنه يخرج من دار الفتنة والعمل الى دار الأمان والأجر ، روى أحمد وسعيد بن منصور عن محمود بن لبيد رضي الله تعالى عنه ان النبي ﷺ قال (اثنتان يكرههما ابن آدم يكره الموت وهو خير له من الفتنة ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب) . وروى الحاكم في مستدركه والطبراني في الكبير وابن المبارك في الزهد والبيهقي في الشعب عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال (قال رسول الله ﷺ (تحفة المؤمن الموت) . وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي الدنيا عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال (ليس للمؤمن راحة دون لقاء ربه) . وهو كذلك حقاً ، لأن المؤمن ينتقل الى رب كريم عفو غفور يغفر الذنب العظيم للعمل الصغير . لكن الموت بالنسبة للكافر اخذة أسف

وحسرة وندامة » وما بعده شر منه وأعظم ، قال الله تعالى (حتى اذا جاء أحدهم الموتُ قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) . روى أبو نعيم عن مجاهد رحمه الله تعالى عند قوله تعالى (من ورائهم برزخ) قال : ما بين الموت والبعث .

وروى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال لأبي ذر (يا أبا ذر الدنيا سجن المؤمن والقبر أمنه والجنة مصيره يا أبا ذر الدنيا جنة الكافر والقبر عذابه والنار مصيره) . وفي معنى هذا الحديث حسن مسلم (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) .

مر رجل مسلم راكباً على يهودي يعمل في تنقية المجاري ، فاستوقفه اليهودي وسأله : كيف يقول نبيكم (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) أي سجن هو فيه الآن ؟ وأي جنة الكافر فيها الآن ؟ فقال له الرجل المسلم : حين يكرمني الله تعالى بدخول الجنة أنعم فيها بما أشاء أرى أني كنت في سجن لأني كنت فيها مأموراً منهياً ، وحين يهين الله تعالى الكافر بالذل والعذاب في النار يرى أنه كان في الدنيا في جنة حيث يفعل فيها ما يشاء له هواه . فقطع الخبيث .

الاعداد للموت :

ولما كان الموت نهاية الفرص للعمل الصالح ، كان لا بد من الموت لما بعده ، وذلك :

١) بطريق العزم والثبات على الايمان في كل حال من ليل أو نهار ، من شباب أو شيخوخة ، من غنى أو فقر ، من خلوة أو جلوة ، ومن سلطان وجاه ، فان الموت قد يبغته دون انذار من مرض أو كبر ، قال تعالى

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) .

٢) بطريق تذكر الموت ومـا يعني الموت في حياة الانسان من قطع اللذات ، فينقطع عما حرم الله تعالى قبل أن يُقطع عنها ويبقى عليه اثمها ووبالها . روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (اذكروا هاذم اللذات الموت) .

وروى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سئل رسول الله ﷺ أي المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم لما بعده استعداداً أولئك هم الأكياس) .

وقال بعضهم : من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة وقناعة القلب ونشاط العبادة . ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة وترك الرضا بالكفاف والتكاسل عن العبادة .

أخرج ابن أبي الدنيا بسنده الى صفية رضي الله عنها أن امرأة شكت الى عائشة رضي الله عنها قسوة القلب : فقالت : اكثري ذكر الموت يرق قلبك .

٣) بطريق زيارة القبور خاصة قبور العلماء والصالحين بل والطغاة والمتكبرين ، فيذكر المؤمن أن الله تعالى يحب الصالحين ويبغض الفاسدين ، فيستعد للموت قبل أن ينزل به ويحيى الحال التي يجب أن يأتيه الموت وهو عليها . روى ابن ماجه والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة . ومثله في مسلم (زوروا القبور فانها تذكر الموت) .

٤) بطريق الاكثار من الطاعات قبل أن يموت فيندم ـ ولو دخل الجنة ـ على ما فاته في الدنيا وتكاسل عن القيام بها . روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما من أحد يموت الا ندم .

قالوا وما ندامته يا رسول الله ؟ قال (ان كان محسناً ندم ان لا يكون ازداد وان كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع)[1] .

٥) بطريق قصر الأمل ، فيرى كم وكم من الصغار ماتوا قبل آبائهم وأجدادهم ، وكم من زهرة سقطت قبل أن تنعقد مكانها ثمرة ! . كم من جزلة أحرقت قبل أن تحرق كبار الحطب ! كم من وردة قطفت ولما تخرج من كمها وكم من الناس ماتوا شباباً أشد ما يكونون حرصاً على الحياة ورغبة في الدنيا كم من الحكام ماتوا وهم في أوج السلطان والجاه ! كم من الناس ناموا صحاحاً فما استيقظوا ، وكم منهم أكلوا طعاماً فماتوا قبل أن يهضموه ، أو قاموا الى الصلاة فماتوا في الصلاة .

فأي شيء يحول بين الموت وأن يأتي الانسان في أية لحظة ؟! اللهم لا أحـــد . .

يـــا من بدنيـــاه اشتغـــــل وغره طـــــول الأمل
المـــــوت يــــأتي بغتـــــة والقبر صندوق العمـــــل .

٦) بطريق ادامة ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه والصلاة والسلام على رسوله محمد ﷺ ، فمن عاش على ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه والصلاة على نبيه ﷺ جاءه الموت وهو على ذلك فالمرء يشيب على ما شب عليه ويموت على ما عاش عليه .

وبعض من الناس — الغافلين عن الذكر — يأتيه الموت وهو يذكر تجارته أو لعبه أو شهوته فيموت غافلاً . واذا لقن ذلك الغافل كلمة لا اله الا الله عند الموت — حتى يحقق موته على الايمان ويكرمه الله تعالى بانقاذه من النار قد لا يستجيب لمن يلقنه ، بل ربما وبخه وسبه لأنه ما عاش على ذكر الله تعالى . .

---

(١) في الصحاح — نزع عن الأمور — انتهى عنها .

فلا يموت عليه معاذ الله .

٧) بطريق حسن الظن بالله تعالى مع حسن العمل ، والخوف من الله تعالى مع تقديم الطاعة ، روى البخاري بسنده الى جابر رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قبل وفاته بثلاث (لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بربه) .

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على الشاب وهو في الموت فقال (: كيف تجدك ؟ قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي ، فقال ﷺ (لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا أعطاه الله ما يرجوه وأمنه مما يخاف) .

وروى أحمد بسنده الى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (ان الله تعالى قال : انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء إن ظن خيراً فله وان ظن شراً فله) .

حياة البرزخ :

هي دور من أدوار النفس الأربعة التي يمر عليها كل انسان ثم ينتهي الى آخرها . قال ابن القاسم : للنفس أربعة أدوار : كل دار أعظم من التي قبلها . (الأولى) بطن الأم ، وذلك محل الضيق والهم والغم والظلمات الثلاث . (الثانية) هي التي نشأت بها وألفتها واكتسبت منها الشر والخير . و (الثالثة) هي دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم ، ونسبة هذه الدار اليها كنسبة البطن الى هذه . (الرابعة) هي دار القرار في الجنة أو النار .

ولها في كل دار من هذه الدور شأن غير شأن الأخرى [١] .

---

(١) بشرى الكئيب بلقاء الحبيب للامام السيوطي .

القبر :

هو المنزل الذي ينتقل اليه الانسان من هذه الحياة الدنيا ، قد يكون حفرة في الأرض ، وقد يكون بطن الحيوان المفترس ، أو قاع البحر وطعام السمك ، أو جمع النار ورماده .

فاذا وضع الانسان فيه على ما هو السنة — لمن قبر في الأرض — وقرىء عليه من القرآن دون أجر ما قرىء ، واستُغفر له وسئل الله له التثبيت ، وتُرك وحيداً فريداً ليس معه الا ما قدم من عمل خير أو شر ، أتاه ملكان عظيمان مهيبان هما منكر ونكير ، ليسألاه أسئلة يجيب عليها بما كان يعتقد لا بما قد يكون حفظ .

روى البخاري بسنده الى أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال (ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه — وانه ليسمع قرع نعالهم — أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل : لمحمد ﷺ ، فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً ، وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لا أدري كنت أقول ما يقوله الناس ، فيقال لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين الانس والجن .)

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن منده عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه قال (ان المؤمن اذا مات أجلس في قبره فيقال له من ربك ؟ فيقول الله ، فيقال له من نبيك ؟ فيقول محمد بن عبدالله ، فيقال له ذلك ثلاث مرات ، ثم يفتح له باب الى النار فيقال له انظر الى منزلك لوزغت عنه ، ثم فتح له باب الجنة ، فيقال له انظر الى منزلك في الجنة اذ ثبتّ ،

وإذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له من ربك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول لا أدري كنت أسمع الناس يقولون ، فيقال له لا دريت ثم يفتح له باب إلى الى الجنة ، فيقال له انظر الى منزلك لو ثبتّ ، ثم يفتح له باب الى النار فيقال له انظر الى منزلك إذ زغت) فذلك قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا) قال لا اله الا الله (وفي الآخرة) قال المسألة في القـبر .

ثم يضغط القبر ضغطة تختلف معها عظام كل من المؤمن والكافر ، غير أن الضغطة تلك دائمة على الكافر لا تدعه ، بينما هي على المؤمن لوقت يسير . روى النسائي في كتاب الجنائز بسنده الى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضم ضمة ثم أفرج عنه) والذي تحرك له العرش هو سعد بن معاذ رضي الله عنه ، الذي استشهد بعد حكمه على رجال يهود بني قريظة بالقتل بسبب غدرهم بالمسلمين يوم غزوة الأحزاب .

نعيم القبر وعذابه أمر ثابت لا ريب فيه ، قال الله تعالى في حق فرعون وقومه (النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (انما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار) . رواه الترمذي .

وروى البخاري بسنده الى عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده من الغداة والعشي ان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وان كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة) .

سؤال القبر ونعيمه وعذابه أمر حق ثابت بالدليل . وان كنا لا نعلم كيف يكون ذلك .

لقد كان جبريل عليه السلام يأتي رسول الله ﷺ بالوحي ويقرأ عليه القرآن ، وكان يعارضه القرآن الساعات ، ولا يراه أحد من الصحابة ولا يسمعون صوته . ومع ذلك فهو حق لا ريب فيه . قال الامام أبو بكر الباقلاني في / الانصاف / ويجب أن يُعلم أن كل ما ورد في الشرع من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ورد الروح إلى الميت عند السؤال ونصب الصراط والميزان والحوض والشفاعة للعصاة من المؤمنين ، كل ذلك حق وصدق ويجب الايمان به والقطع به [1] .

(١) ص ٦٥ . انظر في تقريب حقيقة سؤال القبر كتاب / عوالم الآخرة / للشيخ عبد الله سراج الدين حفظه الله تعالى .

كيف تقوم السّاعة

واذا وقعت جميع أشراط الساعة وهلك المؤمنون ولم يبق في الأرض الا شرار الناس [1] وقع زلزال عظيم يشمل أنحاء الأرض كلها فلا يفلت أحد من الذعر منه لدرجة الذهول عن كل شيء وذلك هو الصعق بالنفخة الأولى ولا تأتي الناس الا بغتة وهم في أعمالهم اليومية ، قال الله تعالى (يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها الا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة — ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض الا من شاء الله) ...

ويبدأ بعدها تخريب نظام الأرض والسموات ، قال الله تعالى (اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت واذا البحار فجرت) .. الانفطار (١ — ٢) .

ثم ترسل الرياح العواصف الهوجاء فتقلع الجبال من أماكنها وتدكها مع الأرض دكة واحدة تكون بعدها الجبال كالرمال الناعمة ثم تسير لتكون كالسراب وتتأجج البحار ناراً ، ويرجع ماؤها الى عنصرين أحدهما الهيدروجين وهو سريع الاشتعال والثاني الأوكسجين الذي يساعد على شدة الاشتعال ، ثم تملأ البحار بالتراب لتستوي مع بقية أجزاء الأرض حيث تصبح

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله) رواه مسلم والترمذي .

أكبر مساحة مما كانت عليه قبل زوال البحار والجبال .. وهكذا يصبح وجه الأرض أملس لا عوج فيه ولا أمت . قال الله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) . طه (١٠٥ ــ ١٠٧) .

واذا تم ذلك جاءت النفخة الثانية يبعث الله تعالى بها الخلائق جميعاً ، قال الله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض الا من شاء الله ثم نُفخ فيه أخرى فاذا هم قيــام ينظرون وأشرقت الأرض بنور ربها وَوُضِــع الكتاب) الزمر ٦٨ .

الصور :

والصور : البوق ، خلقه الله تعالى وجعله أداة ينفخ فيه الملك [١] نفختين حين يأمره الله تعالى بذلك ، فيموت بالنفخة الأولى من في السموات ومن في الأرض ممن أراد الله تعالى إماتتهم ، ثم يبعث الله تعالى كل من مات من الخلق منذ بدأ الله تعالى الخلق الى آخر ما خلق منهم قبل النفخة الأولى بتلك النفخة الثانية [٢] .

---

(١) هو اسرافيل عليه السلام .

(٢) انظر الاسلام كما فهمت للاستاذ محمد القاسمي .

البعث من القبور

جاء أبي بن خلف الى رسول الله ﷺ — وهو بمكة المكرمة — ومعه عظم بال يفتته فنفخ رماده على وجه رسول الله ﷺ ثم قال : يا محمد أترى ربك يحيي هذا بعد ما رمّ وبلي ؟ فقال ﷺ (نعم ويبعثك ويدخلك النار) . فأنزل الله تعالى خواتيم سورة يس (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .. الخ السورة .

ولما تعجب مشركو مكة من بعث الناس يوم القيامة وقد أصبحوا تراباً . أجابهم الله تعالى بقوله (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) .

فالله سبحانه عليم قدير . وهذه الأرض لا تهرب شيئاً من هؤلاء البشر . والله تعالى يريد بعث الناس فما الذي يحول بينه وبين مراده ؟ ارادة غيره ؟ لا . فإنه لا شريك له ، أعجزه ؟ لا فانه على كل شيء قدير ، وهو القائل (أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) .

ونضرب لبعث الناس مثلاً مقارباً : آلة حاسبة ضخمة دقيقة جداً ، فيها مئات الآلات والمسامير والابر الدقيقة قد أصابها عُطل ، يكلف صانعها باصلاحها ، يأتي الخبير الصانع الى مكان واسع يفرق تلك الآلات والمسامير والابر ينثرها هنا وهناك ، يخفي بعضها ويظهر بعضها . اذا رأى ذلك التصرف

رجل بسيط الفكر جاهل بخبرة الصانع قال واحسرتاه ! لقد ضاعت الآلة وذهبت سدى ، فيقال له لا .. هذا الخبير الذي صنع الآلة للمرة الأولى .. والأدوات جميعها عنده ، والآن هو يعيدها كما كانت لأنه يريد ذلك ويعلمه .

عند ذاك يسكت الرجل البسيط ويهز رأسه قائلاً : إن كان الأمر هكذا فلا خوف اذن ولا ضياع ، فالخبير سيعيد الآلة الحاسبة كما كانت من قبل ، مع أن الخبير بشر قد ينسى ، يغفل – يضيع ، يضعف ويُمنع . فالله سبحانه ولله المثل الأعلى في علمه وقدرته وارادته ووعده ووحدانيته أولى بأن يقال عند اخباره لنا بأنه يبعث الخلق يوم القيامة (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) .

كيف يبعث الخلق : ؟

١ – روى مسلم في صحيحه بسنده الى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما بين النفختين أربعون ، قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال أبيت ، قالوا أربعون شهراً ؟ قال أبيت قالوا أربعون سنة ؟ قال أبيت – ثم ينزل الله تعالى من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل قال ﷺ وليس شيء من الانسان الا يبلى الا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة) .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى (انا نحن نحيي ونميت والينا المصير يوم تشقّق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير) وذلك أن الله تعالى ينزل مطراً من السماء فينبت به أجساد الخلائق كلها من قبورها كما ينبت الحب في الثرى – التراب – بالماء فاذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى اسرافيل فينفخ في الصور [1]) وقد أودعت الارواح في ثقب الصور فاذا نفخ اسرافيل فيه

---

(١) الصور قرن ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام مرتين مرة ليموت الخلق جميعاً – الا ما =

خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل وعزتي وجلالي لترجعن كل روح الى الجسد الذي كانت تعمره ، فترجع كل روح الى جسدها فتدبّ فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشق الأرض عنهم ، فيقومون الى موقف الحساب سراعاً مبادرين الى أمر الله عز وجل . ا هـ .

قال الله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجاً) . ومن هنا نرى وجه الشبه المكرر كثيراً في القرآن الكريم بين انبات النبات واخراج الموتى ، وهو الخروج من الأرض في كل . قال الله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج) .

ويكون الرسول ﷺ أول من يخرج من قبره من البشر ، ويخرج بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ثم أهل البقيع المبارك ، روى الترمذي بسنده الى أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (انا أول الناس خروجاً اذا بُعثوا وأنا خطيبهم اذا وفدوا وأنا مبشرهم اذا أيسوا ولواء الحمد بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر) .

واذا بعث الله الناس – والخلائق معهم – ونشروا من قبورهم سيقوا الى المحشر فجمع المخلوقات على أرض – غير هذه الأرض – بيضاء نقية لا

= شاء الله من الملائكة والولدان والحورالعين – ثم مرة ثانية ليقوم الناس من قبورهم إلى رب العالمين (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض الا من شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون .) واسرافيل عليه السلام قائم الآن ينتظر ليؤمر بالنفخ في الصور في أي لحظة ، روى الترمذي عن أبي سعيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (كيف انعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الاذن متى يؤمر بالنفخ فيها فكان ذلك اثقل على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم – وفي رواية أي فقالوا كيف نفعل او كيف نقول ؟ قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا) .

نرى فيها عوجاً ولا أمتاً ، لا بيت فيها ولا بناء ، لا ملك فيها لأحد ولا دعوى ملك (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) . ويكونون بحيث إن نظر الناظر اليهم ينظرهم والداعي يُسمعهم على سعة المكان وبعد المسافات ، وتزدحم عليهم الشدائد والأهوال وتحل فيهم الكروب والهموم ، ويجللهم الخوف والحذر ، وتحيط بهم النار من شتى النواحي وتدنو الشمس حتى يكون بينهم وبينها قدر ميل ، وما ذلك الا لأنه عالم تجلى فيه ربه سبحانه بالغضب الذي لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وذلك اليوم هو الذي قال الله تعالى فيه (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . — يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه — يودّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه كلا انها لظى) .

يُجمع الخلق جميعاً في ذلك المحشر — وهو أرض الشام : سورية ولبنان والأردن وفلسطين — ليس لهم ما يسترون به أنفسهم ، لا مال لهم ولا جاه ، لا سلطان ولا أتباع . وحين قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها ان الناس يبعثون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، تقول يا رسول الله كيف الرجال ينظرون الى النساء ، قال يا عائشة ان الأمر أهم من ذلك . روى ابن أبي الدنيا بسنده الى أنس رضي الله عنه قال : سألت عائشة رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله وكيف يحشر الرجال ؟ قال حفاة عراة .. ثم انتظرت ساعة ثم قالت يا رسول الله كيف تحشر النساء ؟ قال كذلك حفاة عراة ، قالت واسوأتاه يوم القيامة ، قال وأي ذلك تسألين ، انه قد أنزل عليّ آية لا يضرك كان عليك ثياب أم لا ، قالت أية آية يا رسول الله ؟ قال (لكل

امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) . ورواه أبو يعلى الموصلي [1] .

ثم تُدنى الشمس من رؤوسهم فتكون على قدر ميل منهم ، ويخوض الناس في أعراقهم على حسب أعمالهم في الحياة الدنيا . روى مسلم بسنده الى المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل — قال سليم بن عامر فوالله ما أدري ما يعني بالميل أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين — قال فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون الى كعبه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون الى حقويه ومنهم من يلجمه العرق الجاماً) قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده الى فيه .

ويطول هذا الموقف ويطول . وتستمر هذه الشدة والهم والخوف والحر والوهج نصف يوم من أيام الآخرة وهي خمسمائة عام . وقد نال منهم العطش كل منال ، فيرون حياض الأنبياء صلوات الله وسلاماته عليهم . ولا يمكن من التقمح والنهل الا من كان على قدم الاتباع للأنبياء ، — نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ومعهم — أما الذين اتخذوا غير الرسل قدوة متبوعين : من أهل الكفر أو كانوا كفاراً فيأتون يوم القيامة يحاولون الشرب من تلك الحياض فيؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال يطردون منها . حتى أنه يكون منهم أقوام أسلموا لرسول الله ﷺ على دخل أو أسلموا حيناً ثم ارتدوا وماتوا على ذلك .

روى مسلم بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من ريح السمك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها فلا يظمـــأ بعدها أبداً) .

---

(١) ويل لبعض النساء لا يبالين ما نُظر من عوراتهن بعد ان كشفنها واتخذن ذلك موضة ومدنية ثم يدعين الايمان بالله واليوم الآخر .. والمرأة عورة مستورة .

وفي صحيح مسلم ، في كلام (.. وفيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ الخ) فان الحوض يأخذ من الكوثر الذي أعطاه الله تعالى لرسوله محمد ﷺ ولم يعطه لسواه .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ترد أمتي عليّ الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل ابل الرجل من ابله . قالوا يا نبي الله أتعرفنا ؟ قال ﷺ (نعم لكم سيما ليست لغيركم ، تردون عليّ غراً محجلين من آثار الوضوء ، وليُصدّنّ عني طائفة منكم لا يصلون فأقول يا رب هؤلاء أصحابي ، فيجيبني ملك فيقول وهل تدري ما أحدثوا بعدك) .

في ذلك الموقف الرهيب وعلى تلك الحال الشديدة تجتمع طوائف من المؤمنين تتشاور على مخرج لها من ذلك الموقف ، تأتي طوائف من المؤمنين الى بعض الأنبياء يسألونهم الوساطة عند الله تعالى كي يأذن سبحانه بانصراف الناس من الموقف .. ويأذن بحساب الناس على أعمالهم . روى مسلم بسنده الى أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : أتي رسول الله ﷺ يوماً فرفع اليه الذراع وكانت تعجبه فنهس نهسة فقال (أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الخلق يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ، وما لا يحتملون ، فيقول الناس لبعض ، ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض ائتوا آدم عليه السلام فيأتون فيقولون يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا الى ربك ألا ترى الى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم ان ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانه نهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى نوح فيأتون

نوحاً ، فيقولون يا نوح أنت أول الرسل الى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا الى ربك ألا ترى الى ما نحن فيه ، ألا ترى الى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم ان ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي ، اذهبوا الى ابراهيم ﷺ ، فيأتون ابراهيم فيقولون أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا الى ربك ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ ألا ترى الى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم ابراهيم ان ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته [١] نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري اذهبوا الى موسى ، فيأتون موسى ﷺ فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وتكليمه الناس ، اشفع لنا الى ربك ألا ترى الى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول موسى ﷺ : ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، واني قتلت نفساً لم أومر بقتلها ، نفسي نفسي ، اذهبوا الى عيسى ﷺ ، فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى . أنت رسول الله وكلمت الناس في المهد وكلمته القاها الى مريم وروح منه ، فاشفع لنا الى ربك ألا ترى الى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى ﷺ : ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر له ذنباً [٢] نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري اذهبوا الى محمد ﷺ فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا الى ربك ألا ترى الى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ نأنطلق فآتي تحت العرش فاقع ساجداً لربي ثم يفتح عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي ، ثم قال : يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع ، فارفع رأسي فأقول يا رب أمتي أمتي فيقال يا محمد أدخل الجنة من

---

(١) ذكرنا سابقاً أنها معاريض وليست كذبات صريحات معاذ الله تعالى .

(٢) في رواية أحمد والنسائي (اتخذت إلهاً من دون الله) .

أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، والذي نفس محمد بيده ان ما بين المصراعين — عضادتي الباب — من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر وكما بين مكة وبصرى [1]) .

في هذا الحديث بيان فضل النبي ﷺ عند الله تعالى ، وانه أحمد حقاً لأنه يحمد ربه بمحامد لم يحمده بها أحد قبله ، ومحمود حقاً فان الناس كلهم يحمدون شفاعته ﷺ .

لقد كان لمن سبقه من الأنبياء دعوات دعوا بها في الحياة الدنيا ، أما هو ﷺ فقد خبأ دعوته فيجعلها دعوته وشفاعته يوم القيامة ، لذا يقول له ربه سل تعطه واشفع تشفع ويقول له (ولسوف يعطيك ربك فترضى) فيقول ﷺ : لا أرضى وأحد من أمتي يعذب بالنار) . واذا شفع النبي ﷺ للخلق جميعاً وقبل الله تعالى شفاعته وقضى بدخول سبعين ألفاً من أمته الجنة دون حساب ، جاء بعد ذلك دور عرض أعمال الخلق جميعاً واستعراضها جميعاً من الله ذي الجلال . وجاء السؤال والجواب عن النوايا والقلوب ، والأقوال والأفعال في الحياة الدنيا ، قال تعالى (وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً) .

روى الامام أحمد بسنده الى أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات أما

---

(١) هذا هو المقام المحمود والذي يثيب الله تعالى به المؤمن بشفاعته صلى‌الله عليه وسلم اذا دعا بذلك الدعاء المحمود للرسول صلى الله عليه وسلم بعد سماع الأذان واجابة المؤذن والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . روى البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة) .

العرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله) .

ويومذاك تشهد الأرض على الكافرين بآثامهم عليها لا تخفي شيئاً ، روى الترمذي بسنده إلى أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله ﷺ قرأ (يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها) أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال فان أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بكل ما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا فذلك أخبارها) ورواه النسائي .

* ويومذاك يكون الندم وتكون الحسرة ! يومذاك يقول الكافر (يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولاً) .

* يومذاك يتبرأ الكبراء من حكام وأغنياء وأصحاب دعوات باطلة من أتباعهم من الفقراء والضعفاء ويقولون لهم : ما نستطيع أن نفيدكم شيئاً فان الله قد جعل جميعهم في النار ، ويقوم أول داعية الى الشر والعناد ، وشر خلق الله تعالى من الخلق ، يقوم الشيطان فيخطب في أتباعه — وأتباعه كل من لا يتبع الرسل عليهم الصلاة والسلام — قائلاً ما حكى الله عنه (وقال الشيطان لما قضي الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي اني كفرت بما أشركتموني من قبـــل) .

يومذاك يود الأتباع الضعفاء المغرورون الذين خدعتهم الشعارات وغرتهم البهارج وأزجيت لهم الوعود ، .. والدعايات ، يودون يومئذ لو تكون لهم عودة الى الدنيا ليتبرؤوا ممن أهلكوهم ولكن هيهات هيهات ولات ساعة مندم ومصيرهم جميعاً الى النار .

* يومذاك يكذب بعضهم على الله تعالى فيدعون الايمان (يقولون والله ربنا ما كنا مشركين) فيقول تعالى (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) وينكر بعضهم ما في كتب أعمالهم من الكفر والمعاصي ، فيقول تعالى لأحدهم أتريد دليلاً من نفسك ؟ فاذا قال نعم ختم الله تعالى على أعضائه من عين ويد ورجل وجلد يشهدون عليه بصدق على كفره ومعاصيه ، فيقول لأعضائه : ويحكن انما عنكن كنت أدافع ، فتقول ما حكى الله تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون — وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه تُرجعون) .

* يومذاك يُسقط في أيدي الكافرين ، تفضحهم جوارحهم وشهودهم وهيئاتهم من سواد الوجوه وزرقة العيون .

يومذاك يود الكافر لو يفتدي من العذاب الذي يُقبل عليه بكل شيء ، ولكن دون جدوى (يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه كلا إنها لظى) .

٢ — ويحاسب الله تعالى عباده المؤمنين حساباً يسيراً ، لا مناقشة فيه ولا شدة ، بل هو أن يضع الله تعالى كنفه عليه ويقرره بنعمه عليه ، ثم ذنوبه حتى اذا ظن أنه مأخوذ الى النار قال له : عبدي أما وقد سترتها عليك في الدنيا فاني أغفرها لك اليوم ، وذلك هو السرور العظيم الذي يرجع به العبد الى أهله حاملاً كتابه بيمينه . قال الله تعالى (فأما من أوتي كتاب بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب الى أهله مسروراً — فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه إني ظننت اني ملاق حسابيه فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) .

ويحاسب الله تعالى عباده الكافرين حساباً عسيراً دقيقاً ، ويناقشهم على ما قدموا في الحيــاة الدنيا من كفر وعصيان . وذلك عليهم يوم الويل والثبور ، يحملون كتبهم وراء ظهورهم ويدعون الى نار جهنم دعاً ، قال

الله تعالى (وأما أوتي كتابه من وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً انه كان في أهله مسروراً انه ظن أن لن يحور بلى ان ربه كان به بصيراً . — وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين) .

٣ — ويدخل الله تعالى صنفاً من المؤمنين الجنة دون سؤال ولا حساب . روى البخاري بسنده الى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (عرضت عليّ الأمم فأخذ النبي يمر ومعه الأمة ، والنبي معه النفر ، والنبي يمر معه العشرة ، والنبي يمر معه الخمسة والنبي يمرّ وحده ، فنظرت فاذا سواد كثير قلت يا جبريل هؤلاء أمتي ؟ قال لا ، ولكن انظر الى الأفق ، فنظرت فاذا سواد كثير ، قال جبريل هؤلاء أمتك وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب ، قلت لم ؟ قال كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : اللهم اجعله منهم ، ثم قام اليه رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : (سبقك بها عكاشة) . فاذا تم ذلك تطايرت صحف الأعمال الى أصحابها تلزم أعناقهم لا تفارقها ، فآخذ كتابه بيمينه ، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره ، ويقرأ يومذاك كل كتابه قارئاً كان في الدنيا أو أمياً ، ويقال للكافر (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) ويقول الكافر (يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) .

ذلك يوم سعادة المؤمنين ، ويوم شقاوة الكافرين .

وما أحسن ما قاله عبدالله بن المبارك منذراً من هذا اليوم ومحذراً :

وطارت الصحف في الأيدي منشّرة   فيها السرائر والأخبار تطلـــع

فكيف سهوك والأنباء واقعـــة عما قليل ولا تدري بما تقع
أفي الجنـان وفوز لا انقطـاع لـه أم في الجحيم فلا تبقي ولا تدع
تهوي بساكنهـا طوراً وترفعهـم اذا رجوا مخرجاً من غمها قُمعوا
طال البطاء فلم يرحم تضرعهـم فيها ولارقة تغني ولا جـزع
لم ينفع العلمُ قبل الموت عـالمه قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا .

٤ — ثم يؤخذ في حساب الناس . وقد ورد أن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من حقوق الله تعالى الصلاة ، ومن حقوق العباد الدماء . روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال (ان أول ما يحاسب به الرجل — والمرأة مثله — صلاته فان صلحت صلح سائر عمله وان فسدت فسد سائر عمله ، يقول الله : انظروا لعبدي هل له نافلة ؟ فان كان له نافلة أتمت بها الفريضة ثم الفرائض كذلك) ورواه النسائي والبيهقي ، ويكون السؤال بعدُ عن العبادات الأخرى مثل الصيام والصدقة ، روى أحمد بسنده الى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول يا رب إني الصلاة فيقول أنت على خير ، ثم تجيء الصدقة فتقول يا رب اني الصدقة ، فيقول أنت على خير ، ثم يجيء الصيام فيقول يا رب أنا الصيام ، فيقول انك على خير ، ثم يجيء الاسلام فيقول يا رب إني الاسلام فيقول الله تعالى انك على خير بك آخذ وبك أعطي) . قال تعالى (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) .

روى مسلم أنه ﷺ قال (إن أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامـة الدمـاءُ) .

ويكون سؤال العبد — بعد سؤال العقائد وسائر العبادات — عن جسده وصحته وحواسه كيف استخدمها في الحياة الدنيا ، وعمره أيامه ولياليه ، شهوره وسنيه كيف قضاه في الحياة الدنيا ، وعن علمه الذي تعلمه سماعاً وقراءة واجتهاداً في دين الله تعالى ، ماذا عمل فيه ، هل عاش به ودعا اليه

أم لا ، كان شمعة يحترق وينتفع به الناس أو لم يرفع بذلك رأساً قط ؟

وعن ماله كيف اكتسبه عن طريق حلال مشروع أو من أي طريق غير مبال بحلال أو حرام ، وهل أنفقه فيما أمر الله تعالى بانفاقه وأباحه ، أم بذره هنا وهناك فيما حرم الله تعالى ونهى عنه . ! قال رسول الله ﷺ (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعن جسده فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيــه) .

وكما يقتصّ الله تعالى من البشر للبشر يقتصُّ من الحيوان للحيوان كذلك ، ثم اذا قُضي بينها قال تعالى لها كوني تراباً فتصبح تراباً ، لذا يتمنى من كان كافراً في الحياة الدنيا يومذاك أن لو كان في الدنيا حيواناً .. ولكن هيهات . روى أحمد بسنده إلى أبي ذر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان جالساً وشاتان تعتلفان فنطحت احداهما الأخرى فأجهضتها — أسقطت الحمل من بطنها — قال : فضحك رسول الله ﷺ ، فقيل ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال (عجبت لها ، والذي نفسي بيده ليتعادنّ يوم القيامة) .

وتدفع المظالم الى أهلها بالحسنات وتحمل السيئات ، إذ لا نقد يوم القيامة ولا عرض روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال (من كانت له مظلمة عند أخيه فليتحلله منها فانه ليس ثمّ دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ من حسناته فان لم تكن له حسنات أخذت من سيئات أخيه فطرحت عليه) .

ويكون للمؤمن ثمة شفعاء من أعماله الصالحة في الحياة الدنيا ، يشفع له القرآن الذي كان يتلوه في الليل ، والصيام الذي كان يصومه في النهار . روى أبو داود أنه ﷺ قال (ان القرآن والصيام يشفعان للعبد يوم القيامة يقول الصيام أي رب اني أظمأت نهاره فشفعني فيه ويقول القرآن أي رب اني أسهرت ليله فشفعني فيه قال : فيشفعان) .

ويكون أول ما يُقضى بينها من الأمم أمة الرسول الأعظم لشرف نبيها

ﷺ كما أنهم أول من يجوز على الصراط وأول من يدخل الجنة . روى ابن ماجه بسنده الى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال (نحن آخر الأمم وأول من يحاسب يقال أين الأمة الأمية ونبيها فنحن الآخرون السابقون) .

وهم أول الأمم دخولاً الجنة ، كما سبق ذكر ذلك من قبل ، جعلنا الله تعالى منهم ومعهم .

٥ — واذا حاسب الله تعالى العباد وقضى بينهم القضاء الفصل المبرم ، نُصب الصراط على متن جهنم حدٌ مثل حد السيف ، ورقة كرقة الشعر ، وحر مثل حر الجمر ، وأمر الناس أن يجوزوا عليه أما المؤمنون فيجوزون على حسب أحوالهم في الحياة الدنيا — يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم (فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر كالمطر ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الابل ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى ان آخرهم مرّاً رجل نوره على إبهامي رجليه يمر يتكفأ الصراط — يميل الصراط —) رواه الترمذي من كلام ابن مسعود رضي الله تعالى عنه .

وأما المنافقون — وقد ظنوا أنهم خدعوا الله تعالى حين كانوا مع المؤمنين يسيرون على أنوارهم — فإنهم لا يأخذون في جواز الصراط حتى يذهب نور المؤمنين من بين أيديهم ويُسلب المناققون الاستفادة من نورهم ، فينادون المؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم ونستضيء به في جواز الصراط فيقول لهم المؤمنون هذا نورنا ، وأنتم ارجعوا وراءكم فالتمسوا هناك نوراً فيرجعون .. فيرون أن الله تعالى قد ضرب بينهم وبين المؤمنين بسور لا ينفذ منه النور ويسمعُ الكلام ، فيقولون للمؤمنين لماذا تركتمونا هكذا في الظلام ؟ لقد كنا معكم في الدنيا نصلي بصلاتكم ونطيع مثلكم ، فيقول لهم المؤمنون نعم ، ولكنهم فعلوا ذلك نفاقاً ورياء ، لا ايماناً واخلاصاً ، واليوم قد كشف الرغوة من

الصريح ، وبان الاخلاص من الرياء . قال الله تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قبل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) .

يأخذ المنافقون مسيرهم على الصراط حيارى لا نور لهم ولا أمل — فتجد أرجلهم حدة الصراط وحده ودقته [1] فتخطفهم الزبانية إلى النار فيهوون فيها وبئس المصير .

وعند جواز الصراط لا يسأل الله تعالى ثمة الناس ولا الملائكةُ الكرام ، لسيماهم وعلاماتهم الدالة على حقائقهم كما قال الله تعالى (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان .. يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) .

وهكذا يكون ورود الخلق جميعاً على جهنم ! لا يتخلف عنها مؤمن ولا كافر.. أما المؤمنون فتكون عليهم برداً وسلاماً .. وأما الكافرون فتكون عليم سعيراً وعذاباً ويذرهم الله تعالى فيها جثياً ، قال الله تعالى (وان منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) . روى أحمد بسنده الى جابر رضي الله تعالى عنه حين سئل عن قوله تعالى (الا واردها) قال : حمت ان لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول (الورود الدخول) لا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما

---

(١) روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه انه قال (بلغني ان الجسر أدق من الشعر وأحدّ من السيف) .

كانت على ابراهيم ، حتى ان للنار – أوقال جهنم – ضجيجاً من بردهم حتى ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً) .

٦ – واذا جاز المؤمنون وحدهم الصراط ، وبقي الكافرون والمنافقون في نار جهنم وعذابها جزاء ما أسلفوا في الحياة الدنيا ، حُبس المؤمنون على قنطرة بين الجنة والنار ليقتص من بعضهم لبعض هناك ، حتى يدخلوا الجنة وليس على أحد منهم مظلمة لأحد ، روى البخاري بسنده الى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (اذا خلص المؤمنون حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار فيقاصون – ويؤخذ من كل واحد منهم ما عليه ويأخذ ما له – من مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا نقوا وهذبوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفسي بيده لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمسكنه الذي كان له في الدنيا) .

٧ – يوم القيامة الذي هو خمسون الف سنة ويقضي الله تعالى بين العباد في نصف يوم منه حتى يدخل أهل الجنة الجنة فيقيلون فيها .

ذلك اليوم الطويل المليء بالأهوال والمشاق والمخاوف والأحزان ، ذلك اليوم عند المؤمن فترة يسيرة يسيرة لا تزيد على فترة صلاة ركعتين – وقد مرّ سابقاً أن أمور الآخرة من المتشابه الذي نؤمن به ولا نتكلف ادراك حقيقته – . روى أحمد بسنده (الى أبي سعيد رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين الف سنة ما أطول هذا اليوم ؟ فقال ﷺ (والذي نفسي بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا) .

٨ – ويحسن الله تعالى خلقة المؤمنين قبل دخولهم الجنة ويطيل قاماتهم ، ويوحد أعمارهم ، ويوحد لغتهم بلغة الحبيب المصطفى ﷺ . روى ابن أبي الدنيا بسنده الى أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستين ذراعاً بذراع الملك على حسن يوسف وعلى

ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين وعلى لسان محمد ﷺ . وقريب منه رواية البيهقي له .

وقال ابن كثير : وثبت أن أول زمرة منهم على صورة القمر ثم الذين يلونهم في البهاء كأضوأ كوكب دري في السناء ، وأنهم يجامعون ولا يتناسلون ولا يتوالدون الا ما يشاؤون ، وانهم لا يموتون ولا ينامون ، لكمال حياتهم وكثرة لذاتهم وتوالي نعيمهم ومسراتهم ، وكلما ازدادوا خلوداً ازدادوا حسناً وجمالاً وشباباً وقوة وكمالاً ، وازدادت لهم الجنة حسناً وبهاء وطيباً وضياء ، وكانوا أرغب شيء فيها وأحرص عليها وكانت عندهم أعز وأغلى وألذ وأحلى ، كما قال تعالى (خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً) [1] .

أول من يدخل الجنة

وكما يكون رسولنا الأعظم ﷺ أول من ينشق عنه القبر فيبعث من خلق الله تعالى ، وأول شافع وأول مشفع ، فانه يكون كذلك أول من يدق باب الجنة فيفتح له الملك ويقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ، فيدخلها ومعه فقراء المؤمنين من أمته ، ثم أهل الجنة من أمم الأنبياء [2] . عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول محمد فيقول بك ــ نفتح الباب لك قبل غيرك من الأنبياء ــ أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك) رواه مسلم .

ويكون المؤمنون ثلثي أهل الجنة في الأمم السابقة ثمانين صنفاً من مائة وعشرين صنفاً .

آخر من يدخل الجنة

واذا فرغ الله تعالى من القضاء ــ وهو سبحانه لا يشغله أمر قط ــ بين

---

(١) الفتن والملاحم / ٢ ــ ٥٣٢ / .

(٢) سبق الاشارة إلى هذا الأمر عند ذكر حديث (نحن الآخرون السابقون) .

العباد ، ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، يكرم الله تعالى رجلاً يقال له جهينة بدخول الجنة على صفة يذكرها رسول الله ﷺ فيما رواه عنه البخاري برواية عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه (اني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً رجل يخرج من النار حبواً ، فيقول الله اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل اليه أنها ملأى فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملأى ، فيقول اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها فيخيل اليه أنها ملأى فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملآى ، فيقول اذهب فادخل الجنة فان لك من الدنيا عشر أمثالها ، أو أن لك عشر أمثال الدنيا ، فيقول تسخر مني أو تضحك مني وأنت الملك ؟) فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه ، وكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة) .

فيا أيها المؤمن الفقير — والناس جميعاً فقراء الى الله تعالى — أرأيت غنى أدنى أهل الجنة ؟ انها مثل هذه الدنيا عشر مرات في بقاء لا يزول ولا يبيد ، فكيف حال من يدخل الجنة مع أول الداخلين ويكون من السابقين ؟

أيغتر العاقل بهذه الدنيا القليلة الفانية ويؤثرها على النعيم العظيم المقيم في الآخرة ، والغنى المقيم الذي لا يبيد .

قال أحد الصالحين : (لو كانت الدنيا من ذهب والآخرة من خزف لكان حرياً بالعاقل أن يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني) .

٩ — واذا اجتمع في الجنة جميع أهلها الذين هم أهلها ، وحشر في النار جميع أهلها الذين هم أهلها ، أُتي بالموت — مفرق الجماعات وهاذم اللذات ، ومنغص القلوب ومذهب السعادات في نظر عامة الناس — ليذبح في مكان يراه أهل الجنة وأهل النار جميعاً ، فيسر المؤمنون سروراً لا سرور مثله ، ويحزن الكافرون حزناً لا حزن مثله ، وييأسون يأساً لا يأس مثله .

روى أحمد بسنده الى عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال

رسول الله ﷺ (اذا صار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار جيء بالموت [1] حتى يوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ، ثم ينادي مناد يا أهل الجنة : خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت فازدادا أهل الجنة فرحاً الى فرحهم وازداد أهل النار حزناً على حزنهم) ورواه الشيخان .

١٠ ـ صفات المؤمنين في دخولهم الجنة :

يدخل المؤمنون على استقبال الملائكة الكرام وبشائرهم لهم بالسلام والتحيات ، على مثل آدم عليه السلام في الطول ستين ذراعاً طولاً ، وسبعة أذرع عرضاً ، وعلى مثل عمر عيسى عليه السلام حين رفعه الله تعالى الى السماء الثانية . وجوه بعضهم كالأقمار جمالاً ونوراً ، ووجوه بعض آخر على ضياء أشد كوكب دري في السماء اضاءة ، جرداً مُرداً مكحلين ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة ـ العود الهندي وهو طيب ـ وأزواجهم الحور العين [2] . على صورة واحدة في الجمال العظيم والحسن مثل جمال وحسن يوسف عليه السلام ، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم يعطى أحدهم قوة مائة رجل [2] من أهل الدنيا ، يحيون فلا يموتون أبداً وينعمون فلا يبأسون ويصحون فلا يمرضون أبداً ، نعيمهم باق لا يفنى ، ويزيدهم الله تعالى فيه ما يشاؤون (.. ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً مـــن غفور رحيم) .

---

(١) تذكر ان الحياة والموت مخلوقان لله تعالى ، وتذكر ان أمور الآخرة من المتشابه في الحياة الدنيا ، قال تعالى (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) .

(٢) من حديث رواه مسلم وأبو يعلى .

١١ – صور من نعيمهم في الجنة :

والجنات ثمان بعضها فوق بعض ، ودرجاتها مائة درجة ، أعلاها جنة الفردوس الأعلى التي كان يطلبها رسول الله ﷺ ويسأل الله تعالى اياها ، وأعلى مرتبة فيها هي مرتبة الوسيلة ، وقد أكرمه الله تعالى . ونحن ندعو له بها عقب كل أذان ، وبعدها جنات منها جنة المأوى ، عليين ، دار السلام ، وجنات عـــدن .

ومع أن أهل الجنة ليسوا في حالة واحدة في الجنة ، بل يختلفون حسناً ونعيماً وسروراً ، الا أن الله تعالى قد طهر قلوبهم – قبل أن يدخلهم الجنة – من الغلّ ولغو القول وسوء الخلق ، وملأ قلوبهم بالوداد ونفوسهم بالحب . قال الله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين) . وهاك بعض صور نعيمهم في الجنة ، وان كان لا يدرك في الدنيا حقيقتها أحد من البشر – جعلنا الله تعالى من أهل جنة الفردوس الأعلى آمين .

١ – يعطون نعيماً لا يستطيع خيال أن يصل اليه ، ولا يجوز لأذن أن تسمع بمثله ، أو أن تتمثله عين . فحدث عن ذلك النعيم ولا حرج ، وأياً بلغت صورتك الخيالية في تمثل ذلك النعيم ، فالنعيم أعظم من ذلك وأجمل . روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال (قال الله عز وجل (أعددت لعبادي الطائعين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

٢ – يعطون قصوراً جميلة عظيمة فيها ما تلذ العين والأنف والأذن والنفس والقلب جميعاً . روى أحمد بسنده الى أبي هريرة رضي الله تعالى عنه من حديث طويل وفيه (قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال (الجنة لبنة فضة ولبنة ذهب وملاطها – طينها – المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم ولا يبأس – لا يصيبه

البؤس والحاجة — ويخلد ولا يموت ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه) .

٣ — وينعم الله تعالى عليهم بفضل منه عظيم ، لؤلؤة مجوفة لا تسل عن جمالها وسعتها ، وبساتين فيها آنية الذهب وجميع ما فيها ذهب ، ومثلها من الفضة جميع ما فيها فضة ، في دار خلود لا ينتهي وسرور لا ينقضي وصفاء لا يشوبه كدر . عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال قال رسول الله ﷺ (ان للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة عرضها — وفي رواية طولها — ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل لا يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ومـــا بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن) . متفق عليه .

٤ — وينعم الله تعالى على المؤمن في الجنة أن يزداد جمالاً وحسناً وضياء يوماً على يوم ، كما يكون ذلك لأهله ، وذلك يزيد ما بينهم من حب ، ويغذي ما ثمة من مودة ، ويربي ما بينهم من رغبة وشهوة فيزدادون بذلك لذة على لذة . عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ان في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً فيرجعون الى أهليهم وقد زادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً) . رواه مسلم .

٥ — ويسرون سروراً لا حدود له ، حين يبشرون بالشباب الدائم والنعيم الدائم والصحة الدائمة والحياة الدائمة . ولعمر الله لو أن انساناً أعطي مال قارون وملك سليمان عليه السلام ، وعمر نوح عليه السلام لما لذت له حياة وهو يودع كل يوم ميتاً ويعاين سقيماً ، ويرى شبابه كيف يذوي وحياته كيف تخطو الى الموت . قال القديم :

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ‏ ‏ لذاته بادكار الموت والهرم .

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال (ينادي مناد — أي في الجنة — اذا رأوها من بعيد : ان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وان لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وان لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً) . رواه مسلم .

٦ — وينعمون بتشنيف الحور العين آذانهم بأجمل الأصوات وألذ الألحان وأحلى الألفاظ ، يغنين مجتمعات ، فيكون من بالغ سرورهم بذلك ما يكون . عن علي رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ان في الجنة لمجتمعات للحور العين يرفعن — يرفعن أصواتهن — بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له) . رواه الترمذي .

٧ — وهذه الدنيا بما فيها من مال ومتاع وسلطان ولذاذات ، ولو كان ما فيها دائماً ، لا تعادل شيئاً من النعيم المقيم هناك . فكيف والدنيا وما فيها مشوب : مشوب نعيمها بالخوف والحذر والمرض والذل والفقر والهلاك .. ومآلها الى زوال وانقضاء .. ثم يكون سؤال ومناقشة حساب وجنة أبداً أو نار أبداً .

فلا يحق لعاقل ، ولا يجوز لمتبصر أن تغره الدنيا عن الجنة ، ويخدعه الشيطان عن النعيم المقيم . عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء الجنة اطلعت الى الأرض لأضاءت ما بينهما — بين المشرق والمغرب — ولملأت ما بينهما ريحاً ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها) . رواه البخاري .

وهذه آيات من القرآن الكريم في وصف بعض نعيم الجنة ، جعلنا الله تعالى من أهلها .

١ ــ قال الله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم) . سورة : فصلت .

٢ ــ وقال تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) . سورة الزمر .

٣ ــ وقال تعالى (مثل الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) . سورة محمد ﷺ .

٤ ــ وقال تعالى (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً . وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً . قوارير من فضة قدروها تقديراً . ويُسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً . عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً واذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحُلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً . ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً) الدهر ...

٥ ــ وقال الله تعالى (ان المتقين في مقام أمين . في جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى [١] ووقاهم

---

(١) الموتة الأولى هي التي ذاقوها في الدنيا حين خرجوا منها بها .

عذاب الجحيم . فضلاً من ربك ذلك الفوز العظيم) . الواقعة .

صفات الكافرين في دخولهم النار أعاذنا الله تعالى منها .

يدعّ الكافرون ويدفعون الى نار جهنم دعاً ، صماً وبكماً وعُمياً كالحين عابسين ، جياعاً ظماء ، غلاظ الجلود سود الوجوه الى اختناق ، زرق العيون الى ظلام في أعناقهم الأغلال ، وعلى أيديهم وأرجلهم السلاسل والقيود ، يسحبون فيها على وجوههم حتى يكبوا أذلة صاغرين في النار ! ..

وتعرفهم الملائكة بسيماهم فيأخذونهم بالنواصي والاقدام ، تجمع رؤوسهم الى أقدامهم هكذا كما يفعل بالخشبة تثنى ثم يلقون الى النار .

واذا ألقوا في النار ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين ، في ظلام ، في نار لا لهب فيها ولا نور ، ويقول لهم خزنتها وزبانيتها (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون) .

وتحرق النار جلودهم الغليظة ، ولحومهم القاسية حتى تصل الى أفئدتهم .. فاذا أحرقت الجلود واللحوم أعيدت كما كانت ليذوقوا دائم العذاب .

نعوذ بالله تعالى من غضبه والنار .

صور من عذاب أهل النار :

١ ــ والنار دركات بعضها دون بعض لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم فهي الجحيم وجهنم والسعير والهاوية وسقر والحميم والحطمة ، والويل ولظى ، وأدناها وأسفلها أشدها عذاباً وهي مقر المنافقين يحشر لها أهلوها ، ويُسيرون على وجوههم بعد أن كانوا يَسيرون في الدنيا على أقدامهم ، عُمي العيون بعد أن كانوا في الدنيا يبصرون ، بُكماً بعد أن

كانوا في الدنيا ينطقون ، صُماً بعد أن كانوا في الدنيا يسمعون يعذبون بنار لا تفنى ولا يخفف شيء من عذابها ، قال الله تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً كلما خبت زدناهم سعيراً) .

٢ – ويعذبون مع عذاب الأجسام على صور – لا يطيقها سواهم – عذاباً هو الحسرة والندم وكم يحز في النفس فوات الفرصة خاصة اذا كانت لا تعود ، فكيف اذا كانت عذاباً لا يُرفع أبداً ، وكان دعاء لا يُسمع أبداً بل يذهب كما يقولون أدراج الرياح ، قال الله تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) .

عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة : لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به ؟ فيقول نعم ، فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم ، أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت الا أن تشرك بي) . متفق عليه . قال الله تعالى (ولو أن للذين كفروا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به) .

٣ – ونار العذاب للكافرين ، وطعام العذاب وشرابه ، ولباسه وثيابه ، مما تقشعر الجلود من ذكره ، ويدور الرأس من سرده ، وينقطع القلب من عرضه .

ان أهل النار يجوعون فلا يشبعون أبداً ، يظمؤون ولا يروون أبداً ، ييأسون فلا ينعمون أبداً يعذبون ولا يراحون أبداً .

يبقون جياعاً ظماء عراة ، ويدخلون النار كذلك ، حتى اذا أبقوا في النار كذلك ما شاء الله طلبوا طعاماً فأطعموا (طعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً). وإذا غُصوا به وأرادوا دفع الغصة طلبوا ماء (فسُقوا ماء حميماً فقطع

امعاءهم) . واذا طلبوا ثياباً (قطعت لهم ثياب من نار – سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) . ويقال ثمة عن أبي جهل ومن كان مثله (ان شجرة الزقوم طعام الاثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق انك أنت العزيز الكريم) . الدخـــان .

وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى (يُسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ) يقرب الى فيه فيكرهه فاذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فاذا شربه قطع امعاءه حتى تخرج من ظهره ، يقول تعالى (وسقوا ماء حميماً فقطع امعاءهم) ويقول سبحانه (وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب) . رواه الترمذي .

٤ – ويؤتى بالنار الى الكفار يوم القيامة لها زفير وشهيق يصم آذان الكفار ويقطع قلوبهم ، والنار مخلوق عظيم لها سبعون الف زمام على كل زمام سبعون الف ملك يجرونها ، وقد أوقد عليها الف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها الف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها الف سنة أخرى حتى اسودت فهي لذلك سوداء مظلمة ، تدعو من أدبر عن الاسلام وتولى عنه ليكون موضع غضب الله تعالى وانتقامه منها ، انها نار يشفق منها سيدُ الرسل ويخاف ، ويشفق منها عظيم الملائكة ويخاف . أخرج ابن مردويه بسنده إلى عمر رضي الله عنه قال (أتى جبريل إلى النبي ﷺ في حين لم يكن يأتيه فيه فقال يا جبريل : (ما لي أراك متغير اللون ؟ فقال اني لم آتك حتى أمر الله تعالى بفتح النار فقال له رسول الله ﷺ صف لي النار وانعت – صف – لي جهنم ، فقال ان الله أمر بها فأوقد عليها الف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها الف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها الف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يضيء شررها ولا يُطفأ لهيبها والذي بعثك بالحق لو أن حلقة من السلسلة التي نعت

الله تعالى في كتابه — يشير الى قوله في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه — وضعت على جبال الدنيا لاذابتها ، فقال النبي ﷺ حسبي يا جبريل لا يتصدع قلبي . فنظر النبي ﷺ اليه يبكي ، فقال يا جبريل تبكي وأنت من الله بالمكان الذي أنت به ؟ قال : وما يمنعني أن أبكي وأنا لا أدري لعلي أن أكون في علم الله على غير هذه الحال .

فلم يزل النبي ﷺ يبكي وجبريل حتى نوديا يا محمود يا جبريل ان الله قد أمّنكما أن تعصياه . قال فارتفع جبريل وخرج النبي ﷺ فمرّ بقوم من أصحابه يتحدثون فقال : تضحكون وجهنم من ورائكم ؟ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم الى الصعدات — الطرقات — تجأرون — تدعون بصوت عال — الى الله تعالى فأوحى الله تعالى يا محمد : اني قد بعثتك مبشراً . قال فقال النبي ﷺ ابشروا وسددوا — اطلبوا السداد وهو القصد في الأمر — وقاربوا — ايتوا من الأعمال ما يقربكم اليه وتطيقونه —)

قال الضياء قال الحافظ أبو الفتح — يعني اسماعيل بن محمد بن الفضل — هذا حديث حسن واسناده جيد (١) .

عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يجاء بجهنم تقاد بسبعين الف زمام مع كل زمام سبعون الف ملك يجرونها) . رواه مسلم وروي موقوفاً عليه رضي الله تعالى عنه .

٥ — وهذه صورة من صور عذاب أهل النار وشدته ، يبلغ بهم اليأس كل مبلغ ، ويصل بهم القنوط الى آخر موصل ، ويُقطع لهم فيه كل رجاء وأمل . قال أبو الدرداء رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ (يأتي على أهل النار الجوعُ فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع — نبت له شوك لا تقربه دابة لخبثه ولو أكلت ماتت — لا يسمن ولا يغني من

---

(١) انظر الفتن والملاحم لابن كثير / ٢ — ٢١٩ / .

جوع ، فيستغيثون بالطعام — ثانياً لعدم انتفاعهم بما أغيثوا به أولاً — فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بشراب ، ويستغيثون بالشراب فيرفع لهم الحميم بكلاليب الحديد اذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فاذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم فيقولون — أي الخزنة — ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا في ضلال ، قال فيقولون ادعوا مالكاً فيقولون يا مالك ليقض علينا ربك — ليمتهم الله تعالى — فيجيبهم مالك انكم ماكثون . قال الأعمش نبئت — أي من بعض الصحابة — أن بين دعائهم وبين اجابة مالك اياهم الف عام ، قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فانا ظالمون) . قال فيجيبهم (اخسؤوا فيها ولا تكلمون) قال فعند ذلك يئسوا من كل خير ، وعند ذلك يأخذون في الزفير والحسرة والعويل) . رواه الترمذي .

قال عبدالله بن عبد الرحمن — أحد المحدثين من أصحاب التخريج — : والناس لا يرفعون هذا الحديث ، أي يجعلونه موقوفاً على أبي الدرداء لكنه في حكم المرفوع ، فان أمثال ذلك ليس مما يمكن أن يقال من قبل الرأي اهـ [١] .

٦ — بل ان لحظة واحدة في النار يُدخل فيها الكافر — المنعم في الحياة الدنيا بالمال والجاه والعمر واللذة والسلطان والبطر — تنسيه ما كان له في الدنيا ، وما رأى وما ارتكب فكيف على خلوده في النار وبقائه الدائم فيها ؟ .
عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة — فيصبغ — يغمس — في النار صبغة ثم يقال له يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا والله يا رب ، ويؤتى

---

(١) انظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لمنلا علي القاري / ٥ — ٣١٩ .

بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط هل مر بك شدة قط ؟ فيقول لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط) . رواه مسلم .

٧ — وما أشد عذاب النار وحريقها ! ان تلك النار أعظم من أعظم نار في الدنيا وأشد احراقاً بسبعين ضعفاً ، حتى ان أخف أهل النار عذاباً لرجل له نعلان من نار يغلي من ذلك دماغه وما يرى أن أحداً أشد عذاباً منه . فكيف يكون عذاب المنافقين وهم في أسفل دركاتها ؟!

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ان ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم) قيل يا رسول الله ان كانت لكافية قال (فضلت — أي نار جهنم عليهن — أي على نار الدنيا — بتسعة وتسعين جزءاً كلهن مثل حرها) . متفق عليه .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (ان أهون أهل النار عذاباً من له نعلان — من تحت قدميه — وشراكان — من فوق قدميه — من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وانه لأهونهم عذاباً) متفق عليه .

وهذه آيات من القرآن الكريم في وصف بعض عذاب أهل النار . أعاذنا الله والمسلمين منها .

١ — قال الله تعالى (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً) الكهف .

٢ — وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) التحريم .

٣ — وقال تعالى (هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يُصب من فوق رؤوسهم الحميم يُصهر به ما في بطونهم والجلودُ . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) . الحج .

٤ — وقال تعالى (ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون) . المؤمن .

٥ — وقال تعالى (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزاً حكيماً) .

٦ — وقال تعالى (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) السجــدة .

٧ — وقال تعالى (ان شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم خــذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق انك أنت العزيز الكريم . ان هذا ما كنتم به تمترون) . الدخان .

الجنة والنار باقيتان أبداً ..

ذكرنا من قبل أنه اذا دخل أهل الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ أتي بالموت في صورة كبش فيذبح بحيث يراه أهل الجنة وأهل النار ، ثم ينادي مناد يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ، وحديثه ثابت في الصحيحين .

ولقد جاءت ثمان وثلاثون آية في القرآن الكريم تذكر خلود الجنة على

أهلها أبداً ، وجاءت أربع وثلاثون آية في القرآن الكريم تذكر خلود النار على أهلها كذلك أبداً .

قال الله تعالى في شأن الجنة (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً — أكلها دائم وظلها . — فأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض عطاء غير محدود) .

وقال سبحانه في شأن النـــار (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون — ان الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً — ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً الا طريق جهنم خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون . — والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور — وما هم بخارجين من النار ، ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون) .

وقد فسر الحسن البصري وقتادة آية (لابثين فيها أحقاباً) بما يدل على بقاء الكفار الدائم في النار لا خروج لهم منها ، فروى الطبري بسنده الى الحسن رحمه الله تعالى أنه سئل عن هذه الآية فقال (أما الأحقاب فليس لها عدة الا الخلود في النار) . وروى الطبري بسنده الى قتادة ، قال : قال الله تعالى لابثين فيها أحقاباً) وهو ما لا انقطاع له كلما مضى حقب جاء حقب بعده .

وروى ابن أبي الدنيا بسنده الى هشام بن حسان رضي الله تعالى عنه قال : مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكثب من رمل فبكى فقيل : ما يبكيك يا يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذكرت أهل النار فلو كانوا مخلدين في النار بعدد هذا الرمل كان له أمد يمدون اليه أعناقهم ولكنه الخلود أبداً .

وقد روي هذا المعنى عن ابن مسعود رضي الله عنه أيضاً . قال الحافظ ابن رجب في كتابه (التخويف من النار) قال أبو الحسن بن البراء العبدي في كتاب الروضة له : حدثنا أحمد بن خالد وساق السند إلى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال (لو أن أهل جهنم وُعدوا يوماً من أبد أو عدد أيام الدنيا لفرحوا بذلك اليوم لأن كل آت قريب) وذكر ابن رجب قبل هذا الأثر في هذا المعنى عن عبدالله مرفوعاً ورجح أن آخره موقوف على ابن مسعود ولفظه : (لو قيل لأهل النار انكم ماكثون في النار عدد كل حصاة في الدنيا سنة لرجوا وقالوا انا لا بد مخرجون ولو قيل لأهل الجنة انكم ماكثون في الجنة عدد كل حصاة في الدنيا سنة لحزنوا وقالوا انا لا بد مُخرجون ولكن الله جعل لهما الأبد ولم يجعل لهما الأمد) [1] .

وعقيدة أهل السنة والجماعة بقاء الجنة على المؤمنين أبداً ، وبقاء النار — بعد خروج العصاة منها — على الكافرين أبداً .

ولعل أول من قال بفناء الجنة والنار هو جهم بن صفوان [2] وقد أكفره المسلمون بقولته تلك لمخالفته الكتاب والسنة . قال عضد الدين في كتابه / المواقف / في مرصد المعاد في المقطع السادس منه : أجمع المسلمون على أن الكفار مخلدون في النار أبداً لا ينقطع عذابهم .

وإنه لمن فتنة القول وباطله أن يظن ظان أن يجمع الله تعالى رسله وأعداءهم آخر الأمر في الجنة ، فيجمع فرعون وهامان مع سيدنا موسى وهارون في

---

(١) البراهين الساطعة ص ٢٧٥ .

(٢) هو رأس الجبرية الخالصة كان يقول لا اختيار للانسان في شيء مما يجري عليه وإنه مضطر مجبور، وكان يرى فناء الجنة والنار باهليهما ، ويرى انه لا يجوز ان يوصف الله تعالى بصفة يوصف بها خلقه ، وقد أكفره المسلمون لضلالاته هذه . قُتل في آخر زمان الخليفة الأموي الأخير مروان سنة ١٢٨ والله أعلم .

الجنة معاً ، أو يجمع أبا جهل وأبي بن خلف مع رسوله محمد ﷺ في الجنة معاً .

وقد يسأل سائل فعلام خلود الكفار في النار أبداً مع أن كفرهم كان لسنين على قدر أعمارهم في الدنيا ؟ يقال : ان قلوب أولئك الكفار قد طبعت على ذلك الكفر الموجب للنار فهم كفار حقاً لسنين ، ولكنهم كفار أبداً بالعزم والقصد ، فلو عمروا في الدنيا عمر الدنيا لأصروا على كفرهم . قال الله تعالى في حقهم (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون) . أي لو أعادهم الله تعالى الى الدنيا بعد موتهم كافرين ومعاينتهم عذاب القبر لعادوا إلى كفرهم الذي كانوا عليه من قبل . نعوذ بالله من الكفر وأهله .

ومن العجب أن يكون ابن تيمية — وتلميذه ابن القيم — ممن قال بفناء النار وانتهاء أمرها وأهلها وتلك سقطة ما كان ينبغي لمثله أن يسقط فيها وهو من هو! ولكن العصمة لا تكون إلا لله تعالى ولرسله عليهم الصلاة والسلام ، ولعله اغترّ في ذلك بأقوال منسوبة إلى بعض الصحابة رضوان الله عليهم وليست صحيحة النسبة إليهم والحمد لله . ولعله أن يكون رجع عن هذا القول فيما بعد [1] . وقد رد على ابن تيمية معاصره شيخ الإسلام تقي الدين السبكي برسالة سماها / الاعتبار ببقاء الجنة والنار / بما يدفع كل شبهة في بقاء النار وأهلها ويرد كل دعوى بإذن الله .

قال رحمه الله تعالى في ختام رسالته هذه : فهذه الآيات التي استحضرناها

---

(١) قال الشيخ محمد السفاريني الاثري الحنبلي في كتابه / لوامع الأنوار شرح الدرة المضية / بعد ان ذكر بطلان دعوى فناء النار : ولشيخ الاسلام وتلميذه المحقق — يريد ابن تيمية وابن القيم — ميل إلى هذا القول . / ٢ — ٢٣٥ / .
انظر كتاب براهين الكتاب والسنة .. والبراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة ، وقد طبعا معاً ، للشيخ سلامة العزامي ، فانه مفيد في هذا الباب ، ودفع بعض البدع على أهلها بالحق . فعليك به .

في بقاء الجنة والنار وبدأنا بالنار لأنا وقفنا على تصنيف لبعض أهل العصر في فنائها . وقد ذكرنا نحو مائة آية منها نحو من ستين في النار ، ونحو من أربعين في الجنة ، وقد ذكرنا الخلود وما اشتق منه في أربع وثلاثين آية في النار وثمان وثلاثين في الجنة ، وذكرنا التأبيد في ثلاث في النار مع الخلود ، وفي ثمان في الجنة منها سبع مع الخلود . وذكر التصريح بعدم الخروج أو بمعناه في أكثر من ثلاثين . وتضافر هذه الآيات ونظائرها يفيد القطع بارادة حقيقتها ومعناها ، وان ذلك ليس مما استعمل فيه الظاهر في غير المراد . ولذلك أجمع المسلمون على اعتقاد ذلك ونقلوه خلفاً عن سلف عن نبيهم ﷺ وهو مركوز في فطرة المسلمين معلوم من الدين بالضرورة ، بل وسائر الملل غير المسلمين يعتقدون ذلك . ومن رد ذلك فهو كافر ومن تأوله فهو كمن تأول الآيات الواردة في البعث الجسماني وهو كافر أيضاً) اهـ .

قال ابن كثير المفسر – وهو وان كان على دعوة ابن تيمية لكنه يخالفه في قوله بفناء النار – اذا خرج أهل المعاصي من النار فلم يبق فيها غير الكافرين فلا يموتون فيها ولا يحيون كما قال تعالى (يشير الى قوله تعالى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى) فلا خروج لهم منها ولا محيد لهم بل هم خالدون فيها أبداً وهم الذين حبسهم القرآن وحكم عليهم بالخلود ، كما قال تعالى (ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً) وقال تعالى في سورة النساء ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً الا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً) . الفتن والملاحم / ٢ – ٣٥٥ / .

آثار الإيمان باليوم الآخر

* من اعتقد أنه مراقب في أقواله وأفعاله ، محسوبة عليه حركاتُـــه وتصرفاته ، بل أفكاره وإراداته ، وانه معروض يوماً في ذلك كله على محاسب دقيق خبير شديد العقاب ذي الطول فريد البطش عظيم الانتقام ، من اعتقد ذلك لا ريب أنه يتأنى في أقواله وأفعاله ويتروى في تصرفاته كيلا يطوله العقاب الشديد وينجو من العذاب الأليم .

* من تيقن مراقبة والده له أو صاحب المكانة في قومه في أقواله وأفعاله ونواياه يحسب عليه حركاته وتصرفاته ، من تيقن ذلك لا ريب انه يزن أقواله وأفعاله خشية أن يغضب والده أو ينقم عليه ذو المروءة في قومه .. فكيف بالله مالك الثواب والعقاب حقاً ولا يملك ذلك أحد سواه الا عطاء . !

* من تيقن أن مالك كل شيء ومليكه الغني الذي يعطي الكثير على القليل والجليل على اليسير ، خزائنه ملأى لا يغيضها الانفاق سواء بالليل والنهار ، من تيقن أن الله تعالى يراه في أحواله كلها ، لا ريب أنه يحسن القول والعمل حيث يراه سبحانه لشدة حاجته الى فضله ودوام فقره الى جوده وعطائه .

* من يتقن أن مالك كل شيء ومليكه العزيز الذي لا يعجزه شيء ، والقدير الذي لا مهرب منه الا اليه ، من تيقن أن شديد البطش عظيم الانتقام يقدر عليه في كل حال ، لا ريب أنه يحسن القول والعمل ، وينقي النية والقلب حيث يخشى الخلاف ويخاف العقاب .

* ومن تيقن أن الله تعالى جعل له ملائكة يراقبون منه كل شيء ، ويكتبون له وعليه كل شيء وان ذلك جميعاً معروض عليه - والويل له ان أساء القول والفعل وخف ميزان حسناته وأعطي كتابه بشماله ، الويل له فما ثم الا النار التي تطلع على الأفئدة وكلما حرق جلده واتقد لحمه وظن أنه مقضي عليه بالموت أعيد كما كان من قبل ليذوق العذاب - ، .

من تيقن ذلك لا ريب أنه يخشى أن يكتب عليه الا ما يسره يوم القيامة أن يراه .

* حقاً من تيقن مجيء يوم عرض الأعمال على الله تعالى ، وقيام الحساب ، وتحقق الثواب والعقاب ، لا ريب انه يحيا الحياة الكريمة في طاعة الله تعالى والاقبال عليه ، ينفر من المعاصي ويفر من العذاب راجياً ثواب الله تعالى مشفقاً من عذابه .

يخيفه الذنب اليسير ويشفق من الخطأ والخطيئة ، يحاسب نفسه على كل كلمة ، ويقف مع قلبه عند كل خاطرة وارادة ، ويتجنب مال الشبهة واللقمة الحرام .

يخشى الاساءة الى الناس ، ويأسى على ما فاته من معروف يتقرب به الى الله .

يذكره ظلام الليل وجلسة الوحدة بظلام القبر ووحدته ، حيث لا نور ولا جليس الا ايمان وعمل صالح .

يحرص على تبليغ دين الله تعالى الى الناس ، بقوله وفعله وخُلقه وسلوكه ، يؤلمه أشد الألم أن يجد في الناس من ينسى الله تعالى وأيامه ، لذا فهو يجاهد في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته ليستلّ الكفر منهم فيصبحوا له اخواناً وأحبة .

وقرب الله تعالى اليه بقدرته وإرادته وعلمه ومنعه وعطائه أقرب من كل

قريب لذا فهو متواصل الأحزان دائم الفكرة سريع العبرة حاضر الدمعة شديد الخوف ، لا يكاد يهنأ الا اذا أقبل على الله تعالى في طاعة .

لذا كان — والله أعلم — أول ما نزل من القرآن آيات من قصار المفصل فيها ذكر الجنة والنار . وسوق الناس الى الخيرات وتجنب السيئات يكون غالباً بالترغيب ، ويكون بالترهيب أكثر من سواه .

لذا كانت آيات الترهيب — خاصة — تعمل عملها العظيم في قلوب من تنوّروا بالهدى فتخاف الله تعالى وتخشاه كثيراً ، ومن ثم تقبل عليه سبحانه وتطلب بالتقرب اليه سبحانه رضاه .

وانا لنرى كثيراً من الأوامر والنواهي متوجة بالتذكير باليوم الآخر في كثير من آي القرآن الكريم وكثير من أحاديث رسول الله ﷺ ، كي يكون ذلك مهمازاً الى الطاعة والاذعان باذن الله تعالى . قال الله تعالى (وخافون إن كنتم مؤمنين — ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر — واتقوا الله الذي اليه تُحشرون) — وكان آخر ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن قوله تعال (واتقوا يوماً تُرجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون) .

وقال رسول الله ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يحضرن موائد الخمر ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت — من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة) .

الفصل السادس

الإيمان بالقضاء والقدر

١ ـ **القدر** يأتي القدر في اللغة لمعان منها : القضاء والحكم ومبلغ الشيء والقسمة ، يقال قدر الرزق أي قسمه ، ومنها الغنى واليسار ، ومنها المقدار تقول : قدرت الثوب فانقدر أي جاء على مقدار . وفي القرآن الكريم : انا كل شيء خلقناه بقدر ـ والقمر قدرناه منازل ـ ونزلنا من السماء ماءً بقدر ـ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ـ

ويأتي في الاصطلاح بمعنى : علم الله تعالى وارادته سبحانه الأشياء في الأزل حين توجد أن توجد على صفة كذا وكذا .

ويأتي القضاء في اللغة لمعان منها : الحكم ، يقال قضى عليه أي حكم ، ومنها المصنع والحتم والبيان ، والاداء يقال قضى دينه أي أداه [١] .

ويأتي في الاصطلاح بمعنى : ايجاد الله تعالى الأشياء على وفق علمه وارادته سبحانه وتقديره في الأزل فالقضاء والقدر مآلهما الى صفتي العلم والارادة

---

(١) انظر القاموس المحيط .

من الله تعالى ، والعلم والارادة صفتان قديمتان لله تعالى كسائر صفاته سبحانه .

٢ ـ الايمان بأن الله تعالى قدر الأشياء في علمه في الأزل وأراد ذلك ، وانه لا محيد من وقوع معلوم الله تعالى ومقدوره ، وانه لا يقع في هذا الكون شيء الا بعلم الله تعالى وقدره وقضائه ، هذا الايمان هو أحد أركان الايمان وأصوله .

فمن نسب الى الله تعالى جهل الأشياء قبل وقوعها ، أو نسب اليه سبحانه العجز بأن قرر أنه سبحانه يقع في ملكه ما لا يريده ويشاؤه فقد ضل ضلالاً بعيداً ، اذ يكون قد نسب الى خالق كل شيء ومليكه النقص في العلم ، والنقص في الارادة .

ومن الثابت أن أكثر الناس كفار وأن أكثر أفعال الناس معاصٍ ـ فكأن الله ـ معاذ الله ـ عاجز أمام خلقه حين يفعلون ما لا يشاء ويريد . وذلك الكلام لا يكون من عاقل فضلاً عن مؤمن يؤمن بالله تعالى وما جاء من عنده .

٣ ـ قال الله تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ـ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ـ ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً ـ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ـ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير) .

وقال النبي ﷺ فيما رواه ابن مسعود عنه (ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم علقة مثل ذلك ـ دماً غليظاً يعلق باليد اللامسة له ـ ثم مضغة ـ قطعة لحم بقدر ما يمضغ ـ ثم يبعث الله اليه ملكاً يكتب عليه رزقه وأجله وشقياً أم سعيداً [1] . والذي لا اله غيره ان الرجل ليعمل

---

(١) المراد يكتب الرزق تقديره قليلاً أو كثيراً وصفة حلالاً أو حراماً ، وبالاجل تقديره طويلاً او قصيراً ، وبالعمل كتب انه شقي مآلا او كتب انه سعيد مآلا .

بعمل أهل النار – في رواية فيما يرى الناس – حتّى ما يكون بينه وبينها الا قدر ذراع فيسبق عليه الكتاب – يعارض عمله في اقتضاء العادة والمكتوب في اقتضاء العادة فيتحقق المكتوب – فيعمل بعمل من أعمال أهـل الجنة فيدخلها ، وان الرجل ليعمل بعمل من أعمال أهل الجنة حتّى ما يكون بينه وبينها الا قدر ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل من أعمال أهل النار فيموت فيدخلها) . رواه البخاري وغيره .

وقال ﷺ لسراقة بن مالك حين سأله قائلاً : حدثنا عن ديننا كأنا ولدنا له : العمل جرت به المقادير وجفت به الأقلام أم لشيء متقبل ؟ قال ﷺ (العمل جرت به المقادير وجفت به الأقلام) قال سراقة ففيم العمل ؟ قال ﷺ (اعملوا فكل ميسر لما خُلق له [1]) .

وقال ﷺ (ان الله تعالى كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة) رواه مسلم ، أي أمر بكتب ما في علمه القديم من ذلك سبحانه وتعالى .

فكل شيء يقع في الكون فهو بعلم الله تعالى وارادته ، وقضائه وقدره ، قال الله تعالى (قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهـون حديثـاً) .

ولا ننسب الى الله تعالى خلق الشر والسوء أدباً معه ، بل نعمم ، كما لا تقول : خلق الله تعالى الخنزير أدباً معه سبحانه بل نعمم فنقول (الله خالق كل شيء) . والله أعلم .

٤ – لقد خلق الله تعالى الانسان سليماً من الكفر والايمان ، فيه الاستعداد

---

(١) ولا ريب ان تخصيص كل أحد بما خلق له لا يوجب اضطراراً واكراهاً يسلب معه الاختيار ، غاية ما في الأمران لا يقع إلا ذلك بأن ينساق اليه العبد باختياره ودواعيه ، وإليه الاشارة بالتيسير ولم يقل يفعل ما خُلق له . اشارات المرام ص ٢٨٣ .

للايمان والكفر ، ثم أرسل الرسل متتابعين هنا وهناك ، يذكرون للناس أوامر الله تعالى ونواهيه ، فكفر منهم من كفر بفعله وانكاره وايثاره عاجل الهوى على آجل الحق ، وتقديمه أوامر الشهوات وحلاوتها على الصبر على طاعات الله تعالى وعاجل مرارتها — أحياناً — وآجل حلاوتها ، فخذل الله تعالى هذا النوع من الناس وأضله ، اذ ترك نصرته وتوجيهه لهم فحق عليهم من الله ختم الكفر وطبع الجحود وقيل فيهم (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) . وآمن منهم من آمن بفعله وتصديقه بما جاء من عند الله تعالى وايثاره وعد لله تعالى بثواب الآخرة على اغراء الشيطان واغوائه في الحياة الدنيا ، فنصر الله تعالى هذا النوع من الناس وهداه ، اذ وفقه في هذا بمقتضى فضله وانعامه — فيما قدر وقضاه سبحانه — قال الله تعالى (ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) .

لقد أخرج الله تعالى ذرية آدم عليه السلام الى يوم القيامة من ظهور آبائهم على صور الذر فجعل لهم عقولاً يفهمون بها ويعقلون ، ثم خاطبهم ودعاهم الى الايمان به سبحانه أو أمرهم به ونهاهم عن الكفر ، فأقروا له سبحانه بالربوبية . فكان ذلك منهم ايماناً ، فهم يولدون حين يولدون على تلك الفطرة ، فمن كفر بعد ذلك فقد بدل وغير في ايمانه الفطري الوهبي ، بالكفر الطارىء الكسبي ذاك ومن آمن وصدق فقد ثبت عليه واستقام ، ولم يجبر الله تعالى في الحالين أحداً على الكفر أو الايمان ولا خلقهم مؤمنين أو كفاراً — بالجبر والاكراه — لكن خلقهم أشخاصاً .. ثم الكفر والايمان انما هو فعلهم باختيارهم ورضاهم .

قال الله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها — وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين) ..

وقال ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) البخاري .

٥ — خلق الله تعالى الانسان كما شاء ، وجعل فيه أموراً تجري عليه دون قصد منه واختيار بل على سبيل الجبر والاضطرار — مثل الولادة واللون والطول والعرض والذكاء والغباء والصحة والمرض وتنفس الهواء والجوع والعطش والنوم والموت .

هذه وأمثالها — مما لا مجال بحال لمحاولة التغيير فيه — أمور تجري على الإنسان بارادة الله تعالى ومشيئته فقط ، لا نصيب للانسان فيها باختيار وارادة خاصة .

ومن هنا كان الانسان غير مسؤول أو ملوم ، لماذا جاء أبيض اللون أو أسمره ، طويلاً أو قصيراً ، ذكياً أو غبياً ، لماذا جاع وظمىء ، لماذا تعب بعد عمل أو سهر حتى نام .

ولا يرتبط بشيء من ذلك غضب الله تعالى أو رضوانه .

وان يكن بعض هذه الحالات — من جهة العباد — تتعلق بها مسؤولية لكن دون لوم أو عقاب ، مثل قتل النفس خطأ فان الدية تجب في عاقلة القاتل وان كان لا يأثم عند الله تعالى ، ومثل النائم يسقط على مال انسان فيتلفه ، فانه يضمن المال ولا يأثم — لفقدان جانب الاختيار والقصد .

وشاء الله تعالى أن يجعل للانسان اختياراً وكسباً في الأمور الاختيارية ، من فعل الخير أو الشر قصداً ، من أكل طعام كذا وشرب شراب كذا دون كذا ، من معاشرة هذا دون ذاك ، من اطعام الجائع أو سرقة الغني من اقام الصلاة أو تركها ، من فعل الاحسان الى الناس أو الأذى لهم ، وأمثالها من كل عمل يصدر عن ارادة الانسان وقصده .

وقد علم الله تعالى عن الناس أن بعضهم يختار لنفسه طريق الخير والهدى ،

وبعضهم يختار طريق الشر والردى فقدر الله تعالى ذلك للعباد .

فلما جاء بهم الى الحياة الدنيا جاء اتجاههم الى الخير والردى على وفق علم الله تعالى وارادته وكتابته وقضائه سبحانه وقدره ، مع كامل اختيار العباد وتمام قصدهم فيما فعلوا أو تركوا .

ومن المعلوم أن صفة العلم لله تعالى والكتابة والقدر والقضاء — صفة غير مؤثرة على اختيار العبد ، فالعبد يختار ما يشاء لكن مشيئته تكون وفق مشيئة الله تعالى وارادته .

سئل علي رضي الله تعالى عنه عن القدر فقال : سر الله فلا تتكلف ، فكلما ألح عليه قال : اما إن أبيت فانه أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض [١] .

لكن لئن كان الاختيار والارادة للعبد فان الخلق هو لله تعالى ، وقد أجرى الله تعالى عادته ان العبد متى عزم على فعل كذا من الطاعات أو المعاصي يخلق الله تعالى ذلك الفعل عند توجه ارادة العبد اليه . فخلق الله تعالى للفعل لا يوصف بالخير أو الشر ، وانما ارادة العبد المتجهة إلى الفعل هي التي توصف بالخير أو الشر . قال الله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) .

قال الامام أبو حنيفة رحمه الله تعالى : ان الاستطاعة التي تعمل بها المعصية هي بعينها تصلح لأن يعمل بها الطاعة ، وهو معاقب في صرف الاستطاعة التي أحدثها الله تعالى فيه وأمره أن يستعملها في الطاعة دون المعصية . اهـ [٢] .

لقد خلق الله تعالى الانس — والجن — وجعل لهم قوى مختلفة ، مثل القوة العقلية والخيالية والحفظية ، والقوة السمعية والبصرية والذوقية والسمعية ،

---

(١) اشارات المرام ٢٥٧ .

(٢) وتعلق مشيئة الخالق بخلق معصية العبد عند ارادة العبد فعلها باختياره لا يبرىء العبد من المسؤولية . الفقه الأبسط ، وتعليق الامام الكوثري عليه . ص ٥٥ .

وجعل لهم قوة اختيارية هي جزء منهم كما تكون الأيدي والأرجل أجزاء منهم ، ولا يكون الانسان مكلفاً أهلاً للمسؤولية الا بعد أن تُخلق فيه تلك القوة الاختيارية .

ألا نرى أنه لا تكليف على من لا خيار له كالمجنون والمعتوه ، لفقدان العقل والاختيار ، كما أنه لا تكليف على الصغير والمكره فيما يأتون في حالة الصغر والاكراه [1] . لضعف جانب العقل والاختيار .

لقد أمر الله تعالى الكافر بالايمان وأراد منه الكفر ، ونهاه عن المعاصي وأرادها منه ، على اعتبار أن الاختيار الذي في الانسان يتجه به الى الايمان أو الكفر ، الى الطاعة أو المعصية .

وليست ارادة الله تعالى محبته ورضاه ، حاشا لله أن يحب الكفر أو يرضاه في الكافر ولما قال مشركو مكة (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) . قال سبحانه (قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون قل أمر ربي بالقسط) ، وقال تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروه يرضه لكم) .

* ثم ان ارادة الله تعالى تطلق بإطلاقين الأول .

الارادة التكوينية ، وهي الارادة التي لا يتخلف مرادها قط ، ولا خيرة لأحد معها قط وهي ارادته سبحانه في الايجاد والاعدام والتوفيق والخذلان والعطاء والمنع وأمثالها .

قال الله تعالى (انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

الثاني : الارادة الشرعية وهي الارادة التي قد يتخلف مرادها لأنها بمعنى الرضا والمحبة ، وهي ارادته سبحانه من الخلق الايمان والطاعة وتحري مرضاته

---

(١) انظر الكوكب الساري في اثبات الجزء الاختياري للشيخ عبد الغني النابلسي .

سبحانه . قال الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر – وخُلق الانسان ضعيفاً – وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ، أي ارادة أن يعبدوه سبحانه ويطيعوه باختيارهم .

ونضرب مثلاً لعلم الله تعالى وارادته لما يكون من العبد ، وهو وان كان مثلاً ناقصاً وقاصراً – لكن التشبيه كما يقولون يؤتى به لأدنى مناسبة – ولله المثل الأعلى ، لأن معلوم الله تعالى ومراده لا يتخلف بحال ، وان يكن في ذلك اختيار العبد وخالص اتجاهه .

رجل معه منظار كبير وقف على قمة جبل عال وحوله من بعيد جماعة قد دنا منه أحدهم . قال الرجل لأصحابه بواسطة ذلك الرجل الذي أدناه منه : هناك فلان وفلان وهما يقصدان مكان كذا وكذا – لما يرى ما أمامهما بمنظاره – بواسطة نقل هي كذا وكذا ، فسأله جماعة كيف عرفت هذا ؟ قال اني أرى بهذا المنظار ما لا ترون ، وأقدر لهما غاية قبل أن يصلا إليها .

ويمشي الرجلان فعلاً حتى يصلا إلى الغاية التي قدرها صاحب المنظار لهما ، وهما لم يمشيا ويصلا الى غايتهما لأن أحداً دفعهما الى ذلك أو أراد لهما ذلك .

فهذا – ولله المثل الأعلى – مثل مقارب لعلم الله تعالى وارادته السابقة على فعل العبد ، وعدم تأثر العبد بعلم الله تعالى وارادته .

مع فارق عظيم عظيم بين علم الله تعالى وارادته وعلم صاحب المنظار وارادته ، لأن معلوم الله تعالى ومراده لا يتخلف بحال .. أما معلوم العبد فيتخلف ، اذ يجوز أن يقرر الرجلان العودة أو يخرج عليهما ما ينفرهما من المضي في السير وغير ذلك .

وذكر امام الحرمين رحمه الله تعالى مثلاً جميلاً في الارادة والاختيار ، فقال رحمه الله تعالى في العقيدة التي ألفها لنظام الملك وسماها (العقيدة النظامية) :

ان العبد لا يملك أن يتصرف في مال سيده ولو استبد بالتصرف لم ينفذ تصرفه — فان أذن له في بيع ماله فباعه نفذ البيع على التحقيق معزواً إلى السيد أن سببه اذنه ، ولولا اذنه لم ينفذ التصرف — لكن العبد يؤمر بالتصرف ويُنهى ويوبخ على مخالفته ويعاقب ، فهذا والله الحق الذي لا غطاء دونه ولا مراء فيه لمن وعاه حق وعيه : اهـ .

والحديث حول القضاء والقدر يقتضي تقرير كون الانسان حراً مخيراً في جميع التصرفات الإرادية التي تصدر بقصده وارادته . وذلك أمر ثابت شرعاً وعقلاً وحساً ومشاهدة .

ولنسرد بعض حقائق الأدلة في الأمر :

١ — **أدلة الشرع** : قال الله تعالى (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر — وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يفسقون — ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) ..

وقال الله تعالى في حديثه القدسي (... يا عبادي انما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه) رواه البخاري .

وطبعاً ليس من القدر أن يُلقي الانسان بنفسه الى التهلكة ، فلئن كان الهلاك مقدراً فالتوقي منه كذلك . وقع طاعون عظيم في الشام أيام عمر رضي الله تعالى عنه ووافق وصوله الى الشام في ذلك الوقت ، فلما وصل سأل الصحابة عما يرون ، فبعضهم أشار عليه بدخول الشام ونهاه آخرون . فأصبح وقد قرر عدم دخول الشام ، فقال له أبو عبيدة يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله ؟ قال لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله الى قدر الله ، أرأيت لو كان لك ابل اهبطت وادياً له عدوتان — جافتان — احداهما

خصبة والأخرى جدبة ، ألست ان رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وان رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً في بعض حاجته فقال ان عندي في هذا علماً سمعت رسول الله ﷺ يقول (اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها عليه ، واذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا فراراً منه) . رواه البخاري ومسلم وأحمد .

وقال ﷺ (ان الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان منكم حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت) . رواه البخاري .

وقال (اذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم واذا نهيتم عن أمر فانتهوا)

وقال (كل أمتي — أمة الدعوة وهم البشر عامة — يدخلون الجنة الا من أبى قالوا ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه مسلم .

٢ — **دليل العقل** : وحكم العقل دليل وبرهان على أن العبد الذي يؤمن بالله تعالى ويصلي الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويبر الوالدين ويلزم الصدق ويؤدي حقوق الله تعالى وحقوق العباد ، ان العبد انما يفعل ذلك بقصده وارادته ، كما يرى ذلك من دوافع الايمان .. الايمان بالله تعالى ورجاء ثوابه وخشية عقابه .

وان الذي يعيش لهواه ، لا يعرف ايماناً ولا صلاة ولا صياماً ، يعق الوالدين ولا يلزم الصدق . ولا يؤدي الحقوق الا حين تكون مصلحته القريبة في ذلك ان ذلك العبد انما يفعل ذلك بقصده وارادته لما يرى في ذلك من دوافع الهوى أو العادة أو المصلحة ، أو اتجاه البيئة رجاء .. لا أدري رجاء ماذا لأن ما سوى رجاء فضل الله تعالى عدم وليس بشيء . (ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) .

٣ — دليل الحس والمشاهدة وظاهر الحس والمشاهدة برهان وأي برهان

على أن العبد الذي يقبل على الله تعالى بقلبه وعقله ويملأ حياته بتعلم الخير وعمله وتعليمه ، ان العبد انما يفعل ذلك بقصده وارادته لما يرى في ذلك من سبيل لمرضاة الله تعالى الذي خلقه فسواه فعدله .

وكم رأينا وسمعنا عن أناس سلكوا مسالك الظلمات والكفر ، جاءتهم كلمة النور والايمان فنشلتهم من حياة الكفر الطويلة – في لحظة – الى بحبوحة الايمان ورياض العبادة والطاعة .

وإن أنس لا أنسى رجلاً سلخ سبعين عاماً من عمره على شرب الخمر والفسوق عن الطاعة .. حتى دعاه صديق له لصلاة الجمعة فذهب معه حياء منه .. وكانت خطبة الجمعة حضاً على التوبة وترغيباً في الانابة الى الله تعالى الذي يحب من أتاه تائباً فيحيل سيئاته السابقة حسنات بعد توبته .. فأخذ الرجل بكاء وبكاء ، حتى اذا انتهى الخطيب من الخطبة وصلى الناس صلاة الجمعة خرج الرجل من المسجد وقد آب الى ربه سبحانه وأناب .

ومرض بعد ذلك وأصابته آلام في المعدة ، فاستشار أطباء ، فأشار عليه بعضهم بشرب قليل من الخمر .. فقال : أموت ولا أذوق الخمر أبداً .

ان المشاهدة والحس يفرقان تماماً بين مد اليد بالمال الى يد فقير ، وبين مدها بحيلة الى سرقة مال غريب .

ان المشاهدة والحس يفرقان تماماً بين مد اليد بالاحسان الى الآخرين وبين مدها بالضرب والأذى الى الآخرين .

فيقرر ان العبد انما يفعل أحد الفعلين بمطلق ارادته وكامل اختياره ، لا يحس في ذلك جبراً وقسراً ، ولا يجد في ذلك اكراهاً والزاماً ، الا ما يجد في نفسه من رغبة في فعل هذا أو ذاك .

ولكن الويل لأولئك .. الذين يستكبرون عن عبادة الله تعالى والايمان بقضاء الله تعالى وقدره والرضا به ، ثم يذلون للأيام والليالي طواعية : وهي

من قضاء الله وقدره — يخنعون لمضي الأوقات وتصرفات الناس ، يقولون بحتمية التاريخ ، وحتمية السير وحتمية الغاية ، فكأنهم أسنان في آلة أو عقد في حبل أو حمل من الأحمال ، تلفهم دوامة يسمونها الحتمية ويسوقهم مجهول يسمونه الحتمية ، وما يدرون ما هي الحتمية ومن يسوق الحتمية في سيرها الى غايتها ، ومن يجعلهم تحت سنابك خيلها لا ارادة لهم ولا اختيار !..

ولو آمنوا بالله تعالى وقضائه وقدره لعرفوا ما لهم من مكانة عند الله تعالى واعتبار ، وأن الله تعالى أكرمهم بنعمة الحرية والاختيار .

لعمر الله ان جبرية الملاحدة أبعد الناس عن الايمان ، وأبعدهم عن استعمال العقل وأبعدهم عن الخضوع للحس والواقع .

وهذا كلام جيد من الامام ابن الهمام في بيان المرام : ان جميع ما يتوقف عليه أفعال الجوارح من الحركات وكذا التروك التي هي أفعال النفس من الميل والداعية والاختيار بخلق الله تعالى ، لا تأثير لقدرة العبد فيه ، وانما محل قدرته عزمه عقيب خلق الله تعالى هذه الأمور في باطنه عزماً مصمماً بلا تردد ، وتوجهاً صادقاً الى الفعل طالباً اياه ، اذا وجد العبد ذلك العزم — ان صمم عليه وفيه تسامح — خلق له الفعل فيكون منسوباً الى الله تعالى من حيث هو حركة ، والى العبد من حيث هو زنى مثلاً ونحوه . وانما يخلق الله تعالى هذه الأمور في القلب ليظهر من المكلف ما سبق علمه تعالى بظهوره منه ، ومخالفة الأمر أوالطاعة له ، وليس للعلم خاصة التأثير ليكون المكلف مجبوراً ، ولا خلق هذه الأشياء يوجب اضطراره الى الفعل لأنه تعالى أقدره فيما يختاره ويميل اليه من داعية على العزم على فعله أو تركه ، اذ من ترك الانســـــان ما يحبه ويختاره — وفعل شيء وهو يكرهه لخوف وحياء — [1] .

فعن ذلك العزم صح تكليفه وعنه صح ثوابه وعقابه ومدحه وذمه . وما سواه مما لا يحصى من الأفعال الجزئية والتروك كلها مخلوقة لله تعالى

---

(١) كذا في الأصل .

متأثرة عن قدرته بلا واسطة القدرة الحادثة . ومع ذلك فقد يكون حسن هذا العزم بلا توفيق منه تعالى ، وليس لأحد على الله أن يوفقه بل اذا علم طريق الخير والشر وخلق المكنة له فقد أعذر اليه ، وعدم التوفيق هو الخذلان ، وهو أن يدعه مع نفسه لا ينصره ولا يعينه ، لا يسلبه المكنة من ذلك العزم التي خلقها له . وهذه قدرة جزئية مدرجة تحت مطلق القدرة الكلية التي تخلق مع العقل بحسب جري العادة الالهية . ا هـ .

٦ — تفسير آيات : قال الله تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة — ولو شاء ربك لهدى الناس جميعاً — ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها — وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .

نعم لولا أن الله تعالى قضت مشيئته أن يجعل للانسان اختياراً أو كسباً في الأمور الاختيارية ليكون حقيقاً بثواب الله تعالى أو عقابه في الآخرة ، لولا ذلك لجعل الناس صنفاً واحداً في الجنة أو النار اجباراً دون خيرة من البشر .

وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان عادلاً لأنه يتصرف في ملكه الكامل التام الذي لا يشاركه فيه أحد من البشر وغير البشر . (لله ملك السموات والأرض ومن فيهن) ..

ولكن ذاك — وهو اعطاء الخيرة للعباد — كان قضاء الله تعالى وارادته ، ومشيئته ، ولاراد لمشيئته سبحانه من أحد من الخلق ...

* قال الله تعالى (يُضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضل به الا الفاسقين) . نعم ، ان الله تعالى بما ابتلى العباد من ضرب الأمثال وتشريع الأحكام واعطاء الارادة والخيرة ، امتحنهم بذلك ، فمن ركن الى الله تعالى وأحكامه واهتدى ثبته الله تعالى على هدايته التي اختارها وهي من علمه وارادته سبحانه (وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله) .

ومن مال عن أمر الله تعالى وأحكامه وركن الى الأهواء والشهوات ، تركه الله تعالى وخذله في فسقه الذي اختاره وهو كذلك من علمه وارادته سبحانه (. ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) .

* قال الله تعالى (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) .

قال الآلوسي عند تفسير هذه الآية بعد كلام : ومنها ما يقتضي اختيار الكفر والمعصية والعلم الالهي متعلق بها كاشف لها على ما هي عليه في أنفسها من اختلاف استعداداتها التي هي من مفاتح الغيب التي لا يعلمها الا هو ، واختلاف مقتضيات تلك الاستعدادات ، فاذا تعلق العلم الالهي بها على ما هي عليه مما يقتضيه استعدادها من اختيار أحد الطرفين الممكنين أعني الايمان والطاعة أو الكفر والمعصية تعلقت الارادة الالهية بهذا الذي اختاره العبد حال عدمه بمقتضى استعداده تفضلاً ورحمة ، لا وجوباً ، لغناه الذاتي عن العالمين المصحح لصرف اختيار العبد الى الطرف الآخر الممكن بالذات ان شاء ، فيصير مراد العباد بعد تعلق الارادة الالهية مراد الله تعالى . ومن هذا يظهر أن اختيارهم الأزلي بمقتضى استعداداتهم متبوع للعلم المتبوع للارادة ، مراعاة للحكمة تفضلاً ، وان اختيارهم فيما لا يزال تابعاً — للارادة الأزلية المتعلقة باختيارهم لما اختاروه ، فهم مجبورون فيما لا يزال في عين اختيارهم أي مساقون الى أن يفعلوا ما يصدر عنهم باختيارهم لا بالاكراه والجبر . ومنه يتضح معنى قول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : ان الله تعالى لم يُعص مغلوباً ولم يُطع مكرهاً ولم يملك تفويضاً ، ولم يكونوا مجبورين في اختيارهم الأزلي لأنه سابق للرتبة على العلم السابق على تعلق الارادة والجبر تابع للارادة التابع للعلم التابع للمعلوم الذي هو هنا اختيارهم الأزلي فيمتنع أن يكون تابعاً لما هو متأخر عنه بمراتب . فمن وجد خيراً فليحمد الله لأنه سبحانه متفضل بايجاد ما اختاروه لا يجب عليه مراعاة الحكمة ، ومن وجد

غير ذلك فلا يلومن الا نفسه لأن ارادته جل شأنه لم تتعلق بما صدر منهم من الأفعال الا لكونهم اختاروها بمقتضى استعدادهم فاختارها تعالى مراعاة للحكمة ، تفضلاً ، والعباد كاسبون بالله تعالى اذ لا كسب الا بقوة ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، والله تعالى خالق أعمالهم بهم لأنه سبحانه أخبر بأنه خالق أعمالهم مع نسبة العمل اليهم المتبادر فيها صدورها منهم باختيارهم ، وذلك يقتضي أن المخلوق لله بالعبد عين مكسوب العبد بالله تعالى ، ولا منافاة بين كون الأعمال مخلوقة لله تعالى وبين كونها مكسوبة بقدرتهم واختيارهم . اهـ [1] .

٧ — كان الامام أبو حنيفة رحمه الله تعالى من أوائل من ناقش الفرق الضالة ، وقرر العقيدة السليمة عقيدة السلف التي عليها أهل السنة من الماتريدية والأشاعرة وبعض أهل الحديث .

فلنقرأ معاً هنا بعض ما قاله رحمه الله تعالى في القضاء والقدر فهو ابن بجدتها :

قال رحمه الله تعالى ليوسف بن خالد السمتي لما سأله عن القدر : هذه مسألة قد استعصت على الناس فانى يطيقونها ، هذه مسألة مقفلة قد ضل مفتاحها فان وجد مفتاحها عُلم ما فيها ولم يفتح الا بمخبر من الله تعالى يأتي بما عنده ويأتي ببينة وبرهان .

وقال لجماعة من القدرية جاؤوا يناقشونه في القدر : أما علمتم أن الناظر الى القدر كالناظر في شعاع الشمس كلما ازداد نظراً ازداد حيرة » ، ولما سألوه التوفيق بين القضاء والعدل الالهي كيف يقضي الله تعالى الأمور كلها وتجري مع مقتضى قضائه وقدره ثم يحاسب الناس على ما يجيء على أيديهم من عمل ويقولون هل يسع أحداً من المخلوقين أن يجري في ملك الله تعالى ما

---

(١) روح المعاني محمود الآلوسي مفتي بغداد رحمه الله تعالى / ٨ — ٣ / .

لم يقض ؟ قال رحمه الله ، لا ، الاّ أن القضاء على وجهين ، منه أمر والآخر قدرة ، فأما القدرة فلا يقضي عليهم ، ويقدر لهم الكفر ولم يأمرهم به بل نهى عنه ، والأمر أمران أمر الكينونة اذا أراد شيئاً كان وهو على غير أمر الوحي (فأمر الوحي أمر تكليف وايجاد وهذا قد يتخلف) .

وحول مسألة أتقع الطاعة والمعصية بمشيئة العبد أم بمشيئة الرب ، فان كان العصيان بمشيئة العبد فهل أراده الرب وهل تتخالف الارادة والأمر ؟ يجيب رحمه الله تعالى قائلاً :

واني أقول قولاً متوسطاً لا جبر ولا تفويض ولا تسليط ، والله تعالى لا يكلف العباد بما لا يطيقون ولا اراد منهم ما لا يعملون ولا عاقبهم بما لم يعملوا ولا سألهم عما لم يعملوا ولا رضي لهم بالخوض فيما ليس لهم به علم والله يعلم بما نحن فيه [1] .

وقال الامام رحمه الله تعالى في الفقه الأكبر : خلق الله تعالى الخلق سليماً من الكفر والايمان ثم خاطبهم وأمرهم ونهاهم ، كفر من كفر بفعله وانكاره وجحوده الحق وبخذلان الله اياه ، وآمن من آمن بفعله واقراره وتصديقه وبتوفيق الله تعالى اياه ونصرته له ، وقال في فقرة أخرى منه : وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة والله تعالى خالقها وهي كلها بمشيئته وعلمه وقضائه وتقديره ، والمعاصي كلها بعلمه وقضائه وتقديره ومشيئته لا بمحبته ولا برضائه ولا بأمره [2] .

٨ — فان قيل وما فائدة الدعاء اذا كان كل شيء بقضاء الله وقدره ؟ أجاب على هذا السؤال الامام الغزالي رحمه الله تعالى بما ملخصه : اعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء ، فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة ،

---

(١) أبو حنيفة للشيخ محمد أبو زهرة ١٧٨ .
(٢) الامام الاعظم أبو حنيفة المتكلم . للدكتور عناية الله إبلاغ .

كما أن الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان ، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله وقدره أن لا يحمل السلاح ، وقد قال الله تعالى (خذوا حذركم) وأن لا تسقى الأرض بعد بذر البذر فيقال : ان سبق القضاء بالنبات نبت البذر وان لم يسبق لم ينبت البذر ، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب ، والذي قدر الخير قدره بسبب والذي قدر الشر قدر لدفعه سبباً . فلا تناقض بين هذه الأمور عند من تفتحت بصيرته [١] .

أقول بهذا القدر نستطيع أن نخوض في القضاء والقدر ، أما سر القدر ، وحكمة الله تعالى في الأفعال والتروك والايمان والكفر فأمر خاص به سبحانه لا نتكلفه ، ولا أمرنا بادراك ذلك أو طلبه ولكن أمرنا بالعمل .. وحسن الظن به سبحانه فان قضاءه لا يجري للمؤمن — خاصة — الا بخير وحكمة .

وان مثل الدعاء كمثل الدواء لا يُترك اتكالاً على ما كتبه الله تعالى .

٩ — الاحتجاج بالقضاء وكَتْب الله تعالى وعلمه ، قبل وقوع المقدور ، انما هو حجة الكفار وأهل الهوى أتباع البطالة والكسل الذين استحوذ عليهم الشيطان وزين لهم ما هم فيه .

لقد حكى الله تعالى عن الكفار احتجاجهم بالقدر في استمرارهم على الكفر ورده عليهم ، فقال (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون — وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم) .

ان المحتج بالقدر قبل وقوع المقدور يقعد عن العمل ينتظر السماء أن تمطره ذهباً أو فضة دون سعي ، يركن الى باطل هواه ، وينتظر أن يؤخذ

---

(١) ملخصاً من احياء علوم الدين / ١ — ٣٣٦ / .

بعضده الى الطاعة والصلاة دون سعي منه أو ارادة ، بل ان اصراره على المعصية يغريه به الشيطان بالثبات على باطله والدوام على مخالفته باختياره ، ويزعم له أنه على رشاد وحق . ولا يميل بطرفه الى أمر الله تعالى ونهيه ليتحول الى عبودية الله تعالى وطاعته .

وأكثر المحتجين بالقدر قبل وقوعه انما يحتجون به في أمر الايمان والطاعة لا في أمر الرزق فتجد أحدهم يسعى ليل نهار في سبيل رزقه ، ولا يركن الى الرزق المقدر له دون علل ، كما يقعد عن طلب مرضاة الله تعالى لعبادته . ركوناً منه الى القدر .

يقول البطال لو أن الله تعالى هداني الى الصلاة لصليت ، فهو في حقيقة الأمر لا يحس الزاماً له واكراهاً على ترك الصلاة الا ما يجد من مغالبة الهوى ، وهو لا يعلم يقيناً بالذي قضى الله تعالى له في المستقبل أن يفعله أو لا يفعله .

فليقبل على طاعة الله تعالى فسيجد — بعد فترة — أن الله تعالى قد شرح لعبادته صدره ، واستكان الى عبادته قلبه وضميره ، واستقام على أمر الله تعالى ونهيه وجدانه .

أما الاحتجاج بالقدر بعد وقوع المقدور ، فأمر حق . لكن اذا احتج القاتل أو الزاني أو السارق بالقدر ليدفع عنه القصاص أو الحد ، لا يكون احتجاجه حقاً . انه يخفف على المصاب مصابه ، ويحد على الفرح فرحَهُ ، يدفع المقصر الى إحسان العمل ، يريح المصاب من تذكر البلاء الذي كان أصابه — ولا يُرفع — فلا يجدد الحزن ويبكي ويشكو ، ويضيع الوقت ، وقد يسخط الرب سبحانه وهو الذي يفعل ما يشاء ويختار ، وما ذلك كله بمجديه شيئاً ، الا — الا أن يكون مهمازاً إلى فعل الخير وتجنب المصاب والشر .

وما أحسن ما يرتاح له قلب العبد بعد أن يقع المقدور أن يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله ، هذا قضاء الله وقدره ، وقضاء الله يجري على عباده بالخير .

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله خير وليس ذاك لغير المؤمن ان أصابه خير حمد الله تعالى عليه فكان خيراً له ، وان أصابته ضراء صبر عليها فكان خيراً له فكل أمر المؤمن خير) . رواه مسلم .

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال (احتج آدم وموسى — تخاصما وتناظرا — فقال موسى يا آدم أنت أبونا جئتنا وأخرجتنا من الجنة (كنت سبباً في ذلك — فقال له آدم : يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخطه لك بيده — أي كتب له [1] ألواح التوراة بقدرته — أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة — فحج آدم موسى فحج آدم موسى ثلاثاً) أخرجه البخاري في كتاب القدر [2] .

وعنه رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال (المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإذا أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان (لو) تفتح عمل الشيطان) . رواه مسلم .

الرضا بالقضاء بعد وقوعه من أركان الايمان ومطالبه . كان من دعاء النبي ﷺ (اللهم اني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك ، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة وقني السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) رواه النسائي والحاكم وأحمد .

---

(١) أي كتبه في أم الكتاب قبل كوني بكذا سنة وحكم بأنه لا محالة كائن فكيف تغفل عن العلم السابق وتذكر الكسب وتنسى القدر وانت من المصطفين الأخيار الذين يشاهدون أسرار الأشياء ولا ينظرون إلى ظواهرها . والمراد بالعدد التكثير بدليل حديث أبي سعيد عند البزار (أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل ان يخلق السموات والأرض) وارادة التكثير بالعدد شائعة في كلام العرب وليست خاصة بالسبعين . انظر هداية الباري / ١ — ٢٤ / .

آثار الإيمان بالقضاء والقدر

* أولى ثمرات الايمان بالقضاء والقدر صحة الايمان وقبوله عند الله تعالى ، فلا يتم ايمان عبد حتى يؤمن بقضاء الله وقدره .

* الايمان بالقضاء والقدر قائم على علم الله الحكيم وارادته سبحانه ، والله تعالى لا يصيب العبد المؤمن الا بما هو خير عاجلاً أو آجلاً .

* رضا الانسان الدائم المستمر على كل ما يجري في الحياة الدنيا لأنه قضاء الله وقدره ، وان لا يرضى بالمقضي به من الكفر والعصيان واستعلاء الظلم وظهور الفساد في الأرض .

* ما أجمل أن يقول العبد حين يخوف ببلاء (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا) .

* الحياة والموت بقضاء الله تعالى وقدره ، فيقدم الانسان على المخاطر في سبيل الله تعالى ، فلن يقدم ذلك أجله ، ويقول الحق ولا يبالي . فلن يقطع ذلك رزقه . ولن يصيبه الا ما كتب الله تعالى له .

سعة الرزق وضيقه بقضاء الله تعالى وقدره ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتحرى الحلال في عمله وكسبه ويتجنب الحرام في ذلك فلن يحرم رزقه من أحد . (ما قدر لماضغيك أن تمضغاه فلا بد أن تمضغاه ويحك كله بعز ولا تأكله بذل) . قال رسول الله ﷺ (ان روح القدس نفث في رُوعي

ان نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها فاتقوا الله واجملوا في الطلب) .

قيل لقتيبة بن مسلم انك توغلت في أرض الترك والأيام على أجنحة طائر ، فقال : بثقتي بالله تقدمت واذا انتهت المدة لم تنفع العدة . فكان النصر الذي بهر الناس والفلج الذي أضحى — في أيامنا كأنه خيال — والتمكن في الأرض كما تمكن الجبال .

* الإيمان بالقضاء والقدر ليس استكانة للعدو ، ولا ذلاً أمام الظالم ، ولا خضوعاً للواقع ، لقد نبيء المسلمون الخارجون الى بدر الثالثة — الموعد — أن قريشاً قد جمعت لهم الجموع الكثيرة وأتت بما لا قبل لهم بالوقوف في وجهه — فما بالوا بل أقبلوا الى بدر وهم يقولون (حسبنا الله ونعم الوكيل) . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله .

* الإيمان بالقضاء والقدر يدفع المؤمن الى طاعة الله تعالى ، والإقبال عليه بكل ما أوتي من ذكاء وعزم وقوة فهو حين ينشط للعبادة ويتلذذ بالطاعة يعلم في ذلك توفيق الله تعالى وهدايته وقبوله .

* الايمان بالقضاء والقدر يدعو المؤمن الى الجهاد الدائم فيما يرضي الله تعالى ، فان المخاطر لا تقرب أجلاً والجهر بالحق لا ينقص رزقاً .

* الايمان بالقضاء والقدر يحفظ المؤمن من البطر والغرور المهلك عند الفوز والظهور ، ويحفظه من الحزن المهلك عند الهزيمة أو نزول البلاء (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم إن الله لا يحب كل مختال فخور) .

* والصبر على قضاء الله تعالى — مع ما فيه من الأمر الشديد — يحفظ للانسان عقله ، وقلبه ، وينشطه لاعادة الكرة في سبيل ما يريد مرة ومرة حتى يبلغ ما يريد أو يهلك دونه .

* الايمان بالقضاء والقدر من أسباب سعادة المؤمن الذي يعلم أن ما قدر يكون ، وان قضاء الله تعالى يجري للمؤمن دائماً بالخير والحكمة (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

الخير والشر : لما وهب الله سبحانه الانسان عقلاً مفكراً وارادة حرة ، وفطرة نقية ، وقدرة على التصرف ، صح أن يكلفه ، ومن هنا كان التكليف المبني على الابتلاء (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) [1] .

وقد حض الباري سبحانه وتعالى عبده على ولوج باب الخير ، ودله عليه ، وقواه على فعله ، وزينه في نظره ، بتلك المواهب التي فطره عليها ، حتى اذا أقدم العبد يسر له الأسباب ، وذلل له الصعاب ، وكتب له التوفيق ، ولولا تلك الفطرة وذلك التوفيق ، لما اقتدر العبد على شيء من فعل الخير (وما بكم من نعمة فمن الله) [2] . (ما أصابك من حسنة فمن الله) [3] (الخير كله في يديك والشر ليس اليك) [4] . (لن تطاع الا باذنك ولن تعصى الا بعلمك) .

كما نهى الباري سبحانه عبده عن ولوج باب الشر وحذره منه ، وقبحه في نظره ، لكنه لم يسلبه القوة على فعله لكيلا يكون جبر ولكي يتم معنى التكليف والابتلاء ، حتى اذا أقدم العبد على المعصية وقفت في وجهه الموانع كآخر إنذار إلهي ، وهو نوع من التوفيق يقابل منحة التوفيق التي تسنح للطائع المقدم على فعل الخير ، حتى اذا أصم أذنيه وأغمض عينيه وفعل السوء ، فانه فعله بارادته واختياره . (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) [5] . غير أنه وقع باذن الله ، لكي لا يكون جبر أيضاً ، اذ أنه سبحانه لا يُعصى قسراً

---

(١) تبارك — ٢ — .

(٢) النحل — ٥٣ — .

(٣) النساء — ٧٩ — .

(٤) صحيح وهو طرف من حديث أخرجه مسلم والنسائي وأبو داود وغيرهم .

(٥) النساء — ٧٩ — .

(ولو شاء ربك ما فعلوه) [1] . (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) [2] . ولكنه لا يرضاه لعباده (ولا يرضى لعباده الكفر) [3] . ولا يأمر به (ان الله لا يأمر بالفحشاء) [4] وانما أذن بوقوعه في الحياة الدنيا ليتم معنى الابتلاء والتكليف كما بينا . ولو حال بينهم وبين ما يشتهونه من المحارم لما كان ابتلاء ، ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار ، فالخير والشر من حيث (الاذن بوقوعهما والقوة على فعلهما والعلم السابق بهما) من الله سبحانه (قل كل من عند الله) . [1] (وبالقدر خيره وشره) [5] . ولو شاء الله أن لا يقع شيء منهما لما وقع (ولو شاء ربك فافعلوه) [6] ، والخير والشر من حيث (الأمر والرضا والتوفيق) مختلفان ، فالخير مأمور به مرضي عنه ، يصاحبه التوفيق ، والشر منهي عنه مغضوب عليه ، يصاحبه التحذير . فالخير منه سبحانه هدى وتيسيراً وعوناً واذناً بالوقوع ، والشر من العبد انحرافاً عن الفطرة ، وضلالاً عن طريق الحق ، ومن الله تعالى اذناً بالوقوع (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) [7] .

* عن الرسالة القيمة (من نفحات الهدى) للطبيب حسن هويدي ، بارك الله تعالى له في العمر والعمل .

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد النبي الأمي على آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

دمشق ضحى السبت في ٢٦ من شهر محرم الحرام سنة ١٣٩٤ .

---

(١) الأنعام – ١١٢ – .
(٢) الانسان – ٣٠ – .
(٣) الأعراف – ٣٨ – .
(٤) النساء – ٧٨ – .
(٥) رواه مسلم .
(٦) الأنعام – ١١٢ – .
(٧) الروم – ٤١ – .

المراجع

١ ـ أحسن الحديث — الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

٢ ـ أضوء البيان — في ايضاح القرآن بالقرآن ، الشيخ محمد أمين الشنقيطي .

٣ ـ أصول الدين — عبد القاهر البغدادي .

٤ ـ الاعتبار ببقاء الجنة والنار — تقي الدين السبكي

٥ ـ الجام العوام عن علم الكلام — حجة الاسلام أبو حامد الغزالي .

٦ ـ آيات الله آثار الخالق الكونية والنفسية — رشيد الشدي العابري .

٧ ـ الأربعين في أصول الدين . — الإمام الغزالي

٨ ـ الجوائز والصلات — أبو الخير نور الحسن خان .

٩ ـ الايمان بالملائكة — الدكتور عناية الله ابلاغ .

١٠ ـ أبو حنيفة — الشيخ محمد أبو زهرة .

١١ ـ اشارات المرام من عبارات الامام للامام البياضي .

١٢ ـ البراهين الساطعة — الشيخ سلامة العزامي .

١٣ ـ بشرى الكئيب بلقاء الحبيب — جلال الدين السيوطي .

١٤ ـ توضيح العقائد — الشيخ عبد الرحمن الجزيري .

١٥ ـ التصريح بما تواتر في نزول المسيح — الشيخ محمد أنور الكشميري ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة .

١٦ ـ الجائزة أو أؤمن بالله لماذا ؟ — علي هلال .

١٧ ـ جوهرة التوحيد وشروحها — للشيخ ابراهيم اللقاني وغيره .

١٨ ـ الحصون الحميدية — الشيخ حسين الجسر .

١٩ ـ شرح العقيدة الطحاوية — الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني ، تحقيق الأستاذين محمد مطيع الحافظ ورياض المالح

٢٠ ـ شرح الفقه الأكبر — الشيخ علي القاري .

٢١ – الشهادة — الأستاذ عبد الرزاق نوفل .
٢٢ – روح المعاني — الشيخ محمود الآلوسي
٢٣ – سفينة الراغب — راغب باشا .
٢٤ – شرح الصدور — للامام جلال الدين السيوطي .
٢٥ – الخصائص الكبرى — للامام جلال الدين السيوطي .
٢٦ – الاسلام كما فهمت — الاستاذ محمد القاسمي .
٢٧ – في أعماق الفضاء — الدكتور عبد الحميد سماحة .
٢٨ – الفكر الاسلامي المعاصر — الأستاذ غازي التوبة .
٢٩ – عربون النفس في معرفة الأركان الخمس (خ) .
٣٠ – مع الله في السماء — أحمد زكي .
٣١ – كبرى اليقينيات — الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .
٣٢ – مختصر تذكرة القرطبي — عبد الوهاب الشعراني .
٣٣ – عوالم الآخرة — الشيخ عبدالله سراج الدين .
٣٤ – الكوكب الساري في اثبات الجزء الاختياري — الشيخ عبد الغني النابلسي .
٣٥ – فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة حجة الاسلام الامام الغزالي .
٣٦ – الفتن والملاحم — اسماعيل بن كثير .
٣٧ – مناهل العرفان في علوم القرآن — عبد العظيم الزرقاني .
٣٨ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح — علي القاري .
٣٩ – يسألونك عن الروح — محمد الشلبي
٤٠ – القاموس الاسلامي — الأستاذ أحمد عطية الله .
٤١ – هداية الباري الى ترتيب أحاديث البخاري — عبد الرحيم عنبر الطهطاوي .

الفهرست